السيرة النبوية

كما جاءت في الأحاديث الصحيحة

محمد الصوياني

الجزء الثاني



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصوياني، محمد

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة./ محمد الصوياني.-

الرياض، ١٤٢٩هـ.

٤ مج.

٢٦٨ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم.

ردمك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٥٢٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

١. السيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

رقم الإيداع: ٣٦٦٨ / ١٤٢٩

ردمـــــك: ٤-٥٢٦-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (مجموعة)

٨-٥٢٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الثالثة

١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

الرياض-شارع العليا العام-جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ - ٢٩٣٧٥٨١/ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص.ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض-العليا-تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤/ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

يحرقهم ما يحدث حولهم، ويموتون كل يوم بغيظهم.. إنهم يشـرَقون بهذا النبي وبمن معه.. مع أنه كان يتقرّب إليهم.. كان يحبُّ هدايتهم، فهم كغيرهم يحتاجون إلى من يأخذ بأيديهم إلى الحق، بل كان ﷺ يشعرهم بأنهم أقرب من غيرهم إلى الإسلام - ومع أن القرب لا يكفي أبداً - فقد كان ﷺ يشعرهم بذلك..

وكان (يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء)[1] فـ (كان أهل الكتاب يسدلون شعورهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته)[2].

لكن اليهود لا يريدون استيعاب أي شيء من محمد ﷺ.. إنهم يفضلون البقاء في معسكرهم، ولن يغادروه إلا إذا أرسل الله نبياً يهودياً يلتزم بأوراق هذه التوراة الممزقة، وكان لليهود تعاليم سلمت من التمزيق أقرها الإسلام ولم ينكرها.. من هذه البقايا:

قصة صيام يوم عاشوراء

وهو العاشر من شهر محرم (يوم عاشوراء كان يصام في الجاهلية)[3] و(أهل الجاهلية كانوا يصومون يوم عاشوراء)[4] ومنهم (قريش تصوم عاشوراء في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه. فلما هاجر إلى المدينة صامه وأمر بصيامه)[5].

وتقول عائشة: (كانوا يصومون عاشوراء قبل أن يفرض رمضان وكان يوما تستر فيه الكعبة)[6] فـ (ذكر عند رسول الله ﷺ يوم عاشوراء فقال رسول الله ﷺ: «كان يوماً يصومه أهل الجاهلية، فمن أحب منكم أن يصومه فليصمه، ومن كره فليدع»)[7] وليس

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (١٢٦٣).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام، صيام عاشوراء (١٢٠).
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٣).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥) ومسلم واللفظ له، الصيام (١١٨).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري ٢-٥٧٨.
(٧) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٢٤).

أهــل الجاهلية فقط هم من يحتفي بذلك اليوم (إنــه يوم تعظمه اليهود والنصارى)[1] وكان يهود خيبر أكثر احتفاءً من غيرهم فـ(هم يصومون يوم عاشــوراء، يتخذونه عيداً ويلبسون نساءهم فيه حليهم وشارتهم)[2].

لكــن ما علاقة ذلك كله باليهود، وهل كان رســول الله ﷺ مقلداً لأهل الجاهلية وأهل الكتاب.؟

دونمــا تردد الإجابة: لا، فمحمد ﷺ جاء وحيــاً.. لا ينطق عن الهوى، ولا يملك أن يشــرع من عند نفسه، وإذا كان سياق الحدث فيه موافقة للجاهلية ولليهود، فهؤلاء القــوم كالغريق بين الأمواج.. مرةً يتنفس هواءً كالحياة، ومــرةً يتنفس ماءً، أما الثالثة فيتنفس فيها موتاً.

ومحمد ﷺ كان يتنفس هواءً نقياً، ويتفوه وحياً وعطراً.

اســتغرب رســول الله ﷺ صيام اليهود لذلك اليوم، فكانت هذه القصة التي ســجلت كــم كان ﷺ ودوداً.. كم كان محباً لإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والســلام، وكم كان محباً لنبي اليهود موســى عليه الصلاة والســلام، فلقد (قدم ﷺ المدينة فوجد اليهود صياماً يوم عاشوراء، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما هذا اليوم الذي تصومومه؟» فقالوا: هذا يوم عظيم أنجى الله فيه موسى وقومه، وغرق فرعون وقومه، فصامه موسى شكراً، فنحن نصومه.

فقال رســول الله ﷺ: «فنحن أحق وأولى بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ وأمــر بصيامه)[3] لأن الله أمر بصيامه.. لا لأن يهوداً صاموه، فالمســألة هنا مختلفة، وليست كالحالة الأولى -حالة فرق الشعر وتسريحه - فالصوم عبادة، وأي عبادة كانت فهــي محرمة في الإســلام، إلا إذا جــاء دليل من كلام الله أو كلام رســوله ﷺ يأمر بها أو يحث عليها، وهكذا يبقي الإســلام العبادة جديدةً صافيةً تســتقى من النبع، لا

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٩).
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم، الصيام (١٣٦).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (الصوم ١٣٤).

من ترسبات التاريخ والأهواء والفلسفات، وهذا ما أغاظ اليهود، وجعلهم من ثقوب حصونهم يترقبون، ويتطلعون إلى أي خطأ قد يحدث منه ﷺ، أو من أحد الصحابة، وها هو أحدهم يجد ما يريد:

يهودي ينتقد المسلمين

فقد سمع هذا الرجل بعض الصحابة يقولون: ما شاء الله وشئت. وبعضهم يقول إذا حلف: والكعبة.

فرح اليهودي بما سمع فأطلق قدميه ولسانه تجاه رسول الله ﷺ منتقداً هذا النوع من الشرك، و(أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تنددون[1] وإنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة)[2].

سمع رسول الله ﷺ هذه الكلمات من اليهودي وتأثر بها، لكنه لم ينفجر في وجهه.. لم يقل له: من أنت حتى تعلمنا ديننا!

لم يقل له: لماذا لا تنصحون أنفسكم أيها اليهود، وأنتم تقولون (عزير ابن الله)

لم يقل: أنت لست من أهل العلم حتى نستمع إليك.

لم يقل هذا شأن داخلي فيما بيننا، ولا نقبل النقد سوى من جماعتنا الذين هم على ديننا.

لم يتفوه ﷺ بشيء من ذلك، بل ضرب لأتباعه المثل الأعلى في قبول الحق، وأن الحق يقبل من أي شخص كان حتى لو كان عدواً حاقداً، ويضرب المثل الأعلى لتقبل الآخر ونقد الآخر.

استمع ﷺ لهذا النقد اللاذع وقبله، ثم توجه نحو أصحابه بهدوء ودون انفعال مصححاً ذلك الانحراف الخطير و(أمرهم النبي ﷺ إذا أردوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة)[3].

---

(١) تجعلون لله نداً ومثيلاً وشبيهاً.

(٢) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

(٣) حديث صحيح. (صحيح النسائي ٣٥٣٣ للإمام الألباني).

وكررها ﷺ قائلاً لهم: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»[1] مهما كان فلان هذا. وقال أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»[2].. «لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد. ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون»[3].

وبيّن خطورة ذلك فقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[4]

امتثل المسلمون فذهبوا بالأجر، وذهب رسول الله ﷺ بالصحابة والأجر ينسابون كالنـــور.. كالنهر.. يغســـلون تلك الزوايا التي تخثرت فيها بقايا الشـــرك. وذهب ذلك اليهـــودي بغيظه يجره، ويجر قدميه الثقيلتين ورأســـه المتحجر، فلقد انتفع المســـلمون بالحق والنقد، ولم ينتفع هو بشـــيء، بل أضاف إلى رصيد اليهود عناداً آخر.. أضاف مساحةً بينهم وبين المسلمين.

اتضحت تلك المسافة، وبانت تلك المفارقة عندما كان رسول الله ﷺ مهموماً يفكر ويفكر، ويبحث عن وسيلة ينبه بها المسلمين إلى دخول وقت الصلاة فـ:

كيف ينادي إلى الصلاة

لقـــد (اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمـــع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك. فذُكر له: القنع - يعني الشَّبُّور (شبور[5] اليهود) فلم يعجبه ذلك وقال: هو من أمر اليهود.

فذكر له الناقوس، فقال: هو من أمر النصارى)[6].

---

(١) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني).
(٢) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير).
(٣) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٤) حديث صحيح. (المصدر السابق).
(٥) الشبور: هو البوق الذي ينفخ فيه.
(٦) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨).

لم ينزل وحي بهذا الشـــأن، والحيرة تملأ الجميع.. اجتهد الرســـول ﷺ اجتهاد البشر (ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب للمسلمين)[1] في وقت الصلاة. أمر ﷺ بذلك وهو كاره له.

عرف ذلك في وجهه أحد الأنصار الذين حضروا ذلك الحوار واســـمه: (عبد الله بـــن زيـــد بن عبد ربه) (فانصرف عبد الله بن زيد وهو مهتم لهمِّ رســـول الله ﷺ)[2]، وكان بـــين حرات المدينة من يحمل الحل.. إنـــه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لكنه بالتأكيـــد لـــم يكن حاضراً ذلك النقاش، لذلك لم يقل ما عنده، ولم يقص على أحد ما رآه في منامه.

انصرف الجميع وخيم الليل على المدينة، وانتثرت نجومه فوق نخيلها، ونام رسول الله ﷺ ونام الجميع، ونام عبد الله بن زيد، وبينما هو منســـرب في أعماق النوم وجد في تلك الأعماق رجلاً يطوف به:

رجلٌ من حلم وأذان من وحي

يقص عبد الله رؤياه فيقول: (لما أمر رســـول الله ﷺ بالناقوس يعمل، ليضرب به للنـــاس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجلٌ يحمل ناقوســـاً في يده، فقلت: يا عبد الله.. أتبيع الناقوس؟

قال: وما تصنع به..؟ فقلت: ندعو به إلى الصلاة.

قال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟

فقلت له: بلى.

قال: تقول:

الله أكبر.. الله أكبر..

---

(١) حديـــث صحيح. رواه ابن إســـحاق.. وهو من الطريـــق الصحيحة التي عند أبي داود... وابن إســـحاق لم يدلس.

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨)...

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة... حي على الصلاة

حي على الفلاح... حي على الفلاح

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله

ثم استأخر عني غير بعيد، ثم قال: وتقول إذا أقمت الصلاة:

الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة.. حي على الفلاح

قد قامت الصلاة.. قد قامت الصلاة

الله أكبر.. الله أكبر

لا إله إلا الله..

فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ، فأخبرته بما رأيت.

فقال ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شـــاء الله، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن، فإنه أندى صوتاً منك»)[1].

وبذلك يجعل السنة لأمته في اختيار المؤذن هو حسن الصوت.

ونظـــراً لأن عذوبة الصوت تزيد القـــرآن والأذان جاذبية وجمالاً.. كان ﷺ يقول: «زينـــوا القرآن بأصواتكم»[2] ويقول: «ليس منـــا من لم يتغنَّ بالقرآن»[3] ولعذوبة صوت بلال فقد جعل الأذان من نصيبه رضي الله عنه.

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود للإمام الألباني (٩٨/٩٩).

(٢) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

(٣) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير للإمام الألباني.

وهـــا هو صوت بلال الذي ملأ شـــوارع مكـــة: أحدٌ.. أحدٌ.. هاهـــو عذباً كأنهار الحبشـــة.. حراً كطيورها.. ينساب في ســـماء المدينة يوقظ فجرها.. يوقظ شمسها، وينادي المهاجرين والأنصار، ويسحرهم بصوته.

يقول عبد الله بن زيد: (فقمت مع بلال فجعلت ألقيه عليه، ويؤذن به، فسمع ذلك عمر بن الخطاب وهو في بيته، فخرج يجر رداءه ويقول: والذي بعثك بالحق يا رســـول الله، لقد رأيت مثل ما رأى. فقال رسول الله ﷺ: «فلله الحمد»)[1].

لا بد أن ابن الخطاب رضي الله عنه لم يحضر تلك الآراء والاقتراحات وإلا لتكلم بمـــا رآه، فقد (كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشـــرين يومـــاً، ثـــم أخبر النبي ﷺ فقال له: ما منعك أن تخبرني. فقال: ســـبقني عبد الله بن زيد فاستحييت)[2].

إذاً لا بـــوق.. لا رايـــة.. لا أجراس. لكنه التوحيد.. حمله طيفٌ جميل (عليه ثوبان أخضران)[3].

فرحـــة جديدة للمؤمنين، وتميز جديـــد. فرحة لعبد الله بن زيـــد، فرحة لعمر.. وصوت بلال يتدفق منعشاً في شوارع المدينة وسمائها، ولم يكن هناك مئذنة للمسجد، ولا منارة، ولكن:

فرحة لامرأة من الأنصار

وشـــرف تتغنى به، وتنافس بـــه تلك الأنصارية التي بنت المنبر لرســـول الله ﷺ. امرأة من بني النجار جعلت من بيتها نبعاً للنداء الجديد.. جعلت من كل بيتها موضعاً لقدمي بلال وصوته.

تقـــول تلـــك المرأة الكريمـــة: (كان بيتي من أطول بيت حول المســـجد، فكان بلال يؤذن عليه للفجر كل غداة، فيأتي بسَـــحَر، فيجلس على البيت ينتظر الفجر، فإذا رآه

---

(١) هذا الحديث بقية حديث أبي داود (٩٩).
(٢) حديث صحيح. صحيح سنن أبي داود (٩٨).
(٣) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

تمطى[1]. ثم قال: اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك، ثم يؤذن. والله ما علمته كان تركها ليلة واحدة. يعني هذه الكلمات)[2].

وتصحو المدينة.. المدينـــة كلها على ذلك الصوت الندي، وتنتعش وتتوضأ. المدينة كلها.. إلا بيوتاً ترتج مفزوعة الجدران والقلوب.. شاخصة الأعين، فصوت بلال رصاص يخترق بيوت يهود، وجدران عبد الله بن سلول وأمثاله.

أما قريش فقد أدركت أن اليهود وأصحابهم من المشركين قد تورموا حقداً وترقباً، وقـــد حان الوقـــت لتفجير ذلك الورم في وجه محمد ﷺ ووجـــوه أصحابه. لقد حان تحويـــل حرات المدينة إلى أودية من الدماء والحروب، والثارات التي لا تنتهي. فجاءت شرارة تلك الحروب مغلفة برسالة مستفزة من قريش.. جاءت لتجعل من:

المدينة حريقاً ومذابح

كانت تلك الشرارة حروفاً مشتعلةً، رسالةً تتقد تهديداً ووعيداً. رسالةً تبشر بالمقابر. فـ(كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان يعبد معه الأوثان، من الأوس والخزرج - ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر -: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم.

فلمـــا بلغ ذلك عبد الله بن أبي[3] ومن كان معه مـــن عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال النبـــي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقـــد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ. مـــا كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفســـكم! تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!! فلما ســـمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا)[4] فتفرق الشر وهدأت الأنفاس،

---

(١) أي تمطى الفجر وامتد نوره في الأفق.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو داود (٥١٩): حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير عن امرأة من بني النجار: ابن إسحاق سمع شيخه الثقة الذي مرمعنا، وعروة غني عن التعريف والمرأة صحابية من الأنصار رضي الله عنها.

(٣) هو عبد الله بن أبي بن سلول وهو ما يزال على شركه مجاهراً معانداً...

(٤) حديث صحيح رواه أبو داود ٢ - ١٧١ حدثنا محمد بن داود بن سفيان ثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك: عن رجل من أصحاب النبي وقد رواه عبد الرزاق ٥-٣٥٨ وقد انقلب عنده اســـم التابعـــي والصواب ما في أبي داود، فعبد الله بن عبد الرحمـــن لم يرو عن الصحابة والزهري ليس من شيوخه، والصواب ما في أبي داود، رغم ضعف شيخه. صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود.

وسكنت الأنفس المشحونة بالشر، وسلمت المدينة من حرب أهلية، ومعركة كادت تطحن أهلها وجدرانها.

كلماتٌ قليلة وهادئة أعادت السـيوف إلى أغمادها.. أعادت العقول إلى رشدها، وخذلت قريشاً، وخذلت اليهود المتربصين خلف شقوق الأبواب، وتم الحفاظ على كيان الدولة الإسلامية الوليدة من حركة عسكرية كادت تعصف بأحلامها وشبابها، فالمدينة بحاجة إلى تلك الأحلام وإلى ذلك الشباب، وإلى قائد عظيم وحكيم فكيف بهذا النبي العظيـم الحكيم ﷺ. ولم تكن يوماً من الأيام عطشـى إلـى تلك الدماء.. التي أدمنت سـفحها أياد تمسـحت بالجاهلية والأصنام، ولن تسفك قريش مهما حاولت أكثر مما سيسـفكه أهل المدينـة بأيدي بعضهم البعض.. الأوس يدركـون ذلك جيداً، والخزرج ليسـوا بأقل وعيا منهم بذلك، وخطوات قليلة إلـى المقابر الجماعية لضحايا (بُعاث) تذكرهم متى ما تسلل النسيان إليهم.

إذاً فقد هدأت الأنفس بعد يوم مشحون، ونامت المدينة كطفل على تلك العبارات الحانيـة كصـدر أم حنون، وقـدم النبي عليه السـلام مفهومه للمواطنـة في الدولة الإسلامية.

مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية

خطـاب النبي ﷺ لهؤلاء الوثنيين وعباد الأصنـام كان خطاباً تصالحياً راقياً مع الكفار، فقد احتواهم في دولته، ولم يفرح بفرصة تصفيتهم والقضاء عليهم وإقصائهم وهو قادر على ذلك، فزعماؤهم معه، ومعه أعداد غفيرة متوثبة من المهاجرين، لكنه لم يفعل ذلك، بل جعلهم ضمن النسيج الوطني في دولته، فهدَّأ ثورتهم، وطيب خواطرهم، وفرش لهم المدينة ورداً وربيعاً من الأمن والسـلام والمصالحة، رغم أنهم على الشـرك وعبادة الحطب والخشـب والحجارة، ورغم أنه بعث لنشر التوحيد والدفاع عن نشره، ورغم أن زعماءهم أعطوه بيعتهم على الحرب والسـلم، لكنه عليه السـلام يقدم مثالا على التفريق بين أخوة الإسلام ومفهوم المواطنة، وأنه مع الفارق الشاسع بينهما، إلا أن لكل مفهوم حقوقه وحدوده، وأنه يحرم إضرام النار بين المفهومين.

حال عليه السلام بين أمن دولته وبين أعدائها، وقطع الطريق على من يريدون إثارة الفتنة، وإشعال الحرب الأهلية، فلا إكراه في الدين، ولكن هناك إكراه في المواطنة، فمن لم يرد الدين فله ذلك، ومن لم يرد الوطن فالأوطان كثيرة، لكنه سيشهر السيف في وجه كل من سيشهر سيفه في وجه الدين أو الوطن.

أشرقت الشمس من جديد على هذه المدينة الراقية، والدولة المتحضرة.. وأشرق الوعي يحمل تعليمات جادةً وأعيناً أكثر اتساعاً على المستقبل والآفاق، فالمدينة.. المدينة وأهلها في خطر، وتوقعات أبي بكر الصديق ورؤيته الثاقبة بدأت تتشكل على أرض الواقع، فـ:

ماذا توقع أبو بكر؟

منذ أكثر من عام.. عندما أخرج من مكة مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم المرير، وقريش ثائرة الأنفاس مغبرة الأقدام والجياد.. تبحث عن محمد ﷺ وصاحبه وبقية أصحابه، في تلك الساعات الخائفة (لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال)[1].

وصدق أبو بكر، فتلك الرسالة شرارة، والمدينة أمست في خطر، والهشيم يحيط بها من كل ناحيةٍ، وفي قلوب المشركين واليهود يتكوم هشيم أخطر، ولا بد من الاحتراز والاحتياط.. لا بد من السلاح في جو مكفهر بالسلاح والشرك، فهب الصحابة رضوان الله عليهم لـ:

حراسة رسول الله ﷺ

ذات ليلة كانت عائشة إلى جانبه ﷺ، وكان السهر إلى جانبهما أيضاً. قلقت عائشة رضي الله عنها، فما الذي حدث؟

---

(١) سنده صحيح. رواه الطبراني في تفسيره (٩/١٦٠) من طرق عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. ومسلم البطين هو ابن عمران وهو ثقة من رجال الشيخين وشيخه إمام من أئمة التابعين ومجاهديهم... وهو على شرط الشيخين وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٧٩/٣).

تقول رضي الله عنها: (إن رسـول الله ﷺ سـهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟

قال ﷺ: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة».

فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح. فقال ﷺ: «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك.

فقال ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت عائشة: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه)[1] بعد أن تطوع سعد بن أبي وقاص لحراسته ﷺ.

لم يكن الخطر سـهماً واحداً نحو رسول الله ﷺ، بل كان أسهماً ورماحاً منطلقة نحـو كل مؤمن.. نحو كل أنصاري ومهاجر، ولا بد أن يكون الحذر دائماً. وفي رسـول الله ﷺ أسوة حسنة لأتباعه لذلك صار:

السلاح صباحاً.. السلاح مساءً

صحابي آخر اسـمه (أبي بن كعب) يقول: (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل؟)[2].

سؤال يرتعش خوفاً من هذه الجموع التي اتجهت بخيلها ورجلها، ورماحها وأوثانها نحو مدينة التوحيد الوحيدة. سـؤال مُثقل بحمل السـلاح والخـوف؟ فنزلت الإجابة وحياً.. قرآناً وبشـرى.. نزل الوحي يحمـل الأرض... كل الأرض، والدنيا.. كل الدنيا مشرعة الأبواب لمحمد ﷺ وأصحابه.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم وأحمد واللفظ لأحمد ٦-١٤١.

(٢) سـنده حسن. رواه الطبراني (مجمع البحرين ٥٨/٦) والبيهقي ٣-٦ واللفظ له: أحمد بن سعيد الدارمي ثنـا علي بن الحسـين بن واقد حدثني أبي عن الربيع بن أنس عـن أبي العالية عن أبي: أبو العالية تابعي ثقة وتلميذه حسـن الحديث إذا لم يخالف التقريب ٢١٠ و٢٠٥ والحسـين ثقة من رجال مسلم وابنه حسن الحديث التقريب ١٦٩ وأحمد ثقة حافظ.

يقول أبي ابن كعب: (فنزلت: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾)[1].

آيات تتنزل بالأعياد والفتوح والبشرى.. أخذها الصحابة واستبشروا بها..

أخذوها كما يأخذون سلاحهم ليل نهار، فرسول الله ﷺ علمهم أن هناك فداءً، وأن هناك تضحيةً وهدفاً، والهدف لا يأتي لمترددٍ، أو جبان أو خائف. خاصةً في مثل هذه الظروف، فالمؤامرة تطل كالوحش فوق رؤوس الجبال على حصن الإسلام الجديد، فلا بد من التحرك.. لا بد من عمل شيء يحمي المدينة ويعيد المظالم إلى أهلها، ويزيح ليل الأصنام الهائل عن عقول وقلوب البشرية وأجيالها، ولن يكون ذلك بالصلاة والدعاء والمعجزات وحدها.. لا بد من:

نشاط عسكري

فلن يمكِّن الله عباده ما لم يقوموا بتحويل دنياهم إلى حركة تلهج بـ(لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. محمد رسول الله وخاتم النبيين) بدءا من أنفسهم، حتى تتسق وتتناغم مع حركة الكون كله.. المسبح بحمد ربه ليل نهار.

حمل الصحابة تلك البشرى وحملوا شروطها، فحولت ضعفهم قوةً، وخوفهم أمناً وثقة. فهاهو سعد بن معاذ يتجه إلى مكة الطاهرة.. كالتحدي يتفجر بين أصنام قريش وسيوفها.. ثقةً يتحدى، وثقةً يهدد، فيتحول صناديد وطواغيت قريش حوله إلى خراف ترتجف خوفاً، وتتصبب عرقاً.

(انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل على أمية بن خلف - أبي صفوان- وكان أمية إذا انطلق إلى الشام فمر بالمدينة نزل على سعد. فقال أمية لسعد: ألا انتظر، حتى إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقت فطفت.

---

(١) المصدر السابق.

فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هذا الذي يطوف بالكعبة؟

فقال سعد: أنا سعد. فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ فقال: نعم.

فتلاحيا بينهما.. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك على أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي. ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام[1].

فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك - وجعل يمسكه- فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمد ﷺ يزعم أنه قاتلك. قال: إياي؟ قال: نعم. قال والله ما يكذب محمد إذا حدث)[2].

أصيب أمية بالرعب والهلع بعد أن بشره سعد بالقتل. يحدثنا سعد عن ذلك فيقول: أنه (قال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصبأة[3]، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم؟ أما والله لولا أنك مع أبي صفوان[4] ما رجعت إلى أهلك سالماً.

فقال له سعد - ورفع صوته عليه - أما والله لئن منعتني هذا، لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم - سيد أهل الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك» قال: بمكة؟ قال: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قاله لي سعد؟

قالت: وما قال لك؟. قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية والله لا أخرج من مكة)[5].

---

(١) طريق تجارة قريش إلى الشام وهو يمر بالمدينة أو قربها.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٦٣٢).
(٣) يقصد المهاجرين الذين تركوا دين آبائهم وأجدادهم.
(٤) أبو صفوان هو أمية بن خلف.
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) (ص٨١٢).

لقد شلت كلمات سعد الواثقة بالله وبرسوله ﷺ.. شلت هذا الطاغية، فأمسى لا يرى سوى الموت يتربص له في منافذ مكة.. لقد جعل خوفه الأرض.. كل الأرض قبراً يحاصره، ويحاصر مكة معه. أما ذلك الشاب المهاب سعد بن معاذ، فعاد إلى حبيبه ﷺ وهو أكثر قوة ويقيناً.. عاد ليجد المدينة غير المدينة.. عاد لينقل ما رآه وما سمعه من خوف يملأ طغاة مكة، عندما هددهم بقطع طرق قوافلهم إلى الشام، وهي شرايينهم وأوردتهم. عاد لينفذ تهديده، فقد منعه أبو جهل، وعلى أبي جهل أن يتحمل ثمن تهوره وجاهليته الحمقاء. أما رسول الله ﷺ فكان أسبق من سعد إلى هذا التفكير، لقد قرر ﷺ أن يجعل للمدينة قوتها التي تُشعر الآخرين بمنعتها، وتشعر قريشاً خاصة.. أن هذا الدين الجديد صار خطراً يهدد صلف وتسلط شركها، ودروب قوافلها، بل ومكانتها بين العرب، عندما قصدها بـ:

غزوة العُشيرة

وهي أول غزوة بدأها ﷺ وقادها[1]، وليس لدينا تفاصيل صحيحة عن أحداثها، والعُشيرة قرب ينبع.. على طريق قوافل قريش، وهي أول تهديد عملي لقريش وقوافلها التي سلبت المهاجرين كل أموالهم، ووصف الله معاناتهم بأنهم المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم. كما غزا ﷺ:

غزوة الأبواء

ليس لدينا تفاصيل موثقة عنها، ولكن وقوعها ثابت في مكان يقال له الأبواء بين مكة والمدينة، ذلك المكان الذي وقفت فيه المطايا بمحمد ﷺ وهو طفل صغير، وقفت

---

(١) ورد أن الأبواء هي أول غزوة لرسول الله ﷺ لكن هذا غير صحيح، فالرواية في ذلك ضعيفة رواها كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده.. وكثير هذا ضعيف. وهناك رواية أخرى عن عروة وقد وصلها ابن عائذ لكنها من طريق ابن لهيعة.. وليس فيها أن الأبواء أول غزوة بل إن سعداً، أول من رمى سهماً في سبيل الله، وهذا صحيح ولكنه ليس دليلاً على أن الأبواء أول الغزوات لأن العشيرة -عند المؤرخين- لم يحدث فيها قتال ولم يرم بها بالسهام. أما كون سعد أول من رمى بسهم فقد جاء على لسانه هو ولم يذكر رضي الله عنه متى كان ذلك والرواية عند الشيخين وستمر معنا.

فيــه المطايــا تودع أمه التي فقدهـــا هناك وغابت عن عينيه وعــن الدنيا حيث دفنت هناك. ذلك المكان الذي أبكاه ﷺ كان موعداً لغزوةٍ لا نعرف أحداثها الصحيحة بعد، لكنها موجهة لقريش التي بدأت التهديد، وهي نوع من الاســتطلاع العسكري بالقوة، لرصد تحركات العدو وخطره، أكســبت الصحابة خبرة جديدة في الكشف عن طبيعة الأرض والأعداء المحيطين بدولة الإسلام الجديدة.

كانت تلميحاً لمن تسول له نفسه غزو المدينة والغدر بأهلها، فأزعجت تلك التحركات قريشاً، لكن رسول الله ﷺ كان يعد لهم مفاجأة.. سرية بقيادة صحابي عظيم هو أبو عبيدة، والذي حاز لقباً عظيماً فيما بعد هو: أمين الأمة. فما قصة تلك السرية:

سرية نخلة

(بعث ﷺ رهطاً، فبعث عليهم أبا عبيدة، فلما أخذ لينطلق بكى صبابة إلى رسول الله ﷺ، فبعث رجلاً مكانه يقال له: عبد الله ابن جحش)[1].

حرارة الشــوق أبكت أبا عبيدة، وحبه لملازمة رسول الله ﷺ جعلت رسول الله ﷺ يشــفق عليه ويبقيه جواره، ليعين قائداً عظيماً. فـ (بعث رســول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب، [مقفلة من بدر الأولى] وبعث معه بثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهــم من الأنصــار أحد، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا ينظر فيه حتى يســير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره، ولا يستكره من أصحابه أحداً. وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين:

من بني عبد شمس: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.

ومن بني أمية بن عبد شمس ثم من حلفائهم: عبد الله بن جحش بن رئاب – وهو أمير القوم– [وعكاشة بن محصن بن حرثان أحد بني أسد بن خزيمة].

---

(١) ســنده قوي.. رواه الطبري ٤–٣٠٧ وابن أبي حاتم ٢٠٦٤: وغيرهما من طرق عن معتمر بن ســليمان عن أبيه، حدثني الحضرمي عن أبي الســوار عن جندب بن عبد الله. أبو الســوار العدوي تابعي ثقة واســمه حسان بن حريث التقريب ٦٤٦. وتلميذه الحضرمي حق لا بأس به التقريب ١٧١ أما معتمر ووالده فثقتان معروفان.

ومن بني نوفل بن عبد مناف: عتبة بن غزوان، حليف لهم.

ومن بني زهرة بن كلاب: سعد بن أبي وقاص.

ومــن بني عدي بن كعب: عامر بن ربيعة -حليف لهم- وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرين بن ثعلبة بن يربوع بن حنظلة [وخالد ابن البكير - أحد بني ســعد بن ليث، حليف لهم].

ومن بني الحارث بن فهر: سهل بن بيضاء.

فلما ســار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب ونظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فســر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشــاً وتعلَّم لنا من أخبارهم.

فلمــا نظر عبد الله بن جحش في الكتاب: قال ســمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة فأرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع.؟ فأما أنا، فماضٍ لأمر رســول الله ﷺ. (فرجع رجلان ومضى بقيتهم)[1].

فمضى ومضى معه أصحابه، فلم يتخلف عنه منهم أحد، وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له: (بُحران) أضل سعد ابن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا عليه يعتقبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابــه حتى نزل بنخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارةً، من تجارة قريش فيها منهم:

عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزوميان، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رآهم القوم هابوهم وقدنزلوا قريباً منهم.

---

(١) هذه العبارة ليست في السياق بل هي جزء من الحديث الصحيح السابق. وفي السياق سبب رجوع هذين الصحابيين... وهو أنهما فقدا بعيرهما.

فأشرف لهم عكاشة بن محصن - وقد كان حلق رأسه - فلما رأوه أمنوه، وقالوا: عُمّار، فلا بأس علينا منهم.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من جمادى، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فتردد القوم فهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، [وأفلت نوفل بن عبد الله فأعجزهم] وقدم عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة.

[وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش: أن عبد الله بن جحش قال لأصحابه: إن لرسول الله ﷺ ما غنمتم الخمس، وذلك قبل أن يفرض الخمس من الغنائم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها على أصحابه]، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال: [«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام». فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك سُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا وقالوا لهم: صنعتم ما لم تؤمروا به، وقاتلتم في الشهر الحرام، ولم تؤمروا بقتال].

وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، فقال من يرد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة: إنما أصابوا ما أصابوا في جمادى.

[وقالت يهود تتفاءل بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، واقد بن عبد الله وقدت الحرب. فجعل الله عليهم ذلك وبهم] فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله عز وجل على

رسوله ﷺ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾.

فلما نزل القرآن بهذا الأمر، وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين)[1]. وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي طعن أبو جهل أمه واغتال أباه ضمن تلك السرية.

يحدثنا عن ذلك ابن مسعود وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم فيقولون في قوله تعالى: (﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ... ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم: عبد الله بن جحش وفيهم: عمار بن ياسر، وأبو حذيفة بن عتبة، وسعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، وسهل بن بيضاء، وعامر بن فهيرة، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب.

وكتب لابن جحش كتاباً، وأمره ألا يقرأه حتى ينزل (بطن ملل)، فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه:

أنْ سِرْ حتى تنزل بطن نخلة. فقال لأصحابه: من كان يريد الموت فليمض وليوص، فإني موصٍ وماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فسار، وتخلف عنه سعد وعتبة أضلا راحلة لهما، فأقاما يطلبانها، وسار هو وأصحابه حتى نزل بطن نخلة، فإذا هو بالحكم بن كيسان، والمغيرة بن عثمان، وعبد الله بن المغيرة.

---

(١) حديث صحيح عدا ما بين المعقوفين.. رواه الطبري تفسير (٢/ ٣٦٠) واللفظ له والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧-١٨) عن عروة مرسلاً وهو صحيح إلى عروة لكن لم يذكر شيخه من الصحابة... والحديث له شاهد عند الطبراني (٢/ ١٧٤) وابن أبي حاتم (سيرة ابن كثير ٢/ ٣٧٠) من طريق معتمر بن سليمان عن أبيه: حدثني الحضرمي عن أبي السوار عن جندب بن عبد الله: عن النبي ﷺ أنه بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح.. كما رواه الطبري في التفسير (٢/ ٣٦٢) وأبهم الحضرمي فقال: إنه حدثه رجل عن أبي السوار وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٨)/ رجاله ثقات... وله شواهد كثيرة عند الطبري (٢/ ٣٦٣) عن ابن عباس... وأبي مالك الغفاري.. وعن الزهري وعثمان الجزري ومقسم مولى ابن عباس... أما ما بين معقوفين مثل تصرف ابن جحش في الغنائم وقول يهود فهو مرسل... والحديث يشهد له ما بعده.

فذكــر قتل واقد لعمرو بن الحضرمي، ورجعوا بالغنيمة والأســيرين، فكانت أول غنيمة غنمها المسلمون، وقال المشركون: إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله، وهو أول من اســتحل الشــهر الحرام، وقتل صاحبنا في رجب. وقال المسلمون: إنما قتلناه في جمادى)[1].

وسواء قتل ذلك المشرك في جمادى، أو في رجب، فرسول الله ﷺ لم يأمر بذلك. إنما هي حماســة المهاجرين المقهورين، المطرودين مــن ديارهم وأموالهم، ولا ذنب لهم سوى أن يقولوا: لا إله إلا الله. لم يتمالكوا أنفسهم - وهم بشر - عندما رأوا أموالهم التي غصبتها قريش واغتصبتها.. تســيل أمامهم تجارةً تنمو بين أيدي المشركين، وهم الحفاة الذين تشققت أقدامهم من العوز والفقر، وأضناهم الجوع والتعب.. إنك تبحث بين هؤلاء الرفقة.. تســألهم أين سعد بن أبي وقاص؟ أين عتبة بن غزوان؟ ألم ينطلقا معكم من المدينة..؟

فتأتيك الإجابة حســرةً: لقد انطلق سعد وعتبة وسارا مع السرية، لكن على جملٍ واحد جاءا.. يركب أحدهما، وينزل الآخر. ويركب الآخر فترة ليمشي صاحبه. أما الآن فلا جمل لهما، لقد ند وهرب وهما يركضان على أقدامهما المتشققة خلفه.

يذرعان بطون الأودية والشعاب، ولا أحد غير الله يعلم ما سيحدث لهما.

ما موقف الإنسان.. أي إنسان يرى أموال سارقه وقاتل أمه وأبيه أمام عينيه بينما هو يأكل ورق الشجر من الفقر.؟

ما موقف الإنســان.. أي إنســان حافي القدمين يبحث عن جمل، ثم يرى جماله المسلوبة منه تتقاطر بالمال، بينما تتقاطر قدماه بالدماء؟ ما شعور سعد المشرد الفقير الذي يصف الأجواء التي عاشها في مثل تلك المهمات الصعبة فيقول: (إني لأول العرب

---

(١) ســنده قوي. رواه السدي (تفسيره ابن كثير ٢/ ٣٧٠) عن أبي صالح عن ابن عباس وهذا ضعيف من أجل أبي صالح وهو (باذام) لكن الســدي رواه من طريق أصح عن مرة عن ابن مســعود وجماعة من الصحابة، ومُرَّة بن شراحيل تابعي كبير ثقة. وهو صحيح بما قبله.

رمى بســـهم في سبيل الله، وكنا نغزو مع النبي ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشّجر، حتى إن أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة ما له خلط)(١).

إن رجلاً لا يجد ســوى ورق الشــجر لمعذور أن ينهب ما يســد به رمقه، ويدفع به الموت عن نفسه، فكيف إذا كانت تلك الأموال أمواله وأموال أصحابه المسلوبة.

وبعد هذا كله لا يعذرهم عليه الســلام، وينتظر حكم الوحي فيهم، فيتنزل العذر من فوق ســبع سماوات انتصاراً من الله لعباده، وتبرئة لساحتهم البيضاء من تُهم أهل الشــرك، الذين ارتكبوا الفظائع والشنائع بحق الله أولاً، ثم بحق رسوله ﷺ وصحابته الكرام. عاد الصحابة نصراً وبراءةً.. عادوا ليجدوا في المدينة خبراً.. ليجدوا في وجه رســول الله ﷺ فرحــاً، وفي وجوه يهود كدراً وظلمةً. لقد فقدت يهود شــيئاً عظيماً، وانقطع آخر الحبال بينهما.

اليهــودُ حداد.. اليهود ســواد، بعد أن طرق ذلك الخبر أبــواب حصونهم المنيعة وآذانهم المسدودة.

فما هذا الخبر؟

هذا الخبر هدية قادمة من السماء.. كان في الماضي شوقاً، وكان أمنية تتردد في صدره ﷺ مذ كان في مكة.. مذ كان يخر ســاجداً لله في بيته المحرم.. متجهاً بقلبه نحو الله.. مســتقبلاً الشام.. حيث المســجد الأقصى، لكنه كان يقوم بحركة تعبر عن ذلك الحلم الذي لا يستطيع الإفضاء به. كان ﷺ يجعل الكعبة أمام وجهه، بحيث تكون بينه وبين المسجد الأقصى. لكن ماذا عنه الآن؟

إنه ما زال ينفذ أمر ربه، فيســتقبل المســجد الأقصى، أمــا الكعبة.. أما حبيبته الحزينة التي نشــأ بالقرب منها، وأحبها ووضع حجرهــا، فالجاهلية بينهما.. حبيبته بعيدة.. لا يستطيع رؤيتها، ولا الحديث إليها، ولا تحسس ثيابها، ولا حتى استقبالها.

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٧٢٨).

إنها هناك أسـيرة.. وهو هاهنا مشتاق.. يتقلب وجهه في السماء، ويطوف طرفه فـي أرجائها (كان رسـول الله ﷺ يصلي نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السـماء ينتظـر أمر الله، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ﴾)[1].

إذاً فالقبلـة تحولـت من بيت المقدس إلى البيت الحـرام بمكة المكرمة، لكن متى كان ذلك..؟ وما علاقة اليهود بالقبلة واتجاه المسـلمين في صلاتهم؟ وماذا حدث عند سماع الخبر؟

أما متى؟ فخبر ذلك عند طفل عذب اسـمه (البراء بـن عازب) حيث يقول: (إن رسـول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شـهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبـه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها: صلاة العصر، وصلى معـه قوم، فخرج رجـل ممن كان صلى معه ﷺ، فمر على أهل المسـجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة.

فداروا كما هم قبل البيت)[2] أي اتجهوا نحو الكعبة، منفذين.. ممتثلين دون تردد، فالأمر وحي.

لكن إذا كان هناك تساؤل فهل هو اعتراض أو احتجاج كاحتجاج يهود؟

المؤمنـون أرقى من ذلـك، إن لهم قلوباً رقيقة ومشـاعر طيبة، وأدبـاً جماً. كان تساؤلهم رحمة وشفقة بإخوانٍ لهم ماتوا ولم يصلوا تجاه المسجد الحرام.

البراء ينقل تلك المشاعر فيقول: (فقال رجال من المسلمين: وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس؟)[3].

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير، البقرة ١٤٣): حدثني إسماعيل ابن أبي خالد، عن أبي إسحاق، عن البراء. وشيخ ابن إسحاق وشيخ شيخه تابعيان ثقتان ثبتان.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).

(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

بل إن البراء رضي الله عنه كان أحد المتسائلين. هو نفسه يقول: (وكان الذي مات علـى القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا، لـم ندر ما نقول فيهم؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾)[1] وهـو أرحـم من أن يخـذل من قصده، وأناخ رحله وقلبه ببابه. ولعل تلك التسـاؤلات بدأت بُعيد الصلاة، حيـث بدت المدينة مشـغولة بهذا الحدث الكبير، فتأخر وصـول الخبر إلى أهل قباء ومسـجد قباء، فـ (بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليهم الليلة قرآن، وقد أمر أن يسـتقبل الكعبة. فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة)[2]. كما استدار أصحابهم في المدينة.. كما امتثل إخوانهم هناك خلف رسـول الله ﷺ. أما اليهود فقد استدارت قلوبهم ودروبهم عن الله، وعن رسوله ﷺ، وعن قبلته الجديدة، وتطايرت من حصونهم وألسنتهم ألفاظ الاستهجان والاحتجاج.

ها هم يجوبون شوارع المدينة، في سفاهة وسماجة يقولون: (ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟! فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾﴾[3].

لله المشـرق والمغرب ولا شيء لليهود، والأمر وحي، واليهود حاربوا الوحي، وقتلوا حملـة الوحـي من الأنبياء، فكيـف لا يحاربون وحيـاً نزل على غيرهـم؟ ونبياً ليس مـن بينهم؟ واكتملـت الآيات، فتلاها رسـول الله ﷺ وتلاها أصحابـه، ومن بعدهم سيتلونها.. سيتلونها هكذا: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ[4] مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠).
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٣) ومسلم من حديث ابن عمر (المساجد ١٣).
(٣) سنده صحيح. وهو جزء من حديث ابن إسحاق السابق.
(٤) أي اليهود.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي
ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ(١) ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ(٢) لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ
إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ
وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا
ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ
فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾(٣).. يهتدون إلى ما أعرضت عنه اليهود، وضل عنه النصارى. كانت تلك الأحداث بعد منتصف شهر رجب من السنة الثانية من الهجرة، وبعد عودة سَريَّة عبد الله بن جحش، حدثنا بذلك سعد بن أبي وقاص.. ربما بعد أن وجد بعيره.

يقول رضي الله عنه: (صلى رسول الله ﷺ ست عشر شهراً، ثم حول بعد ذلك قبل المسجد الحرام قبل بدر بشهرين)(٤).

إذاً فالنخل الذي كان في قبلة المسجد أصبح في خلفية المسجد، وبما أن المسجد كان (مبنياً باللبن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل) فبالتأكيد تكون خلفيته كلها

---

(١) أي باتجاه المسجد الحرام.

(٢) أي اليهود.

(٣) سورة البقرة: الآيات ١٤٢-١٥٠.

(٤) سنده صحيح رواه البيهقي ٢-٥٧٣: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عبد الجبار، حدثنا ابن فضيل، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: سمعت سعد. سعيد إمام التابعين وتلميذه تابعي ثقة التهذيب ١١-٢٢١ ومحمد بن فضيل بن غزوان ثقة ثبت ٥٠٢ وسماع تلميذه للسيرة صحيح، وأبو العباس الأصم ثقة ثبت.

مسقوفةً، وبناء جدار في قبلته السابقة أو أحد زواياها، قد يفي بحاجةٍ ماسةٍ.. فهناك أمر يحطم القلب، وتدمع له العين.. هناك حاجة ملحة تطل من منافذ المدينة كل يوم، حيث يتهادى إلى المدينة مهاجر أو مهاجرون. بعضهم ضاق بقومه، و البعض ضاق به قومه وضيقوا عليه، وسلبوا كل شيء لديه، أو دفع كل شيء ثمناً لهروب جميل أو هجرة أجمل. دون مال يأتون.. البعض حفاة، وبعضهم أشباه عراة، وأحضان المدينة والأنصار مفتوحة لهم، وهذه الدولة الصغيرة تستقبلهم وتحميهم، لكن بيوت الأنصار قد امتلأت، والهاربون والمطاردون قد كثروا.

نظر ﷺ إليهم.. تأملهم.. تأمل أبيات الأنصار الممتلئة، وتأمل فقره وفقرهم.. نظر ﷺ إلى مسجده، فجعله دار من ليس له دار، ومأوى من ليس له مأوى، فبنى ذلك الجدار في آخر المسجد[1]، فأصبحت حجرة (صفة) متواضعة.

تدافع القادمون إليها، وعاش في تلك الصفة رجال يمسي الفقر معهم حيث أمسوا.. يبيت معهم، ويصبح كظلهم، يأكل ولا يأكلون، ويشرب ولا يشربون.. عاشوا فيها أياماً ليست كالأيام، وميزهم الفقر بلقب كالفقر هو:

أهل الصفة

رجال فضلوا جوار رسول الله ﷺ رغم العوز على أن يعيشوا عيشةً أيسر بجوار طاغية أو صنم.. يصفهم أحد الصحابة فيقول: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال)[2].

ويقول أحد الذين شاهدوهم: (كان أصحاب الصفة الفقراء)[3] لا يملكون شيئاً.. غرباء لا يعرفون أحداً. هذا هو أحد الفقراء.. أحد الذين عاشوا تلك المعاناة، ودلفوا إلى تلك الصفة الجميلة.. غريب اسمه (طلحة بن عمرو) رضي الله عنه يقول: (كان

(١) لا أعرف تحديداً صحيحاً لموقع الصفة وإلا لذكرته وذكرت إسناده.
(٢) متفق عليه.. انظر البخاري (٦٤٥٢) وهو حديث طويل وما ذكرته جزء منه.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٠).

الرجل إذا قدم على النبي ﷺ وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، وإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة. وكنت فيمن نزل الصفة)[1].

لكن ماذا عن شعور رسول الله ﷺ نحو هؤلاء الضعفاء بعد أن بنى لهم تلك الصفة؟ هل تخلى عنهم؟

يواصل طلحة حديثه فيقول: (وكنت فيمن نزل الصفة، فوافقت رجلاً، وكان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مد من تمر بين رجلين)[2] لأن رسول الله ﷺ لا يجد لهم أكثر من مدٍ للاثنين معاً.. نصف مدٍ يملأ الكف الواحدة.. هو طعام الرجل الواحد من أهل الصفة.. من الليل إلى الليل.. ليومه وليلته، وقد يأكل الرجل منهم، وقد يأكلون جميعاً بينما رسول الله ﷺ لا يجد ما يأكله، وقد لا يجدون ولا يجد رسول الله ﷺ ما يأكله.

يقول أحد الصحابة: (أهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها)[3].

إذاً فنصف المد لم يكن متوفراً يومياً، بل ربما مر يوم أو يومان والانتظار يحرق أهل الصفة.. ينظر بعضهم إلى بعض، وينظرون إلى باب الصفة.. إلى باب المسجد.. إلى باب رسول الله ﷺ يبحثون عن لقمة.. عن نصف لقمة.. عن أي شيء يسد جوعهم، فلا يجدون سوى الجوع طعاماً وشراباً، ويخرج رسول الله ﷺ من بيته، فتتعلق أعينهم به، ويحدقون بيديه فيجدونها خالية كبطونهم. فيدركون أنه ما من طعام.

يقول أحدهم: (الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع)[4] مثل هذا الجائع.. كيف سيصلي وقد حان وقت الصلاة؟!

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٢٨٧ وأبو نعيم ١-٣٣٩ واللفظ له من طريق: داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو. داود ثقة متقن وشيخه تابعي ثقة قيل اسمه محجن أو عطاء التقريب ٢٠٠ و٦٣٢وطلحة صحابي رضي الله عنه.

(٢) إسناده صحيح. رواه أحمد (٣/٢٨٧) وهو الحديث السابق.

(٣) متفق عليه قال أبو نعيم (١/٣٣٩).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٦٤٥٢).

ها هو ﷺ يدخل المسجد فتقام الصلاة، ويقوم أهل الصفة خلف رسول الله ﷺ للصلاة، وبعضهم يترنح من الهزال والجوع، فيصطفون بين إخوانهم المصلين، ويكبر ﷺ، فيكبرون. وفي لحظات الخشوع الهادئة مع الله.. يسمع المصلون دوياً وارتطاماً بين الصفوف، ويسمع رسول الله ﷺ خلفه حركةً وأنيناً، وتخفق القلوب القريبة من الحدث، ويتألم الجميع بعد انقضاء الصلاة، وينهض عليه السلام بنفسه، فمالذي حدث؟

هذا هو فضالة بن عبيد الأنصاري.. أحد الصحابة.. كان يصلي خلف رسول الله ﷺ.. سألناه:

ماذا حدث يا فضالة

فيجيب فضالة وهو عالم من الشعور والألم فيقول: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم لما بهم من الخصاصية[1] وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ صلاته انصرف إليهم فيقول: لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أنكم تزدادون حاجة وفاقة[2].

قال فضالة: فأنا مع رسول الله ﷺ يومئذٍ)[3] حيث كان يواسيهم، ويدفع عنهم ما يؤلمهم بشيء يهون معه الجوع، وتحلو معه المعاناة.. يعزيهم بشيء يحول الموت وما بعده إلى أمنية وحلم لا حدود له. ومع هذا العزاء وهذه المواساة كان ﷺ يتألم لتألمهم، ويتألم مثل ألمهم.

تقول حبيبته عائشة رضي الله عنها: (كان ﷺ إذا دخل قال: هل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا. قال: إني صائم)[4].

---

(١) الجوع.

(٢) الفقر والحاجة.

(٣) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية (١٧/٢) من طريق حيوة وابن وهب عن ابن هانئ أن أبا علي الجنبي حدثه أنه سمع فضالة بن عبيد. أبو هانئ: حميد بن هانئ الخولاني ثقة التهذيب ٣-٥١) وشيخه عمرو بن مالك الهمداني تابعي ثقة أيضاً التهذيب ٨-٩٥.

(٤) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٨٦٠.

لقد تحول الجوع إلى عبادة، وتحول الأكل عبادة..

قـال ﷺ مبشـراً إخوانـه الموسـرين: (الطاعم الشـاكر له مثل أجـر الصائم الصابر)[1].

ويقول ﷺ مندهشـاً ومبشـراً: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سـراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[2] (عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيراً له)[3].

يقـول ﷺ ذلـك، وهو يتمنى لو يدفع عنهم هذا الفقر وهذا الهزال، لكنه لا يجد، فقد كانت تمر به أوقات لا يملك فيها سوى المواساة.. يستمع إلى الشكوى تلو الشكوى، فـي أجواء من الحرية والفاقة. هـا هو (طلحة بن عمرو) أحد أهل الصفة.. يروي لنا حواراً جرى بعد إحدى الصلوات بين رسـول الله ﷺ وبين أحد الفقراء، فيقول: (كان يجري علينا من رسول الله ﷺ كل يوم مدٍ من تمر بين رجلين، فسلم ﷺ ذات يوم من الصلاة، فناداه رجلٌ منا فقال: يا رسـول الله، قد أحـرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف.

فمال رسول الله ﷺ إلى منبره فصعده، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر ما لقي هو وأبو بكر الصديق عليه السلام من قومهما، فقال: مكثت أنا وصاحبي بضعة عشر ليلة ما لنا طعام إلا البرير، فقدمنا على إخواننا من الأنصار وعظم طعامهم التمر، فواسونا فيـه. فوالله لو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم، ولكن تدركون زماناً - أو من أدركهم منكم - تلبسون فيه مثل أستار الكعبة، ويغدى[4] عليكم ويراح[5] بالجفان)[6].

---

(١) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ١-٧٣١.
(٢) صحيح مسلم ٤-٢٢٩٥ .
(٣) صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع الصغير ٢-٨٣٨.
(٤) يقدم لكم في الصباح.
(٥) يقدم لكم في المساء.
(٦) سـنده صحيح. رواه أبو نعيم (٣٧٤/١) من طريقين: عن داود بن أبي هند، عن أبي حرب ابن أبي الأسود الدؤلي عن طلحة بن عمرو ورواه أحمد من الطريق نفسه وقد مر معنا.

فرح أهل الصفة بهذا الوعد الصادق، وتأثروا لما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق من أذى ومعاناة، حيث يمر معظم الشهر ليس عندهما ما يأكلانه سوى ثمر الأراك، فما تعرض له أهل الصفة شديد، ولكن ما تعرض له رسول الله ﷺ وصاحبه كان أقسى وأشد.

ينصرف أهل الصفة إلى صفتهم، وقد طواهم الجوع والرضى والاحتساب، وانتظار الفرج. ولم يكن ﷺ يواسيهم بالماضي أو بالمستقبل فقط، بل كان إذا اشتدت حاجتهم يتحرك، ويحرك المدينة كلها من حولهم.

يقول أحد أبناء أبي بكر الصديق: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس، بسادس»، وأن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة)[1].

مأساة هم أهل الصفة وارتحال وقصص باكية.. تنصت لها الأجيال بإجلال، فهذا أحدهم: (قرة بن إياس) يقص لابنه ما جرى لهم مع رسول الله ﷺ، وكان اسم ابنه معاوية. معاوية ينصت لأبيه وهو يقول: (لقد عمرنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا الأسودان. ثم هل تدري ما الأسودان؟ قال معاوية: لا. قال: التمر والماء)[2] هذا هو الطعام وهذا هو الشراب فما هي:

ملابسكم يا أهل الصفة

لو شاهدتهم لبكيت، ولاستحيوا منك وأنت تنظر إليهم، وتنظر إلى تلك الأشياء التي ألقوها على أجسادهم.. يسمونها ملابس! وما هي بملابس. إنها أسمال مهلهلة بالية.. باكية.

---

(١) متفق عليه قاله أبو نعيم ورواه في الحلية (٣٣٨/١).

(٢) سنده صحيح. رواه أبو نعيم في الحلية ٢-٢٢-٢٣ من طريق روح بن عبادة. ورواه جعفر بن سليمان، قالا: حدثنا بسطام بن مسلم عن معاوية بن مرة قال: قال أبي. وروح وجعفر ثقتان، وشيخهما ثقة من رجال التقريب، وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٣٨.

لو استمعت إليهم وهم يستغيثون: (يا رسول الله قد أحرق التمر بطوننا، وتخرقت عنا الخنف)[1] الكتانية الغليظة الرديئة.

من يصـــدق أنه (كان من أهل الصفة ســبعون رجلاً ليس لواحــدٍ منهم رداء)[2]. والرداء كالعباءة.

لقد كان ذلك.. رآهم رســول الله ﷺ، ورآهم أحد الصحابة، فنقل للجميع ما رآه وقال: (رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب، فمنهم من يبلغ ركبتيه، ومنهم من هو أسفل من ذلك، فإذا ركع أحدهم قبض عليه مخافة أن تبدو عورته)[3] فهو لا يملك غيره، ولا يملك ثمن سراويل أو ملابس داخلية تستر عورته.

وفي تفصيل آخر يقول: (رأيت ســبعين من أصحــاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[4].

إن من يطلع على تلك المآســي التي تلوَّى منها أولئك الفقراء العظماء، ليظن أنهم مجرد فقراء مساكين.. جاءوا يبحثون عن الطعام والشراب والمأوى، وهم - والله - ما قدمــوا من أجل لقمة أو رغيف، ولم يتســللوا من أجل صُفــة متواضعة.. إذا ضربها المطر ســاعة أمطرت عليهم ساعات، وابتلت ثيابهم وجنوبهم وظهورهم، والأرض التي يتوســدونها. إن هؤلاء العظمــاء قد فروا من العيش الرغيــد، وتركوا الأهل والأموال والعشيرة، وربما الخدم.. تركوا الدنيا بكل زخارفها، لأنها كانت تركن إلى صنم.. لأنها كانت تلوذ بغير الله. قرأوا القرآن فاكتشفوا التوحيد، فأعاد خلق تصوراتهم وأفكارهم ورؤيتهم للكون والحياة من جديد، فاتجهوا بكليتهم.. بعواطفهم ومهجهم وعقولهم إلى

---

(١) مر معنا وهو صحيح.

(٢) سنده قوي. رواه أبو نعيم. الحلية ١-٣٣٩ حدثنا محمد بن محمد بن إسحاق حدثنا زكريا الساجي حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عمي عبد الله بن وهب، عن فضيل بن غزوان عن أبي حازم عن أبي هريرة. وشـــيخ أبي نعيم هو أبو أحمد الحاكم حافظ عصره (طبقات الحفاظ ٣٣٨) وشـــيخه ابن يحيى ثقة فقيه من رجال التقريب وأحمد صدوق من رجال مسلم، وعمه ثقة معروف، وابن غزوان ثقة التهذيب ٨-٢٩٧ وأبو حازم الأشجعي تابعي ثقة التقريب ٢٤٦.

(٣) رواه أبو نعيم (٣٤١/١) من طريق الإمام أحمد بسند قوي وانظر ما بعده فهو هو...

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٤٢).

الله سـبحانه وتعالى، وتسـللوا والناس نيام إلى صفةٍ لا تقي من البرد، ولا من الجوع. لكنها بالتأكيد صفة تستدفئ بمسجد رسول الله ﷺ، وبقرب رسول الله ﷺ.. يعمرها القرآن، ويزينها الإيمان.

تمر بها عائشة رضي الله عنها ذات ليلة وهي في طريقها إلى بيتها، فتقف خلف جدارها مأسورةً مأخوذةً. فتبطئ الخطا، وتبطئ على زوجها رسول الله ﷺ. ثم تعود، وعندما تصل يسألها رسول الله ﷺ: (أين كنت.؟ قلت: يا رسول الله سمعت قراءة رجل في المسجد، ما سمعت مثله قط.

فقام رسول الله ﷺ وتبعته. فقال لي: ما تدرين من هذا؟

قلت: لا. قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة.

ثم قال: الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا)[1].

سـالم هذا عبد فقير صغير السـن.. لكن النبي ﷺ يفخر به.. يبتهج به، ويشكر الله سبحانه أن وهب هذه الأمة مثله.

إن أمة تفخر بالموالي والعبيد كما تفخر بالأشراف، لأمة عظيمة. وإن ديناً يتساوى فيه البشر، ليستحق الخلافة في الأرض.. كل الأرض، ويستحق أن تنقطع الأعناق في الصحاري والقفار بحثاً عنه.

فـي يوم من الأيام يقرر أحد المؤمنين أن يترك أهله ودياره.. يقرر أن يلتحق بتلك الصفـة المتواضعة خوفاً على دينه. أيام تمر وليالي تمضي، وهو يسـير مع غلامه في طريـق الهجرة، وذات يوم وعندمـا خيَّم الليل.. يقرر ذلك الغـلام الفرار والهرب من سـيده، فيفعل، ويتركه وحيداً مع الليل الخوف، فيواصل سيده المسير دون تردد، وتلك الليلة المشحونة بالهموم والوحدة والإرهاق تملأ صدره.. فيتنهد شعراً ويقول:

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن المبارك وأبو نعيم في الحلية (٣٧١/١) من طريق: حنظلة بن أبي سفيان عن عبد الرحمن بن سابط عن عائشة رضي الله عنها ح. حنظلة شيخ ابن المبارك وشيخ الوليد عند أبي نعيم ثقة حجة (التهذيب ٦٠/٣) والتقريب (٢٠٦/١) وشيخه عبد الرحمن بن سابط تابعي ثقة (التقريب ٤٨٠/١) والتهذيب (١٨٠/٦).

يــا ليلــة مــن طولهــا وعنائهــا على أنهــا مــن دارة الكفــر نجَّت

مســافر بلا رفيق، وليل طويل مخيف، وطريق غير آمنة. كل ذلك يهون، لأنه يؤدي إلى المدينة.. إلى الحبيب محمد عليه السلام.

سكن ذلك المسافر في الصفة، وتخرج منها ليكون أعظم علماء الإسلام في الحديث.. تخــرج هو وغيره من تلك الصفة علماء، لأنها لم تكن ملجأ فقط. لقد تحولت إلى كتاب مفتوح منذ ذلك اليوم الذي خرج فيه ﷺ على أهل الصفة فنثر الكنوز بين أيديهم.

عقبة بن عامر كان أحد الحاضرين. سألناه ماذا قال لكم رسول الله ﷺ يا عقبة؟

فقال: (خرج رســول الله ﷺ ونحن في الصفة فقال: «أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق، فيأتي منه بناقتين كوماوين، في غير إثم ولا قطيعة رحم؟».

فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك. قال ﷺ: «أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل، خير له من ناقتين، و ثلاث خير له من ثلاث، وأربع خيــر له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»)[1] الإبل التي هي أنفس ما يملكه العربي.. حولها الإسلام إلى أشياء رخيصة أمام أحرف العلم.

وحدث رسول الله ﷺ أصحابه ذات يوم عن العلم والمال، فأمرهم أن يحفظوا هذا الحديث فقال: (وأحدثكم حديثاً فاحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفرٍ:

«عبــدٍ رزقه الله مالاً وعلمــاً، فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعمل لله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل.

وعبدٍ رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية» يقول: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيته فأجرهما سواء.

وعبــدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، و لا يصل فيه رحمه، ولا يعمل لله فيه حقاً. فهذا بأخبث المنازل.

---

(١) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، صلاة المسافرين.

.. وعبدٍ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان. فهو بنيته، فوزرهما سواء»)[1].

حتى النوايا والأمنيات حولها الإسلام إلى كنوز، لتتحول حياة المسلم إلى أحلام وآفاق تهون نحوها المعاناة. لذا فقد انطلق أهل الصفة نحو العلم، وانطلق أغنياء الصحابة نحو العلم، ونحو أهل الصفة وغيرهم من الفقراء، وانطلق الأنصار، وتفجر كرمهم من جديد، وفاح عبيرهم، وتوهجت شمسهم نحو أهل الصفة والفقراء.

هاهم يقومون بأعمال أشبه بالمعجزات.. أشبه بالخيال، لأنهم الأنصار، ولأنهم ينجزونها كلها في اليوم والليلة، وفي كل يوم وليلة.

يحدثنا عنهم أنس بن مالك فيقول: إنهم رجال (من الأنصار يقال لهم «القراء» فيهم خالي «حرام» يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل، يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء، فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء)[2].

ألم أقل إنه عمل أشبه بالمعجزات. قبل شروق الشمس ينهضون.. يصلون، ثم يستسقون لأهل المدينة.. يضعون لهم الماء في المسجد مسبلاً للعطشان، وابن السبيل، ولمن يمر أو يقيم في المسجد. ثم يتوجهون كالحياة إلى خارج المدينة.. تهوي فؤوسهم وسواعدهم.. يحتطبون، ويكدحون، ثم يذهبون به إلى بيوتهم؟

لا، بل إلى السوق حيث يمارسون البيع والشراء.. يبيعون الحطب، ويشترون بثمنه طعاماً لأهل الصفة وللفقراء الآخرين.

هذا هو نهارهم سقاية.. وكدح، وبيع وشراء، ثم صدقة طيبة يدخلون بها البسمة إلى قلوب إخوانهم المساكين. فإذا جن الليل عليهم توجهوا إلى مدرسة الإسلام، ومنبع ثقافته.. إلى المسجد.. يقرأون القرآن، ويتدارسون العلم ويصلون.

لا تدري أهم علماء، أم عمال، أم عباد، أم تجار؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح الجامع وصحيحي الترمذي وابن ماجه.
(٢) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم، الإمارة، ٣ - ١٥١١.

إنهم الحياة إذا رسمها القرآن، ونفثت فيها السنة.. إنهم العطاء بكل أبعاده وأعماقه وآفاقه.. إنهم الأنصار، ولا تعرف الدنيا للأنصار مثيلاً. أما رسول الله ﷺ فقد انطلق من جديد.. يكثف الشعور بالمساكين والفقراء. انطلق رسول الله ﷺ نحو الجميع بوحي جميلٍ وجديد.. وحي يجعل من الإحساس بالفقر والفقراء عبادةً جديدةً.

الإسلام من جديد يقدم للفقراء الهدايا والهبات والمشاعر، فبعد أن مر شهر رجب من السنة الثانية، وحل بعده شهر شعبان أصبح المؤمنون ينتظرون هذا الجديد الجميل، الذي سيطل مع إطلالة هلال شهر رمضان القادم. فرمضان هذه السنة سيختلف عن أي رمضان مضى. لقد أمر الله سبحانه بـ:

صيام شهر رمضان

وأنزل على نبيه ﷺ آيات بينات يقول فيها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾[1].

إذاً فالصيام كان مفروضاً على الأنبياء السابقين.. كان مفروضاً على اليهود، وكان مفروضاً على النصارى، لكنهم حرفوا فيه كما حرفوا الكتب التي جاء بها أنبياؤهم، وزادوا ونقصوا كما فعلوا في التوراة والإنجيل. فصار لكل طائفة صيام، وتشكل الصيام وتنوع حسب أمزجة الأحبار والرهبان.

أما الآن فقد جاء محمد ﷺ، وجاء رمضان، وكتب الصيام من جديد. فما هذا الصيام الذي ضيعه أهل الكتاب وأعاده الله طرياً بمحمد ﷺ؟

ما هو الصيام

بدأ الصيام بـ: ترك الطعام والشراب والجماع من بعد صلاة العشاء إلى غروب الشمس، فكان المسلم يأكل ويشرب من بعد الغروب إلى أن يصلي العشاء فقط، فإذا

---

(١) سورة البقرة: الآيتان ١٨٣، ١٨٤.

صلى العشــاء حرم عليه الطعام والشــراب. كما أن من نام في الليل، ثم اســتيقظ في الليلة نفسها فلا يحل له أن يأكل أو يشرب شيئاً حتى غروب شمس الغد.

هذا إن كان المسـلم سـليم الجسم، ولا يشكو من أي مرضٍ، وكان مقيماً في بلدته غير مسـافر. فإن كان مريضاً أو مسـافراً فيجوز له أن يفطر، لكن يجب عليه صيام الأيـام التـي أفطرها فيما بعد. وقبل ذلك كله كان بإمكان أي مسـلم سـليماً كان أو مريضاً.. مقيماً كان أو مسـافراً. كان بإمكان أي مسـلم أن يفطر، ولا يقضي أي يومٍ أفطره، لكن بشرط.

هذا الشـرط هو أن يقوم المفطر بتقديم وجبة تشبع مسـكيناً واحداً عن كل يوم أفطره. لكن هذه الأحكام لم تدم. لقد تغيرت ونسخت، وجاءت بعدها:

أحكام جديدة في الصيام

وكان لهذه الأحكام الجديدة أسـباب وقصص.. بعضها طريف، وبعضها يتلوى من الجوع. لكن الصيام لم يتغير. ما زال: ترك الطعام والشراب و... فما هذه القصص؟

البراء بن عازب رضي الله عنه يقص علينا إحداها، ويحدثنا عن أهل بيت صاموا وصـام معهم بيتهم، الذي كان خالياً كبطون أهله. ذلك البيت الذي لم يكن فيه ما يبل الريق، أو يسد الجوع. إنه باختصار صفة أخرى..

يقول البراء: (إن أحدهم كان إذا نام قبل أن يتعشى لم يحل له أن يأكل شيئاً، ولا يشرب ليلته ويومه من الغد حتى تغرب الشمس، حتى نزلت: وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

ونزلـت في أبي قيس بن عمرو، أتى أهله وهـو صائم بعد المغرب، فقال: هل من شيء؟ فقالت امرأته: ما عندنا شيء، ولكن أخرج ألتمس لك عشاء.

فخرجت ووضع رأسه فنام، فرجعت إليه فوجدته نائماً، وأيقظته فلم يطعم شيئاً، وبات وأصبح صائماً حتى انتصف النهار، فغشـي عليه، وذلك قبل أن تنزل هذه الآية فأنزل اللـه فيـه)[1]. ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾.

(١) صحيح النسائي ٢-٤٦٧ للإمام الألباني وهو في للبخاري (١٩١٥) بلفظ آخر.

فقط ولم ينزل الله كلمة: (من الفجر) بعد قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. في بداية الأمر مما جعل بعض الصحابة يخطئ في معنى الخيط الأبيض والخيط الأسود فكانت هذه القصة الطريفة التي رواها صحابي اسمه سهل بن سعد رضي الله عنه فقال: (أنزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾. ولم ينزل: (من الفجر)، وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعد: (من الفجر) فعلموا أنما يعني الليل والنهار)[1].

أما القصة الأخرى فهي تتحدث عن قِصر وقت الفطر، وأنه مرهون بأداء صلاة العشاء.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم وهو يتحدث عن قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: فكان الناس على عهد النبي ﷺ إذا صلوا العتمة[2] حرم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه فجامع امرأته وقد صلى العشاء ولم يفطر، فأراد الله أن يجعل ذلك يسراً لمن بقي ورخصة ومنفعة، فقال سبحانه: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾. وكان هذا مما نفع الله به الناس ورخص لهم ويسر)[3] فجعل الفطر مباحاً حتى طلوع الفجر، فيصوم المسلم حتى يغيب قرص الشمس حيث قال ﷺ لأصحابه: «إذا أقبل الليل من ها هنا، وأدبر النهار من ها هنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم»[4].

أما عن الصوم الاختياري في أول الأمر، فقد تغير أيضاً وألغي كما قال االصحابي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد منا أن يفطر ويفتدي فعل، حتى نزلت هذه الآية التي بعدها فنسختها)[5].

(١) حديث صحيح. رواه الإمام البخاري (٤٥١١).
(٢) العشاء.
(٣) حديث صحيح. صححه الإمام الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/٤٤٠).
(٤) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (١/١٢٧).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري وأبو داود واللفظ له (صحيح أبي داود ٢/٤٤١).

فما هي الآية التي بعدها والتي نسختها وغيرت كل الأحكام السابقة التي مرت معنا؟ هذه الآية هي في قوله سبحانه: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[1]..

هذا هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، والذي قال فيه ﷺ: (أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضت من رمضان، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[2].

شهر الكتب المنزلة التي ضاع بعضها، وحرف بعضها، ولم يبق منها سوى القرآن شاهداً لها.. شاهداً على أممها، التي ضيعتها وحرفتها، ورغم الصوم.. رغم الجوع والعطش، لم يتحول هذا الشهر إلى شهرٍ للخمول، ولم تتحول المدينة فيه إلى جدران يغط تحتها الصائمون، ويستندون كالكسل إليها وأعينهم إلى الشمس ينتظرون غروبها. فالمدينة تعج بالحركة نهاراً، وبالقيام والتهجد ليلاً. بيوت المؤمنين في ليالي رمضان تشتعل بنور القرآن.. بالسجود والركوع والدموع.

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٨٥-١٨٧.

(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (٣١٣/١).

في تلك الليالي كانت إحدى الحجرات وجعاً وأنيناً.. أنين قادم من الحبشة.. قادم من المعاناة، وما كادت تستقر به الأقدام بين حرات المدينة حتى كان موعده المحتوم مع المرض والآلام.

فلذة كبد رسول الله ﷺ وقرة عينه هي تلك الأنين.. رقية بنت محمد ﷺ أقعدها المرض، وأسهر زوجها عثمان بن عفان، وآلمه.

رقية مريضة

هاجرت من مكة.. خاضت البحر فألقاها في الحبشة، وخاضته مرةً ثانية، فتهادى بهـا حتى وضعها بين يـدي والدها العطوف الحنون. ومـا كادت تتنفس هواء الحرية والأمن، حتى أطاح بها المرض، فهي طريحة الفراش والوجع في ذلك الشهر الكريم.

رسـول الله ﷺ يزورها ويطمئن عليها، ويوصـي زوجها الحزين بملازمتها. رقية بضعة من رسول الله ﷺ، والأمة أمانة، والرسالة أمانة. هموم تتداعى إلى قلبه ﷺ.. تتكتل أمام عينيه، ولا بد لها من حلول. رقية مريضة، وأهل الصفة جائعون، والمهاجرون قد سُـلبوا أموالهم وبيوتهم لينجوا بأنفسهم وإيمانهم من سياط الشرك وأهله، وهناك فرصة تلوح في الأفق لاسترجاع شيء مما سلبه الطواغيت منهم.

ترى هل يبقى ﷺ قرب ابنته الحبيبة؟ أم سـيركب إلى تلك الفرصة؟ هكذا كانت ليالي رمضان الأولى في المدينة، لكن كيف كانت ليالي رمضان في مكة. سـندع رسول الله ﷺ حتى يقرر ولنتسلل إلى مكة لنرى:

كيف كان ليل رمضان في مكة

إذا كانت أنسام الليل تحمل أنين رقية ودموعها، فإن أنسام مكة تحترق بزفرات نساء ورجال مسـتضعفين.. يمنعهم الضعف من البـوح بتوحيدهم ودينهم، وحبهم لنبيهم ﷺ. أسرارهم كالجمر في صدورهم.. يرعبهم ليل مكة، ويؤرقهم العيش بين الأصنام والشرك والمشركين الذي كان ليلهم خليطاً من الخمر والغطيط.

أنسام مكة تحترق بزفرات أخت رقية المريضة.. أختها الكبرى زينب، التي تتحرق شـوقاً إلى أبيها.. إلى أخواتها الحبيبات.. رقية وأم كلثوم وفاطمة. إنها لا تعلم شـيئاً عنهـم، ولا تدري هل سـتلتقي بهم يومـاً من الأيام أم لا؟ ونبي الله ﷺ يشـتاق إليها ويحبها ويثني عليها، ويتمنى قربها وقدومها.

إنها أكبر بناته، وقد عانت وعانت الكثير في سـبيل الله. إنها ابنة نبي، لكنها زوجة رجل لا يزال على شـركه.. رجل صادق ووفي اسـمه: أبو العاص بن الربيع، وهو شغوف بها ويحبها، لكن شركه يخنق ليلها وأنفاسها. فتاة مستضعفة مبتلاة، وهموم تزدحم في صدر والدها عليها وعلى أختها، وعلى كل مسـتضعف ومسـتضعفة. هذا هو ليل زينب الحزينة. وهذا هو ليل مكة المخيف الذي كان يحمل الفزع إلى إحدى البيوت.. إلى إحدى النساء التي كانت غارقة في نومها، حتى انتشلها الفزع، وانتشلها فارس الأحلام.

فارس الأحلام أتاها، لا ليحملها بين ذراعيه، بل ليدك بيوت قومها. فارس الأحلام هذا مخيف ومرعب.. يقفز في الهواء.. فوق الكعبة والجبال.. يحرك الصخور.. يصيح بأهلها.. صوته مخيف.. يتوعد بالموت والشظايا.

تلك المرأة المفزوعة لم تكن بعيدة من زينب بنت نبي الله ﷺ.. بل من أقرب الناس إليها، وتعيش بالقرب منها. امرأة من صلب قريش.. إنها ابنة عبد المطلب، وعمة رسول الله ﷺ واسـمها: (عاتكة). فهل يا ترى ستكون رؤياها كرؤيا والدها، الذي غاص في الأعمـاق وحفـر زمزم؟ أم أن فارس القمـم الذي رأته في منامها سـيدمدم ما تبقى لقريشٍ من آبار تنضح بالشرك؟

تلك الرؤيا حولت مكة إلى غبار وضجيج، ونزاع وتشاتم. سنخيم على بيت عاتكة لننظر ما يحدث في منامها:

رؤيا
عاتكة بنت عبد المطلب

(كانت عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسـول الله ﷺ سـاكنة مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبيل بدر ففزعت، فأرسـلت إلى أخيها عباس من ليلتها حين

فزعت، واستيقظت من نومها وقالت: رأيت رؤيا وقد خشيت منها على قومك الهلكة؟ قال: وما رأيت؟ قالت: لن أحدثك حتى تعاهدني أن لا تذكرها، فإنهم إن سمعوها آذونا، فأسمعونا ما لا نحب.

فعاهدها عباس، فقالت: رأيت راكباً أقبل على راحلته من أعلى مكة يصيح بأعلى صوته: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث.

ثم دخل المسجد على راحلته، فصرخ في المسجد ثلاث صرخات، ومال إليه من الرجال والنساء والصبيان، وفزع الناس له أشد الفزع، ثم أراه مَثُلَ على ظهر الكعبة على راحلته[١]، فصاح ثلاث صرخات: يا آل غدر، ويا آل فجر، اخرجوا [لمصارعكم] في ليلتين أو ثلاث. حتى أسمعَ من بين الأخشبين[٢] من أهل مكة.

[ثم إن بعيره مَثُلَ به على رأس أبي قبيس[٣] فقال: انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث].

ثم عمد لصخرة عظيمة فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلت الصخرة لها دوي، حتى إذا كانت عند أصل الجبل أرفضت[٤]، فلا أعلم بمكة بيتاً ولا داراً إلا قد دخلها فلقة من تلك الصخرة. فقد خشيت على قومك أن ينزل بهم شر.

ففزع منها عباس وخرج من عندها، فلقي من آخر ليلته الوليد بن عتبة بن ربيعة - وكان خليلاً للعباس- فقص عليه رؤيا عاتكة، وأمره أن لا يذكرها لأحد.

فذكرها الوليد لأبيه، وذكرها عتبة لأخيه شيبة، وارتفع حديثها حتى بلغ أبا جهل ابن هشام، واستفاضت. فلما أصبحوا غدا عباس يطوف بالبيت حين أصبح، فوجد أبا جهل وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأمية بن خلف وزمعة بن الأسود وأبا البختري في نفر يتحدثون. فلما نظروا إلى العباس يطوف بالبيت ناداه أبو جهل: يا أبا الفضل إذا قضيت طوافك فآتنا.

---

(١) قفز بعيره الذي يركبه على ظهر الكعبة.
(٢) جبلان يحيطان بمكة. أى سمعه الناس الذين يسكنون بين هذين الجبلين.
(٣) اسم جبل. أى قفز به بعيره على رأس ذلك الجبل.
(٤) تفرقت: أي تطايرت متحولة إلى حجارة صغيرة وشظايا عند أسفل الجبل.

فلمـا قضـى طوافه أتى فجلـس، فقال أبو جهـل: يا أبا الفضل، مـا رؤيا رأتها عاتكة؟

قال: ما رأت من شـيء. قال: بلى. أما رضيتم يا بني هاشـم بكذب الرجال حتى جئتمونا بكذب النسـاء، إنا كنا وأنتم كفرسي رهان[١]، فاستبقنا المجد منذ حين، فلما تحـاذت الركب قلتم: منا نبي[٢]. فما بقي إلا تقولوا: منا نبية!! لا أعلم في قريش أهل بيت أكذب رجلاً، ولا أكذب امرأة منكم.

فآذوه يومئذٍ أشـد الأذى، وقال أبو جهل: زعمـت عاتكة أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبينت لقريش كذبكم، وكتبنا سـجلاً ثم علقنا بالكعبة: أنكم أكذب بيت في العرب رجلاً وامرأة)[٣].

يقـول العباس: [فوالله مـا كان إليه مني من كبير إلا أني أنكرت ما قالت، فقلت: ما رأت شيئاً ولا سمعت بهذا.

فلما أمسـيت لم تبق امرأة مـن بني عبد المطلب إلا أتتنـي فقلن: أصبرتم لهذا الفاسـق[٤] الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم تناول النسـاء وأنت تسمع، فلم يكن عندك في ذلك غيرة؟!!

فقلـت: قد والله صدقتن وما كان عندي في ذلك من غيرة، إلا أني قد أنكرت ما قال، فإن عاد[٥] لأكفينه.

فقعدت في اليوم الثالث أتعرضه ليقول شـيئاً فأشـاتمه، فوالله إني لمقبل نحوه، وكان رجلاً حديد الوجه، حديد النظر، حديد اللسان، إذ ولى نحو باب المسجد يشتد. فقلت - في نفسـي-: اللهم العنه كلَّ هذا فرقاً[٦] أن أشـاتمه، وإذا هو قد سمع ما لم

---

(١) أي كالمتسابقين إلى هدف.

(٢) يقول هذا الطاغوت: إنكم يا بني هاشم ادعيتم النبوة كذباً عندما تساوينا وإياكم في الشرف والمجد حتى تتغلبوا علينا.

(٣) انظر تخريجه في نهاية القصة.

(٤) المقصود هو أبو جهل.

(٥) المقصود هو أبو جهل.

(٦) خوفاً.

أسمع: صوت ضمضم بن عمرو، وهو واقف على بعيره بالأبطح، قد حول رحله، وشق قميصه، وجدع بعيره[1] يقول: يا معشر قريش، اللطيمة، اللطيمة. أموالكم مع أبي سفيان، وتجارتكم قد عرض لها محمد وأصحابه، فالغوث، الغوث. فشغله ذلك عني وشغلني عنه، فلم يكن إلا الجهاز حتى خرجنا][2].

لقد ثارت قريش وهاج الكفر كله، فما الذي أصاب القوم حتى صاروا كالمجانين؟

هل تحققت رؤيا عاتكة وصدقت، وكذب أبو جهل وطار عقله، فطار عقل أمية وصوابه؟ ما الذي حدث، وماذا فعل رسول الله ﷺ بأبي سفيان وقافلته هذه؟

لقد كنا في المدينة عند رقية حيث كان بيتها ساكناً إلا من أنينها.. حيث كانت المدينة ساكنة بالإيمان، فما الذي كان يخطط له رسول الله ﷺ والناس نائمون؟

سنعود إلى المدينة حيث ترقد رقية. ها هي طريحة الفراش والألم، وها هو عثمان بقربها ينظر إلى حبيبته وردة تذبل يوماً بعد يوم.. تذبل ألماً بعد ألم. لقد عادها أبوها ﷺ قبل أيام، ورأى ما بها فأوصى عثمان الحزين بالمكوث عندها، ثم ودعهما بعد أن ألقى عليها نظرة الوالد المحب الحاني، وودعته بعينين حزينتين.

كأني بعينيها تغرقان بالدموع.. تتعلقان بهذا الوالد الذي لا يستطيع البقاء عندها، ولا يملك لها سوى الدعاء.

استودعها الله وتركها، ومرارة الوداع في حلقها وقلبها، ومرارة الوداع في كلماته لعثمان. وعثمان صابر محتسب.. يفوته الخروج مع حبيبه ﷺ فيصبر، وقد تفوته رقية وترتحل عنه. أي ليلٍ سيخيم على عثمان؟

---

(١) أي قطع أنفه تعبيراً عن هول الكارثة التي حلت بقريش.

(٢) هذا الخبر حسن بطرقه... وهو عند الطبراني (٢٤/٣٤٦): ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير. وهذا مرسل وابن لهيعة فيه ضعف، لكن الرواية ثابتة عن عروة عند ابن إسحاق: حدثني يزيد بن رومان عن عروة، ويزيد ثقة كما رواها ابن إسحاق بسند متصل: حدثني من لا أتهم عن عكرمة عن ابن عباس، وقد صرح ابن إسحاق باسم شيخه الذي وثقه فقال: حدثنا حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.. ورغم أن رواة السند كلهم من بيت العباس بن عبد المطلب إلا أن حسيناً هذا ضعيف، وروايته تتقوى بمرسل عروة.. انظر البيهقي ٣-٢٩ وهي عند الطبراني من طريق عبد العزيز بن عمران. حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط عن عاتكة وعبد العزيز قد توبع عند ابن منده لكن شيخه ضعيف وبقية الرواة ثقات، والقصة حسنة بهذه الطرق.

رسـول الله ﷺ أكثر صبراً واحتسـاباً.. ابنة في مكة لا يستطيع رؤيتها.. حبيسة الشـرك. وابنة حبيسـة المرض، وأصحاب معدمون يتزاحمون في صفة مليئة بالجوع، وقريش تسـرح وتمـرح وتتاجر بأموال أصحابـه، وأمة تحتاج إلى قائـد يحملها إلى المستقبل، وإلى تلك الفرصة من التعويض وانتزاع الحقوق المغتصبة.

قدم ﷺ حاجة أمته على حاجته، ومصلحتها على هموم أسـرته، فخرج، لكن إلى أين..؟ هاهو أنس بن مالك يسـير مع رسول الله ﷺ سنعرف منه ما حدث. إنه يتكلم فلننصت إليه:

الخروج وأسبابه

يقول أنس رضي الله عنه: (بعث رسـول الله ﷺ (بسيسـة) عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان. فجاء وما في البيت أحد غيري وغير رسول الله ﷺ [١])[٢].

ذهب الصحابي المدعو «بسيسـة» فـي مهمة حددها ﷺ، وهي تحسـس أخبار القافلة القرشـية القادمة من الشام نحو مكة، والتي يقودها أبو سفيان بن حرب، وتم رصد وتحديد طريق سـيرها ومكانها. أتم بسيسة مهمته كما هو مطلوب منه، ثم عاد إلى رسـول الله ﷺ (فحدثه الحديث، فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال: إن لنا طلبة، فمـن كان ظهـره حاضراً فليركب معنا، فجعل رجال يسـتأذنونه في ظهورهم في علو المدينة؟ قال: لا، إلا من كان ظهره حاضراً)[٣].

جاء أبو بكر، وجاء عمر، وجاء علي، أما عثمان فاستبقاه رسول الله ﷺ بالمدينة، وأمـره بالمكوث، وجاء بقية الصحابة مـن المهاجرين والأنصار، وجاء عمر بن الخطاب بابنه الصغير عبد الله فتأمله ﷺ، فوجده طفلاً، فأعاده مكسـور الخاطر بعد أن كان يحلم بخطوات يسيرها في دروب البطولة والشهادة.

وجاء طفل آخر اسمه البراء بن عازب، فأعاده ﷺ أيضاً، فراح فيما بعد يتحدث إلى من حوله عن تلك الرفقة العظيمة، ويصفها بالإيمان ويتمنى لو سـار معها فيقول:

---

(١) قال بعد هذه الكلمة: لا أدري ما استثنى بعض نسائه، أي أن بعضهن كانت عنده ﷺ.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).
(٣) حديث صحيح. رواه مسلم (كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد).

(اســتصغرت أنا وابن عمر يوم بدر، وكنا -أصحاب محمد- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[1].

وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ومعه فتى صغير اسمه (عمير) إنه أخوه، وهو شــجاع مثله، لكنه كان خائفاً مضطرباً، بل لقد بكى. فكيف يكون شجاعاً، وكيف يرغب في الشهادة وقد انتابه الخوف والبكاء؟!

تلــك قصة عجيبة رويت عن أخيه ســعد حيث يقول: (رأيــت أخي عمير بن أبي وقــاص قبل أن يعرضنا رســول الله ﷺ بدر يتوارى، فقلــت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رســول الله ﷺ فيســتصغرني، فيردني وأنا أحــب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة.

[فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع.

فبكى عمير فأجازه رسول الله ﷺ] فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره)[2].

كأني بســعد يعقد ســيور سيفه لأخيه ويبتسم، فيبتســم عمير لمن حوله وللجنة. قصة مؤثرة تســيل دموعاً وشوقاً للشهادة، وشــاب ملأت الجنة روحه وجوانحه. إنها حال الشــباب في أي زمان ومكان تحل فيهما قيادة إســلامية صافية ومخلصة. لقد اجتــاز عمير بن أبي وقاص آخر العقبات في حياته، وها هو أمام بوابة مشــرعة على الخلود. عمير من ثمار الرسول ﷺ.. عمير وغيره.

انظروا إلى هذين.. إنهما صديقان يكبران عميراً بقليل.. أســدان اسم أحدهما: (معاذ بن عمرو بن الجموح) واســم الآخر (معــاذ بن عفراء) وعلى أحد الأبواب، وفي

---

(١) حديث صحيح. رواه البيهقي (٣/٣٦) وهو عند البخاري بلفظ آخر... انظر البخاري (٣٩٥٥، ٣٩٥٦، ٣٩٥٧، ٣٩٥٨، ٣٩٥٩).

(٢) ما أريده من هذه القصة هو ما بين المعقوفين أما ما كان خارجهما فسنده ضعيف لأنه من طريق الواقدي كما في الإصابة -ترجمة عمير- وعند ابن ســعد (٣/١٤٩) وما بــين المعقوفين عند الحاكم (٣/٤٧) من طريق يعقوب الزهري أخبرنا إسحاق بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن جعفر عن إسماعيل بن محمد بن سعد عن عامر بن سعد عن أبيه.. وهذا السند صحيح ورجاله ثقات لولا أوهام يعقوب بن محمد الزهري وهو صدوق لكنه لم ينفرد فقد تابعه شــيخ البزار في روايته (كشــف الأســتار ٢/٣٥١) واسمه محمد بن قيس. ولعله توبع أيضاً عند البغوي فقد روى الحديث كما قال الحافظ في الإصابة.

بيت من أبيات المدينة كانت الدموع، وكان الوداع والعناق بين شاب وأمه، ولك أن تتخيل ما تشعر به أم تفارق ابنها.. تودعه وهي لا تدري هل سيعود إليها أم أنها بعثت به إلى الموت، وبعثت بنفسها إلى الحزن والحداد. أم الربيع بنت النضر - عمة أنس بن مالك، وأخت الأسد الهصور: أنس بن النضر- تودع ابنها الذي يرتع في قلبها.. تودع ابنها (الحارث[1] بن سراقة) وداعاً حاراً باكياً، لكنها الجنة فليذهب الحارث إلى الجنة من أي طريق شاء.

فارس آخر.. ربما كان يشتري بعض التمر.. ربما كان قبل قليل بين النخيل يخترف منها، وربما غير ذلك، لكنه كان يضع بعض التمرات في جيبه، ولما سمع النداء هب مسرعاً لنداء الله ورسوله ﷺ.. إنه (عمير بن الحمام)[2].

اجتمع هؤلاء وغيرهم حول نبي الله ﷺ، فكانت المشورة وحرية الرأي قبل الانطلاق.

المشورة قبل الانطلاق

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان، فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقال سعد بن عبادة: إيانا يريد رسول الله ﷺ؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد، لفعلنا.

فندب رسول الله ﷺ الناس، فانطلقوا)[3].

ولئن كانت المشورة قبل الانطلاق فقد كان هناك:

---

(١) سيأتي الحديث عن هذا الفتى رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.
(٢) سيأتي الحديث عن هذا الصحابي رضي الله عنه فيما بعد إن شاء الله.
(٣) سنده صحيح. رواه أحمد (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٤) وروى مسلم نحوه.. وسند أحمد صحيح متصل رجاله أئمة ثقات هم... عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس.

سرية في الانطلاق

تقول عائشة رضي الله عنها: (إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر)[1].

دون ضوضاء.. دون أجراس وضجيج انطلق ﷺ وصحابته، وسمح ﷺ بالانطلاق معه لمن ليس معه راحلة، وأمر ﷺ بالاشتراك والتناوب بين الاثنين والثلاثة على الراحلة الواحدة. فامتثل الجميع وتحركوا نحو تلك القافلة مسرعين.. يطوون الأرض طياً، وفي طريقهم يرون راكباً يسابق الريح إليهم، فيلحق بهم.

ما الذي حدث؟ هل هو عثمان بن عفان جاء ليخبر رسول الله ﷺ أن ابنته زينب اشتد بها المرض؟ أم هو رجل لم يعلم إلا متأخراً فلحق بهم بعد أن علم بالأمر؟

ليس هذا ولا ذاك.. إنه رجل مشرك، لكن فيه من الشهامة والرجولة الشيء الكثير.. إنه يمتطي راحلته وشهامته، ويتجه بهما نحو رسول الله ﷺ يكلمه، ثم يرد عليه ويسير ﷺ، فيلحق به ثم يكلمه مرة أخرى، فيرده ثم يسير ﷺ ويتركه. فمن هذا الرجل، ولماذا تركه ﷺ في مكان يقال له (حرة الوبِرة)؟

تقول عائشة رضي الله عنها: (خرج رسول الله ﷺ قِبل بدر، فلما كان بحرة «الوبرة» أدركه رجل يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: «جئت لأتبعك وأصيب معك».

قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا.

قال ﷺ: «فارجع فلن أستعين بمشرك».

ثم مضى حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة. فقال له النبي ﷺ كما قال له أول مرة، قال: فارجع فلن أستعين بمشرك.

ثم رجع فأدركه بالبيداء، فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله؟ قال: نعم.

---

(١) سنده صحيح. رواه أحمد (٦/ ١٥٠) والنسائي وغيرهما (سيرة ابن كثير ٢/ ٣٨٩):... سعيد بن أبي عروبة وسعيد بن بشر والصواب: سعيد بن بشير عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن سعد بن هشام عن عائشة وقد خالفهما هشام فرواه عن قتادة عن زرارة عن أبي هريرة ومع احتمال التعدد إلا أن سعيداً رغم كونه مدلساً فإنه أثبت الناس في قتادة وشيوخه ثقات. التقريب (١/ ٢٥٩) و (١/ ٢٨٩).

فقال له رسول الله ﷺ: فانطلق)[1] فانطلق الرجل مع النبي ﷺ وأصحابه مسلماً، بعد أن دفن الشرك والأصنام بالبيداء، ورفرف مع شجاعته ونجدته في أجواء التوحيد الطاهرة الفسيحة، وواصل المسلمون سيرهم نحو القافلة، لكن مشكلة وقعت، وأمراً خطيراً لم يحسب له المسلمون حساباً؟ لقد علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ. لكن كيف؟

كيف علمت قريش بخروج رسول الله ﷺ

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

فانتدب الناس، فخف بعضهم، وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك. فحذر عن ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً يستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.

فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة)[2] ووصل إليها، فسمعت قريش (صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره، وحول رحله، وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة.. اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث.. الغوث)[3].

وتجمعت قريش حول هذا المشهد الفاجعة، وصرخت بوجه ضمضم بن عمرو تسأله عن تفاصيل أكثر، وثارت مكة وارتجت، وتعالى الضجيج، وسلت السيوف، ونسي

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (١٨١٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري ٦-١٨٢ من طريقين: مرسل صحيح إلى عروة، والثاني عن ابن عباس وابن إسحاق لم يذكر أسماء شيوخه وهم جمع، ويشهد له ما بعده.

(٣) حديث حسن. مر معنا عند الحديث عن رؤيا عاتكة وهو جزء من حديث الرؤيا.

العباس شجاره مع أبي جهل، واحتقن الطواغيت.. طواغيت قريش كلهم.. كلهم إلا واحداً أذهله الخبر، فأصيب بالهلع.

إنه لا يدري ما يفعل، ولا كيف يتصرف؟ إنه يرتجف ويرتجف.. يهرول مسرعاً إلى منزله، وعندما يصل لا يبحث عن سلاح، ولا يفتش عن درع ورمح.. إنه خائف جداً، ويكاد يموت من الخوف.

لم يكن سبب ذلك الخوف تجارة له مع أبي سفيان يخشى أن يفقدها، ولم يكن خائفاً على سمعة قريش. الأمر أشد وأخطر.. إنه يحس بدنو أجله.. ويرى في كل شبر خارج مكة قبراً مشرعاً ينتظره. إنه أمية بن خلف، وهو لا يستطيع التفريق بين من يقول: الغوث.. الغوث، أومن يقول: الموت.. الموت..

كأني به وهو يستمع إلى صراخ ضمضم يتذكر صراخ سعد بن معاذ في ذلك اليوم المشئوم، عندما كان سعد بن معاذ في نزاع مع أبي جهل، بعد أن رفض أبو جهل أن يطوف سعد بالكعبة وهو من أنصار محمد ﷺ، وعندما حاول أمية إسكات سعد بن معاذ رضي الله عنه.. بشره سعد بنهاية تصطك لها الركب.. بشره سعد بكارثة فقال له: (دعنا منك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك. قال أمية: بمكة؟. قال سعد: لا أدري.

ففزع لذلك أمية فزعاً شديداً، فلما رجع أمية إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري إلى ما قال لي سعد..؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنه قاتلي، فقلت له: بمكة؟ فقال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة)[١].

واليوم هاهي قريش غاضبة وستخرج كلها، ولن يتخلف منها أحد، فهل سيتخلف سيد من ساداتها، وما عذره؟ هل سيقول: إني خائف؟ هل سيقول: إن محمداً صادق في قوله ووعده؟ حائر أمية .. حائر.. يلتفت إلى امرأته يحدثها أنه قد (جاء الصريخ. قالت له امرأته: أما علمت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال أمية: فإني لا أخرج)[٢].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي (٣-٢٧).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٢٦).

إذا فقــد قرر أمية البقاء في مكة وعدم الخــروج، فلتذهب القافلة إلى الجحيم، ففي خروجه سفر إلى الموت على يد محمد وأصحابه. لكن هل سيتركه أبو جهل ينعم بالبقاء؟ لا أظن ذلك، فأبو جهل الآن كالمجنون.. يجول في شــوارع مكة، كالثور الهائج يثيــر الغبار فــي أزقتها.. يطرق أبوابها. لــن يتركه أبو جهل ينعم بالطعام والشــراب والرقاد ليواجه الموت نيابة عنه، لقد (اســتنفر أبو جهــل الناس فقال: أدركوا عيركم. فكــره أمية أن يخرجه، فأتاه أبــو جهل، فقال: يا أبا صفوان إنك متى يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتني فوالله لأشــترين أجود بعيرٍ بمكة. ثــم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني. فقالت له: يا أبا صفوان وقد نســيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلمــا خرج أمية أخذ لا يترك منــزلاً إلا عقل بعيره فلم يــزل بذلك)[1] كلما نزل منزلاً ربط بعيره السريع تأهباً للهرب والفرار.. لم يزل كذلك خائفاً، يرى الموت خلف الصخور وبين الشــجر.. يرى الموت يســيل في الوادي.. يراه مقبلاً مع قطع السحاب الصيفية، وفي المساء يرى الظلام عباءة يرتديها الموت، والنجوم عيون تحدق به.

مضوا خلف أبي جهل مصطحبين المغنيات والخمر والموت، حتى وصلوا إلى أرض بين مكة والمدينة يقال إنها كانت (موســماً من مواســم العرب، يجتمع لهم بها سوق كل عام)[2] واسم هذه الأرض:

بدر

وقد قرر أبو جهل ومن معه تحويل أرضها إلى ساحةٍ لاحتفالٍ صاخب، سيجعلون أرض بــدر خمراً ونســاءً، ورقصاً ومقابر لمحمد وأصحاب محمدٍ، ســيجعل أبو جهل مــن تلك الأرض احتفــالاً غير عادي.. احتفالاً لقريش وحدهــا.. في موعد هو الذي يحــدده، وقد وصــف الله عز وجل ذلك الخروج وتلك الغطرســة بقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا

(١) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٥٠).
(٢) تفسير الطبري (تفسير سورة الأنفال).

﴿كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾[1].

زحفت الجموع، وزحف معهم أمية، وخيم شبح الموت على كل شبرٍ يسير إليه.. إنه الآن يتوقع خروج رسول الله ﷺ أو بعض صحابته في أية لحظة، ومن أي مكان ليقتلوه.. إنه ليتساءل.. ترى:

أين محمد

أجل أين رسول الله ﷺ؟

لقد (خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له: «ذفران» فخرج منه، حتى إذا كان ببعضه نزل] وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش)[2].

لكن كيف علم ﷺ بخروج قريش.. كيف عرف عددهم، ولماذا يستشير أصحابه مرة أخرى، وهم قد وافقوا على الخروج معه عندما كانوا في المدينة؟ لنبدأ بالأمر الأول.

كيف علم ﷺ بخروج قريش

يقول أحد الصحابة المشاركين بتلك الأحداث وهو أنس بن مالك: (إن رسول الله ﷺ ندب أصحابه، فانطلقوا إلى بدر، فإذا هم بروايا قريش فيها عبد أسود لبني الحجاج، فأخذه أصحاب رسول الله ﷺ فجعلوا يسألونه: أين أبو سفيان؟ فيقول: والله ما لي بشيء من أمره علم، ولكن هذه قريش قد جاءت فيهم: أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف.

فإذا قال لهم ذلك ضربوه. فيقول: دعوني، دعوني أخبركم. فإذا تركوه قال: والله ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذه قريش قد أقبلت، فيهم أبو جهل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف قد أقبلوا. والنبي ﷺ يصلي -وهو يسمع ذلك- فلما انصرف[3]

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٢) حديث حسن. دون ما بين المعقوفين. رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل.

(٣) انصرف من صلاته: انتهى والانصراف يعني أيضاً: التسليم.

قال: «والذي نفسي بيده إنكم لتضربونه إذا صدقكم، وتدعونه إذا كذبكم، هذه قريش قد أقبلت لتمنع أبا سفيان»[1].

هكذا علم رسـول الله ﷺ بمقدم قريش وطواغيتها.. كان الأمر خطيراً وعصيباً جـداً، ولا بد لنبي الله ﷺ من أن يعيد حسـاباته مـن جديد.. لا بد من معرفة حجم الخطـر القـادم، وهل في الإمـكان مواجهتـه؟ أم أن في مواجهته تهـوراً، ولا بد من الانسـحاب للحفاظ على صفوة الأمة ونواتها..؟ ما غاب ذلك عن رسول الله ﷺ ولم يغب. فقط وبحوار قصير بين رسـول الله ﷺ وبين ذلك الغلام المشرك، ودون ضرب، أو تعنيف، أو إكراه.. دون سياط أو حبال.. انتهى كل شيء.

كيف عرف ﷺ عدد قريش

يتحدث عن ذلك بطل آخر من شباب الإسلام. علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث يقول: (كان النبي ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشـركين قد أقبلوا، سـار الرسـول ﷺ إلى بدر - وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم، رجلاً من قريش، ومولى لعقبة بن أبي معيط.

فأما القرشـي فانفلت، وأما مولـى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقـول له: كم القوم؟ فيقول: هم -والله- كثير عددهم، شديد بأسهم. فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه، حتـى انتهوا به إلـى النبي ﷺ، فقال له: كم القوم؟ فقال: هـم -والله- كثير عددهم، شـديد بأسـهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى. ثم إن النبي ﷺ سـأله كم ينحرون من الجزور؟[2] فقال: عشراً كل يوم.

فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف، كل جزور لمائة)[3]. بفطنته وذكائه ﷺ توصل إلى عدد قريش، لكن كم كان:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم وأبو داود واللفظ له صحيح أبي داود ٢٣٣٢.

(٢) الإبل.

(٣) سـنده صحيح. رواه البيهقي ٣-٤٢ وأحمد ١-١١٦: إسـرائيل، عن أبي إسـحاق، عـن حارثة عن علي: إسـرائيل ثقة وسـماعه من شـيخه (جده) قبل الاختلاط، وجده تابعي ثقة التقريب ٤٢٣ أما حارثة بن مضرب فتابعي كبير ثقة التقريب ١٤٩.

عدد الصحابة؟

إذا كانت قريش ألفاً، فإن ذلك الطفل الذي منعه الرسول ﷺ من الخروج لصغر سنه يحدثنا عن عدد المسلمين (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: (استصغرت أنا وابن عمر يوم بدرٍ، وكنا -أصحاب محمدٍ- نتحدث أن عدة أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، كعدة أصحاب (طالوت) الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه النهر إلا مؤمن)[١] لقد كان امتحاناً صعباً لطالوت ومن معه أمام جيش الروم، وهاهو امتحان آخر لأصحاب رسول الله ﷺ.. إنهم ثلاثمائة وبضعة عشر فقط، وهؤلاء الثلاثمائة إذا نظرت إليهم باحثاً عن خيل يركبونها لم تجد سوى فرسين. يقول علي: (ما كان معنا إلا فرسان، فرس للزبير، وفرس للمقداد بن الأسود)[٢].

ثلاثمائة ليس معهم إلا فَرَسَان، فماذا عن البقية..؟

إنك لو نظرت مرة أخرى إليهم، لنظرت إلى مشهدٍ خلاب، رغم الفقر والحفاء والعوز.. لن تجد أحداً يسير على قدميه كل الطريق، ولن تجد أحداً يركب كل الطريق.. كانت قافلةً من القلوب والمشاعر قادها ﷺ إلى بدر. عبد الله بن مسعود أحد تلك القلوب التي تخفق بالإيمان والإيثار والنظام يقول رضي الله عنه وعنهم: (كنا يوم بدرٍ كل ثلاثةٍ على بعير، كان أبو لبابة وعليّ زميلي رسول الله ﷺ، فكانت إذا حانت[٣] عقبة رسول الله ﷺ يقولان له: نحن نمشي عنك.

فقال: ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[٤].

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له ٣-٣٦.

(٢) سنده حسن رواه البيهقي ٣-٣٩: أخبرنا أبو عبد الله، أخبرنا عبد الله بن إسحاق البغوي، حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدثنا ابن وهب، وأخبرني أبو صخر عن أبي معاوية البجلي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أن علي: أبو معاوية صدوق من رجال مسلم واسمه: عمار بن معاوية الدهني، وأبو صخر: حميد بن زياد التهذيب ٣-٣٦ من رجال مسلم حسن الحديث، وتلميذه إمام معروف، والبغوي مسند بغداد التذكرة ٨٨٩.

(٣) إذا جاء دور الرسول ﷺ في المشي.

(٤) إسناده حسن رواه أحمد ١-٤١١ و٤١٨ و٤٢٢ من طريق حماد بن سلمة حدثنا عاصم بن بهدلة عن زر عن ابن مسعود. عاصم حسن الحديث وزر ثقة التقريب ٢٨٥٢١٥.

رسول الله ﷺ ونبيه وخير خلقه يقطع المسافات مشياً، رغم وجود من يبذل روحه فداءً لتلك الخطوات الشريفة. لكنه كان يشارك أصحابه.. يعلمهم.. يتماهى بهم.. يشفق عليهم، ويرأف بهم، ويحنو عليهم، ويطمع مثلهم بالأجر من عند الله.

لقد رق ﷺ لمنظرهم وهم يتعاقبون، ورق لحالهم وهم يتساقطون من التعب والجوع وطول السفر، فاتجه إلى أرحم الراحمين يستمطره رحمة لهؤلاء المساكين. ابتهل.. لهج بقلبه ولسانه وقال: (اللهم إنهم عراة فاكسهم، اللهم إنهم جياع فأشبعهم)[1].

دعاء يفيض رحمةً وشفقة، وحالة أصحابٍ يرثى لها، وظرف صعب يفاجئ القافلة المؤمنة، وعدو كشر عن أنيابه وسيوفه وحقده. ومع ذلك كله.. لم تخف القلة المؤمنة، ولم ترتجف، لكن هناك من كره لقاء قريش بهذا الاستعداد الضعيف، فما للقتال خرجوا، وما لهذه الجموع احتسبوا. لقد خرجوا يريدون مالاً لهم في قافلة، فصاروا أمام جيش متأهب لأخذهم.

لقد كرهوا ذلك خوفاً على دولتهم الفتية.. على رسولهم أن تناله أيدي المشركين ورماحهم. لقد وصف الله سبحانه تلك المشاعر فقال: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[2].

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: (تخلفت عن غزوة بدر، ولم يعاتب الله أحداً تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد)[3].

لقد رأى ﷺ في وجوه الصحابة العزم والشجاعة، ورأى في وجوه البعض الشجاعة والكراهية معاً، وذلك لعدم الاستعداد، وقلة العدد والعدة.

رأى خوفهم عليه وعلى دينهم ودولتهم فتوقف ﷺ لـ:

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي ٣-٣٨ وأبو داود ٢٧٤٧ من طريق ابن وهب حدثنا حيي عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو. ابن وهب ثقة مر معنا، وحيي حسن الحديث، قوي إذا روى عنه ثقة، والحبلي ثقة من رجال مسلم اسمه: عبد الله بن يزيد.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٥، ٦.

(٣) حديث صحيح طويل. رواه البخاري (٤٤١٨).

المشورة الثانية

(خرج رسول الله ﷺ في أصحابه [حتى بلغ وادياً يقال له «ذفران»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل]، وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار النبي ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضوان الله عليه فقال وأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: يا رسول الله، امض إلى حيث أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، [فوالذي بعثك بالحق لئن سرت بنا إلى برك الغماد[1]، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه])[2] (لا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ولكن نقاتل عن يمينك، وعن شمالك، وبين يديك، وخلفك. قال ابن مسعود: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره)[3].

لقد تأثر ابن مسعود بما قاله المقداد، وتمنى في تلك اللحظات لو كان هو صاحب تلك الكلمات، ولم يستطع ابن مسعود أن يكتم ذلك في نفسه، لقد صرح به فيما بعد فقال: (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إليّ مما عُدل به)[4] أما رسول الله ﷺ فبعد أن رأى تلك العواطف الجياشة تموج أمامه، وعن يمينه، وعن شماله، وتحميه من خلفه.. بعد أن رأى الفداء يظلله كالحب.. كالغمام. صاح مرة أخرى بالفئة المؤمنة؟ فتنبه أحد الأنصار لهذا النداء المتكرر، وفهم مراد رسول الله ﷺ. لقد تحدث أبو بكر وعمر وتحدث المقداد، ومع ذلك كله ينتظر رسول الله ﷺ رأياً آخر، له في نفسه وزن لا يقل عن تلك الآراء السابقة.

---

(١) قال الراوي: مدينة الحبشة.

(٢) حسن. رواه ابن إسحاق وقد مر معنا، حيث صرح بالسماع من شيوخه الثقات: الزهري، وعاصم بن عمر، وعبد الله بن أبي بكر، ويزيد بن رومان.. وهؤلاء أخذوه عن شيخهم الإمام عروة بن الزبير ورواه شيوخ غيرهم عن ابن عباس، لكن هؤلاء الشيوخ غير معروفين والحديث يشهد له ما قبله من الأحاديث وما بعده عدا ما بين المعقوفين فلم أجد له شاهداً. والحديث جزء من حديث بدر الطويل.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري عن ابن مسعود (٣٩٥٢).

كان ﷺ (يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه على العقبة قالوا: يا رسول الله، إنا براء من ذمامك[1] حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه[2] بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال ﷺ: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك)[3].

وجاءت البشرى من الله..

وأنزل الله كلامه وعداً صادقاً لا يتأخر، وأمناً يملأ الأجواء والصدور، فأزال بقايا الخوف، وطهر به القلوب المؤمنة.

نزل جبريل بقوله الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾. والشوكة هي جيش قريش، وغير ذات الشوكة هي القافلة.

---

(١) الذمام: الحرمة أي نحن غير مسئولين عنك حتى تسكن في مدينتنا.

(٢) هاجم المدينة.

(٣) هو جزء من حديث ابن إسحاق الطويل وله شاهد عند ابن مردوديه (سيرة ابن كثير ٢/٣٩٥). من طريق محمد بن عمرو ابن علقمة عن أبيه عن جده وجده ولد في عهد رسول الله ﷺ وروايته عن الصحابة أما عمرو فهو حسن الحديث في الشواهد والمتابعات.

أخـــذ ﷺ تلك الآيات ونادى رفقة الدرب والإيمان، وقال لهم: (ســـيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين.. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم غداً)[1].

قال أحد الأنصار وهو أبو أيوب الأنصاري: (فلما وعدنا إحدى الطائفتين، إما القوم وإما العير، طابت أنفســـنا)[2]وطاب المســـير إلى بدر (فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشـــركين إلى بدر)[3] ونزل المسلمون بالعدوة الدنيا، أي بحافة الوادي من جهة المدينة (وجاء المشـــركون فقال رســـول الله ﷺ: لا يتقدمن أحد منكم إلى شـــيء حتى أكون أنا دونه)[4] وأقبل المشـــركون من هناك.. من الجهة الأخرى المســـماة بالعدوة القصوى، أي حافة الوادي البعيدة.. البعيدة عن المدينة جهة مكة وكان ذلك في:

١٦/٩/٢هـ

في الســـادس عشـــر من شهر رمضان بنى الصحابة لرســـول الله ﷺ قبة.. هي أشبه بغرفة عمليات المعركة، كان ﷺ يصلي فيها ويدعو، ويوجه ويبشر، وكان أبو بكر معه فيها.

يقـــول أحد الصحابـــة: (إن النبي ﷺ قال وهو في «قبة له» يـــوم بدر: اللهم إني أنشـــدك عهدك ووعدك، اللهم «إن شـــئت لم تعبد بعد اليوم أبداً» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك، حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك -وهو في الدرع-.

فخرج وهو يقول: ســـيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الســـاعة موعدهم والســـاعة أدهى وأمر)[5]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ســـنده قوي. رواه الطبراني ٤-٢٠٩ من طريق ابن لهيعة ورواه من الطريق نفسه الطبري ٦-١٨٦ والراوي عند الطبري هو ابن المبارك فصح بذلك هذا الجزء من الســـند: وشـــيخ ابـــن لهيعة، يزيد بن أبي حبيب ثقة التقريب ٦٠٠ وقد رواه عن التابعي الثقة: أســـلم بن يزيد التجيبي (التقريب ١٠٤ وأسلم رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٤) حديث صحيح. رواه مسلم.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٧٥-٤٨٧٧).

خــرج ﷺ مــن القبة، وخرج وراءه أبــو بكر، وخرجت معهما البشــرى العظيمة: ســيهزم الجمع ويولون الدبر، وصار ﷺ يتمشــى ويشير، ثم يمشي ويشير، وإذا أشار إلى موضع من الأرض تكلم، ولهج بالبشرى للجميع.. لقد كان يشير بيده ويتحدث إلى من معه وحياً، فإلى أي شيء كان يشير، وعن أي شيء كان يتحدث؟

مصارع القوم

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ ليخبرنا عن مصارع القوم بالأمس: هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً، هذا مصرع فلان إن شاء الله غداً)[١].

ويتحدث أنس بن مالك عن تلك المواقع فيقول: (قال رســول الله ﷺ: هذا مصرع فلان غداً. ووضع يده على الأرض. وهذا مصرع فلان. ووضع يده على الأرض. وهذا مصــرع فلان. ووضع يده علــى الأرض)[٢] وكأنه يضه يده علــى مواضع الحماس في القلوب المؤمنة ليفجرها.

لقد ملأت هذه البشــرى المؤمنين حماساً ونشاطاً، وأيقنوا بنصر يشرق عليهم مع صباح الغد إن شــاء الله، فقضوا يومهم ذلك همةً وحركةً.. يســتعدون وينفذون أوامر قائدهــم ﷺ، ويدعــون ربهم نصراً طــال انتظاره، ويرجونه الظفــر في هذه الحرب التي قبعت في طريقهم دون موعد، حتى تنكســر شوكة الباطل، وترتفع راية التوحيد، وتتطاير فلول الشرك مع الرياح.

كان ذلك اليوم مليئاً بالدعاء والعمل والأحلام، وكان يوماً مرهقاً، وكانت ليلة مقمرة.. ليلة فرش فيها القمر بســاطاً للجميع، لكن القمر افتقد أحبابه إلا رسول الله ﷺ، فلقد خلدوا إلى نوم عميق بعد يوم شاق، كان العمل فيه مرهقاً.

يقول علي بن أبي طالب عن تلك الليلة: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما من أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة ويدعو حتى أصبح)[٣] أما الصحابة فنام

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم (الجنة) والبيهقي (٣/٤٨) واللفظ له.

(٢) سنده صحيح. رواه أبو داود ومن طريقه البيهقي ٣-٤٦: حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن ثابت عن أنس. موسى ثقة ثبت من رجالهما والبقية أئمة ثقات.

(٣) سنده صحيح مر معنا. رواه أحمد ١-١٢٥ وغيره عن شعبة أخبرنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي، وهؤلاء رجالهما عدا حارثة وهو تابعي ثقة التقريب ١٤٩.

بعضهم بعد أدائهم صلاة العشاء، ثم ناموا جميعاً، وعندما استيقظ علي رآهم نائمين جميعاً، وهاهم الواحد تلو الآخر يهبون من نومهم العميق بعد علي بن أبي طالب، فما الـــذي أيقظ علي وأيقظهم..؟ هل هو القمـــر..؟ هل هي الليل القمراء التي يحلو معها الحديث والسمر..؟ لا، فالقمر قد اختفى، والتعب أشد من أن يقاوم لكنه:

المطر..المطر

تآلف الســحاب وحجب القمر، وتســاقط المطر قطرات.. قطــرات، ثم ازدادت القطرات شــيئاً قليــلاً حتى تنبه الصحابــة.. فإذا المطر زخات.. زخات.. يغســلهم، ويخاطبهم القرآن كالمطر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾[١].

تحــرك الصحابــة يســتظلون مــن المطر، أما رســول اللــه ﷺ فلم يكــن نائماً ليستيقظ..

كان كمــا يصف علي رضي الله عنه: (أصابنــا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشــجر والحجف[٢] نستظل تحتها من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه عز وجل ويقول: اللهم إن تهلك هذه الفئة لا تعبد

فلما أن طلع الفجر نادى: الصلاة عباد الله

- الصلاة جامعة -

فجاء الناس من تحت الشــجر والحجف فصلى بنا رســول الله ﷺ وحرض على القتال)[٣] ثم احتضنت رسول الله ﷺ إغفاءة قصيرة رأى فيها:

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٢) الحجفة ترس من جلد.

(٣) سنده حسن. رواه الطبري التفسير ٦-١٩٣: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا مصعب بن المقدام، حدثنا إسرائيل، حدثنا أبو إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. وقد مر معنا، لكن الذي جعل السند حسناً هو أنه من رواية مصعب، وهو حسن الحديث من رجال مسلم. التقريب ٢-٢٥٢ وهارون الهمداني صدوق التقريب ٥٦٨.

بشرى ومنام

ربنا سبحانه يتحدث عن ذلك المنام القصير فيقول: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[١]..

أشـــرقت في وجوه الصحابة شـــمس جديدة، ويوم جديد، فتنفسوا هواءً منعشاً، وصباحـــاً طرياً بالصلاة والمطر.. الأرض أمامهم ســـاكنة ملبدة لا غبار فيها، والأجواء تملأ صدور المؤمنين حماساً وثقة بالله ووعده، ورسول الله ﷺ يحرضهم على القتال.. يشـــرع لهم أبواب الشـــهادة والجنة، ويجعل من أصحابه أحبابـــاً لله فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[٢].. والرسول ﷺ يحب أن يكونوا كذلك، لذلك نظمهم وجعلهم صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وصار يمشـــي بينهم يصفهـــم ويعدل صفهم، ثم قال لهـــم: (إن جمع قريش عند هـــذا الضلع الحمراء من الجبل)[٣].

جمع المشركين عند الجبل

بدأوا بالنهوض مثقلين، وصداع الخمر يرن في رؤوسهم.. بدأوا بالنهوض وقلوبهم شتى، وأفكارهم شـــاردة، والنظام عنهم شارد.. بعضهم كان لا يريد الخروج، والبعض يـــرى أن من الخطأ قتال أبنـــاء عمومتهم وإخوانهم وأبنائهم، وهنـاك من خرج أشـــراً وبطراً، وقد أغراه قلة عدد المؤمنين فضمن النصر واطمأن للنتيجة، و(لما اطمأن القوم بعثوا عمر بن وهب الجمحي فقالوا: أحرز لنا القوم من أصحاب محمد.

فاســـتجال حول العســـكر ثم رجع إليهـــم فقال: ثلاثمائة رجل يزيـــدون قليلاً، أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد.

فضرب في الوادي حتى أبعد فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما رأيت شيئاً، ولكن قد رأيت يا معشـــر قريش البلايا تحمـــل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٣.

(٢) سورة الصف.

(٣) رواه أحمد بسند صحيح وهو جزء من حديث علي الطويل الذي مر معنا.

ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم)[1].

سكت الجميع وهم يستمعون إلى هذا الوصف المرعب، وتسلل من بين هذا الحشد الصامت رجلٌ حكيم، واسمه أيضاً: حكيم.. (حكيم بن حزام) تأثر بكلام عمرو بن وهب الجمحي، وأحس بشيء خطير تحمله نواضح يثرب، (فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد.. إنك كبير قريش الليلة، وسيدها والمطاع فيها، [هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت][2]؟ هل لك ألا تزال تذكر منها بخير إلى آخر الدهر؟

قال: وماذا يا حكيم؟

قال: [إنكم لا تطلبون من محمد إلا دم ابن الحضرمي][3] ترجع بالناس، وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي.

قال عتبة: قد فعلت، [أنا أتحمل بديته][4] أنت علي بذلك إنما هو حليفي، فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأتِ ابن الحنظلية [يعني أبا جهل فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمك][5] فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره؟

ثم قام عتبة خطيباً فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه، أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون)[6].

---

(١) أثرٌ رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبري (٤٢/٢): حدثني إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار وهذا السند صحيح فوالده ثقة وقد سمع من بعض الصحابة (التقريب ٦٢/١) وهؤلاء الأشياخ ربما كانوا من الصحابة فإن كانوا كذلك فالسند متصل وللأثر شاهد يقويه أيضاً انظر ما بعده.

(٢) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٣) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٤) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٥) هذه الزوائد ليست عند الطبري (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢).

(٦) هذا الأثر هو بقية الأثر السابق (انظر ابن كثير ٤٠٧/٢ - السيرة) وشاهده عند الطبري عن حكيم بن حزام، وفيه ضعف ليس بالشديد. (٤٤٣/٢).

كان عتبة بعيد النظر.. خائفاً من مصير قومه الأسود الذي يقودهم إليه رجل طائش حاقد هو أبو جهل.. كان عتبة على جمله الأحمر يدور بين المشركين.. يحاول ثنيهم عن عزمهم، فهو يرى الموت سهاماً في نظرات أصحاب محمد ﷺ، ويرى العار في قتل أبناء العم وقتالهم.. كان عتبة على تلك الحال يناشد، ويمشي ويناشد، ويحاول حقن دماءٍ توشك أن تُسفح على جنبات بدر.. يحاول ردم مقابر ومآسٍ كالهاوية. لا بد أن أمية بن خلف كان في تلك اللحظات يستمع إليه، ويستبشر به، ويحتفي بكلماته وقلبه يرقص طرباً بما يقول، ولسان حاله يقول: لله درك يا أبا الوليد.. كم أنت رائع، فأنت تنقذني من موت ينتظرني.. موت وعدني به محمد.

لم يكن من حول عتبة فقط هم الذين يثنون على رأيه.. رسول الله ﷺ كان يراقبه من بعيد.. من الجهة الأخرى كان ينظر إليه، ولم يعرف من هو حتى الآن، لكنه أدرك من حركاته أنها حركات رجلٍ نصوح مشفق على قومه. (نظر رسول الله ﷺ إلى عتبة وهو على جمل أحمر فقال: إن يكن عند أحد من القوم خير فهو عند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يرشدوا - وهو يقول: يا قوم أطيعوني في هؤلاء القوم، فإنكم إن فعلتم لم يزل ذلك في قلوبكم، ينظر كل رجل إلى قاتل أخيه، وقاتل أبيه، فاجعلوا جبنها برأسي وارجعوا)(١). كان عتبة يريد أن يتحمل عارها وشنارها، ويجنب قومه جحيم الحرب ونارها.

أراد ﷺ أن يعرف من هو صاحب الجمل الأحمر (فقال النبي ﷺ للزبير: ناد بعض أصحابك، فسله من صاحب الجمل الأحمر؟ قالوا: عتبة ابن ربيعة، وهو ينهى عن القتال وهو يقول: يا قوم إني أرى قوماً مستميتين، والله ما أظن أن تصلوا إليهم حتى تهلكوا)(٢).

---

(١) سنده جيد وهو صحيح بالشواهد. رواه البزار ٢-٣١٣ - زوائد. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم، عن أخيه يزيد بن حازم، عن عكرمة عن ابن عباس: يزيد ثقة متقن وشيخه ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منها فشيخه هنا هو أخوه يزيد وهو ثقة (التقريب ٦٠٦ و١٣٨ و٦٠٠ وعكرمة غني عن التعريف. وللحديث شواهد.

(٢) سنده صحيح. رواه البزار (٢/٣١١) بالسند الذي مر معنا كثيراً وهو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي. وتلميذ إسرائيل هو عثمان بن عمر العبدي: ثقة. (التقريب ٢/١٣) وتلميذه الثقة الثبت: محمد ابن المثنى المعروف بـ (الزمن) (التهذيب ٩/٤٢٥).

والتفت ﷺ فرأى عمه حمزة في موقع قريب من المشـــركين فأراد أن يتحقق من قول أصحاب الزبير ويتأكد: (فقال رسول الله ﷺ: يا علي، ناد لي حمزة -وكان أقربهم من المشركين- منْ صاحب الجمل الأحمر؟ وماذا يقول لهم؟

فجـــاء حمـــزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عـــن القتال ويقول لهم: يا قوم إني أرى قوماً مســـتميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم، اعصبوها اليوم برأسي وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم)[1].

كان عتبة يثير الحســـرات والزفرات، فابنته هند زوجة أبي سفيان تحبه وتخشى عليه، أما ابنه الوليد وأخوه شيبة فكانا رهن إشارته، لكن أين ابنه الآخر؟

حسرة على عتبة

كان عتبة فوق جمله الأحمر يثير إعجاب النبي ﷺ برأيه الســـديد، لكنه كان يثير حســـرة لدى أحد الشباب المؤمنين خلف رســـول الله ﷺ.. كأني بهذا الشاب يتطاول، ويتطاول ليحظى بنظرة أخيرة لصاحب هذا الجمل الأحمر.. كأني به يرفع رأسه ليراه، فيتحرك قلبه نحوه بالأسى والحزن، والذكريات الحلوة المريرة. فعندما كان هذا الشاب طفـــلاً كان صاحب الجمل الأحمر يحمله ويداعبه.. كان يســـير معه في طرقات مكة وكان يكسوه أحسن الثياب، ويطعمه أطيب الطعام.. كم مرة قبله، وكم مرة عانقه، وكم مرة تعثر فحمله، وبكى فأســـكته بما يرضيه، ومرض فبحث له عمن يداويه.. ذكريات حلوة ومريرة، فمن يكون هذا الشاب، وما صلته بهذا الشيخ الكبير؟

إنـــه: أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهذا الشـــيخ هو أبـــوه الذي رباه ورعاه وحنا عليـــه، وهو اليوم عدوه.. والده اليوم أعقل وأحكم من في معســـكر قريش، فأين تلك الحكمـــة، وأين هـــذا العقل قبل اليـــوم؟! أين الحكمة في الخروج مـــن أجل أصنام لا تســـتطيع الحراك من أماكنها؟ أين الحكمة في عبادة حجر أو خشبة تفتقر إلى أبسط صفات السيادة، ألا وهي إصدار الأمر أو النهي..؟!!

---

(١) حديث صحيح مر معنا. رواه أحمد بالسند السابق.

كان هذا الشاب يتحسر على أبيه، مثلما تحسر علي بن أبي طالب على أبيه، وهو يشــاهد رجاءات النبي ﷺ تتحطم على صخرة العناد في قلب أبي طالب، ليموت أبو طالب وهو كتلة من العناد، وهاهي الصورة تتكرر على أرض بدر.

كان عتبة خائفاً أشــد الخوف على مجد قريش أن يدفن في هذا الصباح الممطر الجميل.. عتبة يرى الموت يطل عليهم من فوق الجبال.. يرى الموت في السحاب، وفوق نواضح يثرب، لذلك أرســل حكيم بن حزام إلى أبي جهل لعله يتراجع عن غيه. أرســل حكيم بن حزام إلى أبي جهل ليعرف رأيه فهو صاحب شر مستطير، وعقل صغير. أبو جهل ســفيه متهور.. قد يثير الفتنة والمشاكل بين جيش قريش نفسه، فيكونون غنيمةً ســهلةً لمحمد وأصحابه.. غنيمة أســهل من قافلة أبي سفيان، فلا بد من كلمة واحدة، ورأي واحد ولو كان مراً.

توجه حكيم كما طلب منه عتبة، ليروي ما حدث فيقول: (فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً فهو يهنئها[1] فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا؟ فقال: انتفخ والله ســحره حين رأى محمــداً وأصحابه، فلا والله لا نرجع حتــى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه رأى محمداً وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه، فقد تخوفكم عليه)[2]. كان أبو جهل يســتخدم العواطف.. يثيرها.. يفجرها فتنةً.. يفجرها ثارات وســيوفاً، وهاهــو يقلب الحقائق.. يجعل من رأي عتبة العاقل جبناً، وخوفاً على ابنه أبي حذيفة الذي بين صفوف المؤمنين. ويبرر هذا الرأي الساقط بأن عتبة يرى أن محمداً ﷺ وأصحابه.. لا يأخذون من المشركين جهداً أكثر من جهدهم في تناول وجبة من الطعام قد طبخ فيها جمل من الجمال.

إنه يرى المســلمين جزوراً شهياً قد قدم على مائدة بدر، وقد حان موعد التهامه، وابن عتبة لقمة في هذه الوجبة الشــهية، وقد خشــي عتبة على ابنه من أفواه قريش وسيوفهم المتلمظة المتعطشة.

---

(١) أي يصلحها ويهيئها ويطليها بعكر الزيت.

(٢) أثر حســن. رواه ابن إســحاق ومن طريقه الطبري (٢/٤٤٤) وهو حديث طويل ضعيف عدا ما كان له من الشواهد ما يقويه كهذا الجزء الذي يشهد له ما عند البزار التالي.

أبـــو جهل يقول: (انتفخ والله ســـحره حـــين رأى محمداً وأصحابـــه، إنما محمد وأصحابـــه كأكلة جـــزور لو قد التقينا)[١] ويفقد أمية بن خلـــف آخر آماله في الحياة، فلقد تحرك ابن الحنظلية البغيض مفتشاً عن إثارة أكثر لهذه القلوب السوداء، ومفتشاً عن جمر يلقيه في تلك النفوس كي تتحرق للثأر. أرسل إلى عامر بن الحضرمي الذي يتحرق للأخذ بثأر عمر بن الحضرمي الذي قتلته سرية (نخلة) السابقة.

أرســـل أبو جهل المزيد من الجمر ليلقيه في صدر عامر المتلهف للثأر.. (بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع الناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك ومقتل أخيك. فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ثم صرخ:

واعمراه..

واعمراه..

فحميت الحرب، وحقب أمر الناس، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد علـــى النـــاس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلما بلغ عتبـــة قول أبي جهل: انتفخ والله سحره. قال: سيعلم مصفر أسته من انتفخ سحره أنا أم هو)[٢].

لـــم يكتف أبو جهل ببلوغ صراخه إلى عتبـــة.. لقد تحرك الطاغوت نحو عتبة بن ربيعة لاســـتفزازه، ليوظفه باتجاه شـــقهُ أبو جهلٍ، ليحوله من نقطة ضعف وســـكينة، إلـــى بـــركان تتفجر منه المعركة حالاً.. توجه أبو جهل إلـــى عتبة صارخاً بوجهه: (أنت تقـــول ذلك! والله لو غيرك يقولـــه لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفـــك رعباً)[٣] فثار عتبة وانفجر في وجه أبي جهل قائلاً: (إياي تعير يا مصفر أســـته؟ ســـتعلم اليوم أينا الجبـــان)[٤] (ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأســـه، فما وجد في الجيش بيضة[٥] تسعه من عظم رأسه، فلما رأى ذلك اعتجر[٦] على رأسه ببردٍ له)[٧].

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث البزار السابق (٢/٣١٣ - الزوائد).
(٢) جزء من حديث ابن إسحاق السابق القوي. ومصفر أسته: الذي يُخرج الريح من الجبن.
(٣) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٤) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٥) الخوذة التي توضع على الرأس في الحروب.
(٦) لف البرد على رأسه كالعمامة... والبرد قماش يلتحف به.
(٧) جزء من أثر ابن إسحاق السابق وهو حسن.

نجـح أبو جهل بتحريضـه لغضب عتبة، فأوصلـه إلى حالة شـديدة من التوتر والتهـور، وأفلح الطاغوت فـي إثارة حمية أخيه وابنه (فبرز عتبة وأخوه شـيبة وابنه الوليد حمية)[١] يريدون الحرب.

سمع المسلمون ذلك الضجيج فتزينوا للجنة، وتوجه النبي ﷺ إلى جبار السموات والأرض يناشـده ويناشده، ويستمطره رحمةً ونصراً. فنظر إليه أبو بكر الصديق فرق لحاله، وأشفق عليه، ثم تحرك نحوه بكل رفق، والتف حوله وضمه ضمةً لا يجرؤ عليها إلا أبو بكر، فمشاعر أبي بكر لا يعبر عنها إلا أبو بكر.

فكم أبكى ذلك المشهد من الصحابة عندما (نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشـركين فإذا هم ألف وزيادة، فاسـتقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال:

اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً.

فما زال يسـتغيث بربـه ويدعوه حتى سـقط رداؤه، فأتاه أبو بكـر فأخذ رداءه فـرده -ألقاه على منكبيـه[٢]- ثم التزمه مـن ورائه، ثم قال: كفاك يـا نبي الله بأبي وأمي[٣]مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[٤].

لقـد فعل ﷺ كلما يمكنه فعله.. فعل الأسـباب كلها، ثم توجه إلى الله يناشـده ويدعوه. هذا هو التوكل الصحيح الذي رسمه لأتباعه:

فعل السبب، ولكن جعل النتائج على الله

فعل ﷺ ذلك كله وما زال يفعل:

شاور المهاجرين والأنصار قبل الانطلاق.

---

(١) حديث صحيح. وهو جزء من حديث الإمام أحمد وقد مر معنا.
(٢) لفظ مسلم.
(٣) لفظ ابن جرير.
(٤) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٨٣ وغيره.

ثم قطع الأجراس من أعناق الإبل إمعاناً في السرية.

رفض أن ينتظر أي شخص لم يكن جاهزاً.

أبقى هدف المسير سراً عند انطلاقه.

رفض أن يصحبه أي مشرك حتى ولو كان صادقاً ذا حمية وشهامة.

سمح للقادرين على القتال فقط بمصاحبته.

أمرهم بالتعاقب على الرواحل حتى يهون عليهم المسير قليلاً وهو ليس بهين.

استطاع أن يعرف عدد الخارجين للقتال من قريش.

استشار أصحابه في المضي أو العودة فوافقوا على المضي.

سبق ﷺ المشركين إلى العدوة الدنيا حيث الماء الآبار.

بنى المسلمون لهم حوضاً يشربون منه أثناء المعركة.

وبعد ذلك وقبله توجه إلى الله يناشده ويدعوه.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ لما أصبح ببدر من الغد أحيى تلك الليلة كلها وهو مسافر)[١]، والسفر إرهاق ومشقة، ومع ذلك يقول علي: (لقد رأيتنا ليلة بدر وما منا أحد إلا وهو نائم، إلا رسول الله ﷺ فإنه يصلي إلى شجرة، ويدعو حتى أصبح)[٢].

عمل ودعاء.. هذا هو منهج نبي الله ﷺ، وهذا هو توكله على الله، وبعد الدعاء بدأ العمل من جديد، فالصحابة قليلون، ولا بد من خطة محكمة، وتطبيق صارم كالسيف، فالخطأ يكلف كثيراً، وعدم تنفيذ الأوامر كارثة، فالمعركة تحتاج إلى كل الجهود.. تحتاج

---

(١) سنده حسن مر معنا كثيراً. رواه أبو يعلى ومن طريقه ابن حبان (موارد ٤٠٩): حدثنا الأزرق ابن علي أبو الجهم، حدثنا حسان بن إبراهيم، حدثنا يوسف بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي. الأزرق صدوق وشيخه حسن الحديث من رجال الشيخين التقريب ٩٧ و١٥٧ ويوسف حفيد أبي إسحاق ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح مر معنا.

للجميـع دون اسـتثناء، وفـي أمسّ الحاجة تلـك، وفي أحرج الظـروف وأصعبها يصل صحابي ووالده للمشاركة مع نبيهم ﷺ، ومع ذلك يرفض ﷺ مشاركتهما.. رغم صدقهما وإخلاصهما، وتحملهما المشاق في السير نحوه. ذلك الصحابي هو حذيفة بن اليمان.

لماذا يرفض ﷺ مشاركة حذيفة ووالده؟

سـؤال بحجم المعركة، والإجابة بحجم محمد ﷺ. ليس هناك أزمة ثقة بحذيفة، بل إن حذيفة فوق الشبهات، كيف لا وقد سلمه الرسول ﷺ يوماً قائمة سرية بالأسماء والأحداث التي سيفصح عنها التاريخ..؟ سلمها ﷺ لأمانة حذيفة وأعماقه.

الأمر هنا لا يتعلق بالثقة.. الأمر يتعلق بالرسول ﷺ وبالقادة الإسلاميين والدعاة مـن بعده. حذيفة مر من هناك.. هناك حيث صادفه المشـركون هو ووالده حسـيل. سـألنا حذيفة عن أمر يسـتطيع إخبارنا به.. إنه ليس سراً: ما الذي منعك يا حذيفة من المشاركة في غزوة بدر؟

فيجيب حذيفة رضي الله عنه قائلاً: (ما منعني أن أشـهد بدراً، إلا أنني خرجت أنا وأبي (حسـيل) فأخذنا كفار قريش، فقالـوا: إنكم تريدون محمداً. فقلنا: ما نريد إلا المدينة.

فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرف إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسـول الله ﷺ فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[1].

إنهـا إجابة بحجـم محمد ﷺ، والتزام أعيـى من يهتبلون ثمـاراً ناضجة وغير ناضجـة.. أعيى زعمـاء ودعاة ذوي نظرة آنيـة.. لا يرون إلا ما أمامهـم: (نفي لهم بعهدهم)[2] وهم المشـركون الذين يعبدون الأصنام، ويحاربون الله ورسوله، وما خرجوا إلا لطمس التوحيد وسفك دماء الموحدين.. خرجوا لذبح نبي الإسلام، وتدمير دولته، ومع ذلك (نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم)[3].

---

(١) سنده حسن رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦٣: حدثنا أبو أسامة، عن الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيل، حدثنا حذيفة بن اليمان. الوليد تابعي حسـن الحديث ومن رجال مسـلم التقريب ٥٨٢ وتلميذه حماد بن أسامة ثقة ثبت التهذيب ٣-٢ وأبو الطفيل صحابي.

(٢) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح وهو الحديث السابق.

ما أعظم هذا الدين وأنقاه وأرقاه.. ياله من تحضر وسمو غير مسبوق. إذا كان هذا هو حجم الاحترام للعلاقة - العهد مع الأعداء، فكم هو حجمه بين المسلم وأخيه؟!!

سؤال عرف الإجابة عليه حذيفة ووالده ووعياه، فودع النبي ﷺ صاحبيه وانصرفا وهما ثقيلان لا يطيقان ذلك الوداع.

تَوَجَّهــا والحزن إلى المدينة، وتوجه ﷺ إلــى صحابته بعد هذا الدرس الذي تغلغل في أعماقهم، وسرى في دمائهم، وعاد ﷺ إلى العمل من جديد، فجعل ﷺ لجيشه رايةً ولــواءً، والرايــة هي (علم الجيش) واللواء أصغر منها و(كانت رايته ﷺ ســوداء، ولواؤه أبيض)[1] .. رايته (كانت سوداء مربعة من نمرة[2][3]. وتحت هذه الراية نظم ﷺ أصحابه صفوفــاً أو صفاً، لأن الله يحب ذلــك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾[4] بنيان متماسك وقوي، ولذلك فإن رسول الله ﷺ لما رأى خللاً في الصف سارع إلى تقويمه.

يحدثنــا أبو أيوب الأنصاري عن ذلك فيقــول: (صففنا يوم بدر فندرت منا نادرة أمام الصف، فنظر رســول الله ﷺ إليهم فقال: معي، معي)[5] وجعل جزءاً منهم خلف الصفوف، وفي أماكن مناســبة تمكنهم من مراقبة تحركات الأعداء، وتقديم المعلومات لرسول الله ﷺ، وكان من بين هؤلاء ذلك الغلام الذي يدعى: (حارثة بن سراقة) وهو أنصاري من بني النجار، وقد أدرك ﷺ أن هذه القلة المؤمنة تحتاج إلى شــعار يعرف بعضهم بعضاً به إذا حمي الوطيس، والتحمت السيوف بالأعناق والرؤوس فكان:

---

(١) حديث حسن. صحيح ابن ماجة (٢/١٣٣).

(٢) بردة من صوف.

(٣) حديث صحيح. صحيح أبي داود (٢/٤٩١) عدا قوله: مربعة.

(٤) سورة الصف.

(٥) ســنده قوي. رواه أحمد (٥/٤٢٠) من طريق موســى بن داود وعبد الله بن المبارك حدثنا.. وأخبرنا ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب أن أسلم أبا عمران التجيبي حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول:... وهذا الســند قد خلا من علة اختلاط ابن لهيعة لأن أحد تلميذيه هو ابن المبارك.. وشــيخه يزيد بن أبي حبيب المصري ثقة فقيه من رجال الشيخين (التقريب ٢/٣٦٣) وقد سمع من التابعي المصري الثقة أسلم ابن يزيد التجيبي (التقريب ١/٦٤).

الصوف الأبيض شعاراً للمسلمين

قال علي بن أبي طالب: (كان سِيِّمَا أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: الصوف الأبيض)(١).

وقد كان لبعض الصحابة علامات يعرفون بها، فحمزة مثلاً (معلم بريشة نعامة في صدره)(٢) كان أسداً عليه ريش النعام.

أما الزبير فعلامته يحدثنا بنفسه عنها فيقول: (كان على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجراً بها)(٣) ولهذه العمامة الصفراء أصداء في السماء تنتظر النزول سنعرفها بعد قليل، وسنعرف معها علامتين لا يراهما أحد.. علامة لأبي بكر، وعلامة لعلي رضي الله عنهم أجمعين، ولكن قبل ذلك كان هناك علامة للجميع.. علامة في العيون والنفوس.. علامة غشيت المؤمنين كلهم إنها:

النعاس وشيء آخر

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾(٤) لقد ألقى الله النعاس على المؤمنين أمناً منه وسلاماً، وثقة بنصر الله، كما بث في نفوسهم شيئاً جعلهم يتحفزون للقتال (لقد شجع الله المسلمين على لقاء عدوهم، وقللهم في أعينهم حتى طمعوا فيهم)(٥).

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٥٤ بالسند الصحيح الذي مر معنا كثيراً: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة عن علي.. وشيخه وكيع بن الجراح إمام ثقة.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند وغيره عنه: حدثني عبد الواحد بن أبي عوف، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن عوف. عبد الواحد ثقة وليس كما قال الحافظ صدوق يخطئ. راجع تعليقي على التقريب، وسعد ووالده تابعيان ثقتان من رجالهما.

(٣) سنده صحيح رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٦١ من طريقين أحدهما: حدثنا عبدة، عن هشام، عن عباد بن حمزة عن الزبير، وعبدة بن سليمان ثقة ثبت التقريب ٣٦٩ وهشام ثقة مر معنا كثيراً، وشيخه تابعي ثقة وروايته عن أسماء وعائشة وجابر ووالده وللحديث شواهد.

(٤) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٥) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الأموي (سيرة ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثني الزهري عن عبد الله ابن ثعلبة بن صعير. الزهري تابعي ثقة معروف وشيخه صحابي.

كان الصحابة مزيجاً من التحفز والنعاس الغريب، وكان الوحي يتنزل على الملائكة أن يهبطوا إلى أرض المعركة لتثبيت المؤمنين، حيث يقول سبحانه: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [1]. لكن أين الملائكة؟ بل أين رسول الله ﷺ في هذه اللحظات الحرجة، التي بدأت فيها أصوات المشركين بالارتفاع والشجار من أجل المعركة؟ أين رسول الله فهو ليس بين الصفوف، وليس مع النظار وليس عند الحوض؟

أين رسول الله وأين الملائكة

لقد ذهب قبل قليل إلى العريش، وتبعه أبو بكر.. إنه الآن داخل العريش، وهو يعاني حالة من النعاس، ورأسه يخفق..

هاهو لقد أفاق من نعاسه، وخرج والبشرى تحمله ويحملها.. إنه يبشر صاحبه أبا بكر بشيء مفرح فما هو؟!

يقول أحد الصحابة: (خفق[2] رسول الله ﷺ خفقة في العريش، ثم انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل معتجر بعمامته آخذ بعنان فرسه يقوده، على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وعدته)[3] (هذا جبريل آخذ رأس فرسه عليه أداة الحرب)[4] هبط جبريل مُعْتَمّاً.. ما لون عمامته، وهل هبط لوحده؟

سنعرف بعد قليل، فرسول الله ﷺ يتجه مبشراً أصحابه بما حدث، ومحرضاً شجاعتهم للتضحية بأرواحهم في سبيل الله. إنه يحدثهم.. يوقظ فرحهم بالجنة والشهادة، لقد (خرج ﷺ إلى الناس فحرضهم)[5] وعندما يحرض رسول الله ﷺ لا يقول إلا حقاً، وإذا قال.. تحرك الجميع من حوله.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) حرك رأسه وهو ناعس.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقة الأموي (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٤): حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير.. وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من شيخه التابعي الثقة، وعبد الله بن ثعلبة صحابي.

(٤) حديث صحيح. رواه البخاري.

(٥) رواه ابن إسحاق وهو جزء من حديثه الطويل وهو ضعيف إلا ما كان له ما يقويه. كهذه العبارة عند أحمد وسندها صحيح وقد مر معنا (سيرة ابن كثير ٢-٤٢٢).

يقول ﷺ وهو يتحدث عن الصفوف: (قيام ساعةٍ في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة)[1] و(الشهداء الذين يقاتلون في سبيل الله في الصف الأول، ولا يلتفتون بوجوههم حتى يقتلوا، فأولئك يلقون في الغرف العلا من الجنة، يضحك إليهم ربك، إن الله تعالى إذا ضحك إلى عبده المؤمن فلا حساب عليه)[2].

ويقول ﷺ: (موقف ساعة في سبيل الله خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود)[3] وإن (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين من أهل بيته)[4].

إذا فهي الرحلة للنصر في الدنيا والتمكين لدين خالق هذه الدنيا، أو السفر العاجل إلى الجنة.. لا العودة إلى تلك الصفة أو بيوت الحجر والطين، بل السفر إلى قصور بحجم الأحياء والمدن.. قصور ليست من الحجارة أو الطين أو القش، بل من الذهب أو الفضة أو المرجان، أو اللؤلؤ أو الياقوت، أو الألماس، ليس فيها دورات للمياه، فأهل الجنة و(أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك)[5].

إذا كانوا بهذا الجمال، وأجسادهم بهذه النضارة، ولا إفرازات مؤذية لتلك الأجساد، ولا روائح منتنة أو كريهة تنبعث منهم، وإذا كان عرقهم ورائحة آباطهم أرقى من كل أنواع العطور الدنيوية، فلك أن تحلق في الخيال حتى تتعب، كي تصف حبيباتهم المؤمنات، وفتنتهن التي لو بدى شيئا منها لذهل رجال الأرض صالحهم وفاسدهم.. إنها الجنة، حيث السيارات والطائرات واليخوت في منتهى الروعة وجمال التصميم والرفاهية.. ليست حكراً على أحد، وليست لأناس دون ناس.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-٨١٥).
(٢) حديث صحيح. المصدر السابق (١-٦٩٥).
(٣) حديث صحيح. المصدر السابق (٢-١١٢٧).
(٤) حديث صحيح. السابق (٢-٩٢٠).
(٥) صحيح البخاري ٣-١٢١٠.

إنها الجنة حيث لا أمراض ولا قبح ولا ترهل ولا شيخوخة ولا ملل، ولا حسد ولا كراهية، ولا شرك ولا جهل ولا تخلف ولا حروب ولا دمار ولا خوف من القادم والمجهول، بل اقتحام لا ينقطع ولا يتوقف للجديد والجميل والرائع والمثير، واكتشاف متواصل، وأجمل ما فيها رؤية الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى.

إن من يسمع كلمات النبي عليه السلام، ليهون أمامه الموت والفناء، بل إن الموت يهون ويسهل للشهيد حقاً، فالموت يداعب الشهداء مداعبةً.. بشر بذلك رسول الله ﷺ فقال: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)(١).

إن من يستمع إلى هذه الأحاديث وهو على سريره سيبحث عن أي معركة يكون فيها شهيداً، فكيف لو سمعها رجل يحمل سلاحه وسط الصفوف. بل كيف إذا سمعها من يرى زخات المدد من السماء.. يبشر بها رسول الله ﷺ أصحابه، ويبشر بها الله فيقول سبحانه: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾(٢) وكانوا خير مدد، وكانوا خير الملائكة.

هذا كبيرهم: جبريل عليه الصلاة والسلام يصفهم بنفسه، فقد (سأل جبريل النبي ﷺ: كيف أهل بدر فيكم؟ قال ﷺ: خيارنا.

قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم خيار الملائكة)(٣).

أما كبار الملائكة: ميكائيل وإسرافيل، فقد كان في نزولهم تكريماً لأبي بكر الصديق، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فلقد (قيل لأبي بكر الصديق وعلي يوم بدر: مع أحدكما جبريل، ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم، يشهد القتال، أو يقف في الصف [ولا يقاتل](٤).

---

(١) حديث صحيح. السابق (١-٦٩٦).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٢٤.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٣) والبيهقي (٣/١٥١) واللفظ له.

(٤) سنده صحيح. رواه ابن أبي شيبة واللفظ له عدا ما بين المعقوفين ٧-٣٥٣ والبيهقي ٣-٥٥ وأحمد والبزار (الزوائد ٢-٣١٤) من طرق عن مسعر بن كدام الهلالي وهو ثقة ثبت فاضل (التقريب ٢/١٨٧) عن شيخه أبي عون الثقفي وهو ثقة من رجال الشيخين (التقريب ٢/١٨٧) عن شيخه التابعي الثقة أبي صالح عبد الرحمن بن قيس الحنفي (التقريب ١/٤٩٥).

لقد ثارت المعارك في نفوس الصحابة، واستعر لهيبها في دمائهم، فقال ﷺ لهم قولاً ينظم حماسهم وتوثبهم، ويسدد رميهم وسيوفهم.. قولاً يفتك بأعدائهم.

ها هو أحدهم أبو أسيد الساعدي ممتلئاً بالحماس والتوثب، سألناه: ماذا قال لكم نبينا يا أبا أسيد الساعدي فقد كنت بين الصفوف؟

فقال رضي الله عنه: (قال رسول الله ﷺ حين اصطففنا يوم بدرٍ: إذا أكثبوكم - يعني إذا غشوكم - فارموهم بالنبل، واستبقوا نبلكم)[1].

يكاد الصبر يفتك بالصف المؤمن.. ذلك الصف المرصوص كالبنيان، إلا لبنة قويةً كانت تتململ.. تشعر بالحرج.

إنه عبد الرحمن بن عوف، فما الذي جرى له؟ ولماذا يشعر بالإحراج وكأنه يريد أن يغير مكانه؟

عبد الرحمن بن عوف يتمنى مكاناً آخر

أيتمنى ابن عوف أنه كان في بيته، حتى لا يقاتل عشيرته وأبناء عمومته؟ أم هو خائف؟

الأمر ليس كذلك، فليست هذه طباع عبد الرحمن بن عوف، لكن القدر ساقه ليكون بين غلامين صغيرين في الصف.. كان ينظر يميناً فيرى غلاماً، وينظر عن يساره فيرى مثل ذلك. ماذا سيفعل ابن عوف؟ لم يمهله الغلامان، لقد بادراه بالهمس. كان همساً غريباً.. كان كل واحد منهما لا يريد أن يُسمع صاحبه ما يقول. ما قصة هذين الغلامين؟

سألنا عبد الرحمن بن عوف عما جرى له مع هذين الغلامين فقال: ([إني لواقف] يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما [سراً من صاحبه] فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣-٧٠) وغيرهم.

أنه يسب رسول الله ﷺ، [عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه] والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك.

فغمزني الآخر فقال لي أيضاً [سراً من صاحبه] مثلها، [فما سرني أنني بين رجلين مكانهما]، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا إن هذا صاحبكما الذي سألتماني)[1]

سلَّ كل فتىً سيفه ليسبق صاحبه إليه، لكننا سنسبق الفتيان إلى أبي جهل. ها هو.. إنه يحرض الناس على القتال، بل إنه يفعل أمراً عظيماً طالما كفر به، إنه يدعو الله وحده.. إنه لا يدعو الأصنام.. لماذا؟

هل أسلم أبو جهل

هل أسلم في اللحظات الأخيرة؟ يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم [أينا كان] أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة، فكان المستفتح)[2].

لم يسلم أبو جهل.. كان يريد استدراج سذاجة قومه أكثر فأكثر للقتال..

كان لا يريد أن تقع كارثة، فزعامته لقريش مرهونة بهذه المعركة، وببقاء رسول الله ﷺ حياً.. كأني بأمية بن خلف يستمع إلى دعائه فيقول: لعنة الله عليك من أفاك..

وقد أنزل الله على نبيه آيات تبشر أبا جهل بما أراد فقال سبحانه: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] وأبو جهل ليس منهم.. إنه يحاول أن يكرس وهماً في نفوس أتباعه بأنهم على حق. لم يكتف أبو جهل بالاستفتاح والاستنصار من الله، لقد هرع إلى عتبة بن ربيعة ليسخر منه أمام الجميع، وليجعله أضحوكة وعبرة لمن يفكر بالتراجع عن الحرب مجرد تفكير.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١٤٤ والزوائد له أيضاً لكن في رواية أخرى.

(٢) رواه ابن إسحاق بسند صحيح ومن طريقه الإمام أحمد ٥-٤٣١: حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة ابن صعير. والزهري ثقة وشيخه صحابي والسند مر معنا من قبل.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٩.

وقف أبو جهل أمام عتبة (فقال: أنت تقول ذلك! والله لو غيرك يقول لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفك رعباً)[1]، فغضب عتبة من تلك الكلمات الجارحة، ونجح أبو جهل في إثارته، فأخذته العزة بالإثم، فالتفت إلى أبي جهل وقد احتقن من الغضب فقال له شيئاً يمرغ رجولته وزعامته.. قال عتبة لأبي جهل: (إياي تعني يا مصفر أسته. ستعلم اليوم أينا الجبان)[2] (ستعلم من الجبان المفسد لقومه، أما والله إني لأرى قوماً يضربونكم ضرباً، أما ترون؟ كأن رؤوسهم الأفاعي، وكأن وجوههم السيوف)[3].

تجمد الدم في عروق أمية، وأدرك أبو جهل أن حمزة في الطريق، وتهاوت معنويات الوثنيين، لكن عتبة أصر على الخروج ليغسل عار الجبن الذي سكبه عليه أبو جهل، ثم صاح بعد أن لف قطعة قماش على رأسه: يا شيبة بن ربيعة.. يا وليد بن عتبة، لقد (دعا أخاه وابنه فخرج يمشي بينهما)[4] (فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار مشببة)[5] (ثلاثة نفر: عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، ورجل آخر يقال له عبد الله بن رواحة. فقال: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. فقالوا: ما لنا بكم حاجة.

ثم نادى مناديهم: يا محمد أَخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا)[6] و(قال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن نبارز من بني عمنا من بني عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ:

(قم يا حمزة.. وقم يا علي.. وقم يا عبيدة)[7]

ثلاثة من بني عبد المطلب كأن وجوههم السيوف.. ثلاثة أقبلوا كأنهم الموت، فكان عتبة الضحية لحمزة هذا اليوم، فهوت حكمته وشجاعته، وشركه وعناده على أرض

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو جزء من حديث الإمام أحمد ١ - ١١٧.

(٢) هو جزء من الحديث الصحيح السابق ١ - ١١٧.

(٣) سنده صحيح. رواه البزار زوائد ٢-٣١٣. يزيد بن هارون أنبأنا جرير بن حازم عن عكرمة عن ابن عباس. جرير ثقة إذا روى عن غير قتادة، ويزيد ثقة وتلميذه شيخ البزار إبراهيم بن سعيد الجوهري ثقة التقريب ٦٠٦ و٨٩ وللحديث شواهد.

(٤) جزء من حديث البزار السابق وهو صحيح زوائد ٢-٣١٣.

(٥) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

(٦) جزء من حديث ابن إسحاق وهو حسن بحديث أحمد السابق.

(٧) جزء من حديث أحمد الصحيح وقد مر معنا ١ - ١١٧.

بدر، وهوى أخوه شيبة جثة هامدة تحت قدمي علي. لم يستغرقا وقتاً طويلاً أمام هذين الفارسين من بني عبد المطلب، لكن ماذا حدث لعبيدة بن الحارث رضي الله عنه.

عليٌّ يقص علينا ما حدث فيقول: (أقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كل واحدٍ منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه، واحتملنا عبيدة)[1]

ابتهج ﷺ بفرسانه، وفرح بانتصارهم، وتحمس المؤمنون جميعاً لعناق الموت، فرائحة الشهادة تعطر أجواء بدر.. تأجج حماسهم، وأيقنوا كما أيقن نبيهم ﷺ بالنصر، فصاح بأصحابه: (قوموا إلى جنة عرضها السموات الأرض)[2].

سمع أحد الصحابة -وهو الذي كان يحمل تمراً في جيبه- سمع ذكر الجنة فطار قلبه، وتوجه نحو رسول الله ﷺ كالفرح، ولما وقف أمامه قال: (يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال ﷺ: نعم.

قال: بخ.. بخ. فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قول بخ.. بخ؟ قال: لا والله يا رسول اللهً، إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال ﷺ: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن)[3].

ما هذا الرجل، ومن هو..؟ يبشره ﷺ بالجنة فيأكل تمراً..!! سنعرف بعد قليل، فلنعد إلى رسول الله ﷺ حيث لا تمر في كفيه، لكن كفه كانت مليئة بشيء غير التمر.. شيء لا يؤكل. فما هذا الشيء وماذا يريد أن يفعل به؟

لقد (أمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده، ثم خرج فاستقبل القوم، فقال:

شاهت الوجوه

ثم نفحهم بها، ثم قال لأصحابه: احملوا)[4] فانطلق الصحابة كالسهام.. كالموت، ونظر صاحب التمرات إلى تمراته، ثم قال: (لئن حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها

---

(١) سنده صحيح. رواه أبو داود ٢-٥٩ وغيره بسند إسرائيل عن أبي إسحاق... السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣- ١٥٠٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٥٠٩.

(٤) سنده قوي مر معنا رواه الأموي (ابن كثير ٢/٤٣٤) حدثنا أبي حدثنا ابن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير. الزهري ثقة وشيخه صحابي والأموي وولداه ثقتان.

لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل)[1] قتل شـهيداً رضي الله عنه وأرضاه.. هذا الشهيد أنصاريٌّ يدعى: عمير بن الحمام.

أما حمزة فقد شـق صفوف الوثنيين بسيفه.. يتسـاقطون أمامه واحداً واحداً. أحد الجبناء: أمية بن خلف كان ينظر إليه وينتفض، وينتفض السيف في يده، وتنتفض الريشـة التي زين بها حمزة صدره.. أميـة بن خلف كان يرتعد خوفاً ويقول لمن حوله: (ذاك الـذي فعل بنـا الأفاعيل) وهو لم يحدد من ذلك الشـخص بعد.. لم يعرف أنه حمزة بعد، وكان أحد ضحايا حمزة رجل من مشاهير قريش اسمه: (طعيمة بن عدي) وهو أخو الرجل الشهم (المطعم بن عدي).

ومن مـكان آخر انطلق عبد الرحمـن بن عوف، وانطلق الشـابان كقذيفتين من حوله.. يتسـابقان نحو رأس أبي جهل، لكن كيف والمشـركون كالشـجر الملتف حوله.. يحمونه من سـيوف المهاجرين والأنصار؟ أي سيف سيشق طريقاً نحو أبي جهل..؟ أي سيف سيجز ذلك الشجر الوثني الملتف حول أبي جهل..؟

الذين صنعـوا الأحداث يتحدثون. عبد الرحمن بن عوف يقول للغلامين وسـط الموت والسـيوف: (نظرت إلى أبي جهل وهو يجـول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكم الذي تسألان عنه [فأشـرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين] فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبي ﷺ فأخبراه فقال: أيكما قتله؟

قال كل منهما: أنا قتلته. قال ﷺ: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا.

فنظر النبي ﷺ في السيفين فقال: كلاهما قتله. وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والآخر معاذ بن عفراء)[2]

هذا ما حـدث باختصار، أما التفاصيل فعند من خاض سـيفه في تفاصيل أبي جهل.. التفاصيل عند معاذ بن عمرو بن الجموح، فبعد أن أشار عبد الرحمن بن عوف بيده إلى أبي جهل قال معاذ: (سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة[3] وهم يقولون:

---

(١) هو باقي حديث مسلم السابق.

(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٣٧٣ وما بين المعقوفين عند البخاري.

(٣) الشجر الملتف.

أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربةً أطنت[1] قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنــواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، وضربني ابنه عكرمة على عاتقــي فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضنــي[2] القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأســحبها من خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليهــا حتى طرحتها، ثم مــر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته وتركه وبه رمق)[3] فتركه يشقى بآخر أنفاسه.. تدوسه الأقدام وتدوس زعامته، ويكسوه التــراب الذي طالما نثره في وجوه الضعفاء والمســاكين. هوى الطاغية الشــرس الذي قضى أكثر من عشر سنين في محاربة الله ورسوله ﷺ.. قضاها في اضطهاد الفقراء، وقتل العجائز والمسنين من المؤمنين.. هوى هذا الكافر على يد شابين صغيرين اقتحما ثأراً لله ولرسوله وللمؤمنين، وخيم الموت على أبي جهل، والتهمت الصحراء ساقه.

خيمــة من الموت ضربها الشــابان الأنصاريــان عليه، فلم يبق منه ســوى عينين زائغتين.. تضعفان كلما سقط طاغوت آخر...

ها هو الطاغوت الآخر: عقبة بن أبي معيط يهوي إلى الأرض.. سقط سيفه، وسقط شــركه، لكنه لم يمت ما زال حياً.. إنه يرسف في قيوده، وأحد فرسان الإسلام يقتاده كذلٍ وديع.. يمر به على جثث رفاقه في اضطهاد محمد عليه السلام فيرتجف.

وهنا طاغوت ثالث يرتطم بالأرض.. يرتج عند ارتطامه.. إنه أمية بن خلف، وشحمه الذي يلف جسداً يتموج من الرعب، وبالقرب منه يسقط علي ويرتجف من الخوف.

أجل عليٌّ خائف جداً فســيفه ليس بيده، وهو يخشــى طعنة من هنا أو هناك، أو أن تدوسه الأقدام والحوافر، فما الذي أصاب علياً؟ ومن الذي أسقطه وكيف يرتجف من الخوف؟

---

(١) أطارت.

(٢) أي حال بينيه وبينه.

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق والبيهقي (٣/٨٤) حدثني ثور بن يزيد عن عكرمة عن ابن عباس. عكرمة تابعي ثقة وثور بن يزيد الحمصي ثقة ثبت. التقريب ١٣٥.

علي خائف من الموت

أما كيف.. فلا بد أن أحد فرسـان الإسـلام قد أسـقطه عن ظهـر دابته، وأما لماذا.. لماذا أسـقط ذلك الفارس علياً عن ظهر دابته. فالسـبب بسيط.. لقد أسقطه، لأنـه علي بن أمية بن خلف وليس علي بن أبـي طالب، فابن أبي طالب يصول ويجول كالأسد بين عجول الشرك.. يلتقي بمن شاء، ويُسقط ما شاء منهم.. أما علي بن أمية فهـو كالذبيحة قرب أبيه الجبان.. قرب أبيه الذي شـاهد الموت عدة مرات. لم ينفعه أبو جهل، ولا هبل، ولا بعيره الذي اشـتراه بأغلى الأثمان. فأبو جهل يتلبط في دمائه، وهبـل حجر تركه في مكة، وبعيره وبعير ابنه بـين غنائم المؤمنين، والموت قادم.. قادم يا أمية..

لكن أمية -فجأة- يشـعر أن الحياة قادمة.. إنه يـرى من خلال الموت فرجة إلى الحيـاة.. يحملها أحد المهاجرين.. يحملها عبد الرحمن بن عوف وهو شـاهر سـيفه يجندل به جنود الشرك، لكن أي أمل يحمله عبد الرحمن وسيفه يقطر دماً؟!

يبدو أن أمية بن خلف يحمل سـراً، فلقد تطلق وجهه واستبشـر عندما رأى عبد الرحمـن بن عوف، ويبـدو أن ابن عوف يحمل في ذاكرته المزيد عن تفاصيل ما حدث في بدر.

دعونا نسـتمع إلى عبد الرحمن بن عوف وهو يحكي سـر أمية، وآخر آمال أمية، فهو إن لم ينج الآن على يد صديقه ابن عوف فسوف ينتن على أرض بدر.

قصة أمية وعبد الرحمن بن عوف

كان أميـة وعبد الرحمن صديقين في الجاهليـة، وكان بينهما تعامل تجاري بعد الإسـلام، بل وبعـد الهجرة.. هذه العلاقـة تخللتها قصة مثيرة، بـدأت في مكة قبل الإسلام فمتى ستنتهي..؟

يحدثنا عن بدايتها وعن نهايتها عبد الرحمن بن عوف فيقول: (كان أمية بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسـمي عبد عمرو، فتسميت حين أسلمت: عبد الرحمن، فكان

يلقاني ونحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أرغبت عن اســم ســماك أبوك؟ فأقول: نعم هداني الله للإسلام، فتسميت عبد الرحمن. قال: إني لا أعرف الرحمن)[1].

ومضت الأيام والأحداث بالاثنين.. بقي أمية في مكة على شركه وأصنامه، وهاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة، ومارس التجارة بعد أن دلوه على سوق المدينة، فصار أحــد رجال الأعمال والتجار الناجحين. ويمضي ابن عوف متحدثاً عن قصته مع أمية وهــو في المدينة فيقول: (كاتبت أمية بن خلف كتاباً: بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظــه في صاغيته بالمدينة)[2] (كان بيني وبين أمية بــن خلف كتابٌ، بأن يحفظني فــي ضياعي بمكة، وأحفظه في ضياعه بالمدينة، فلما ذكرت: الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية، فكاتبته: عبد عمرو.

فلما كان يوم بدر)[3] (مررت به وهو واقف مع ابنه علي، وهو آخذ بيده، ومعي أدراع لي قد استلبتها فأنا أحملها، فلما رآني قال: عبد عمرو. فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله، فقلت: نعم، قال: هل لك في، فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع التي معك؟ قلت: نعم، ها الله.

فطرحــت الأدراع من يدي وأخذت بيده وبيد ابنه وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة في اللبن، ثم خرجت أمشي بينهما)[4](خرجت به إلى شعب لأحرزه حتى يأمن الناس)[5]، وتوجه الثلاثة إلى ذلك الشــعب، ثم توجهــوا (إلى جبل)[6]، فارتاحت نفــس أمية بن خلف.. يا لها من أيــام عصيبة تلك التي كانت تحمل في دقائقها الموت والحياة معاً لأمية.

---

(١) حســن. رواه ابن إســحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٩١: حدثني يحيى بن عباد عن أبيه وحدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن قالا: وهناك انقطاع بين صالح وجده، لكن عباد تابعي كبير والحديث حسن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو التالي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١) والصاغية: الحاشية والأتباع.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٤) حســن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-٩١): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيــه وحدثنــي صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قالا: وفــي الطريق الثانية انقطاع بين صالح وجــده لكــن عباد بن عبد الله ابــن الزبير تابعي كبير والحديث بعد هذا حســن بما بعده وحديث صالح موصول عند البخاري وهو ما بعده.

(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي واللفظ له (٣-٩٠).

(٦) جزء من حديث البخاري (٢٣٠١).

اطمأن أمية فتحدث عن اللبن الذي سيشـــربه ابن عوف وأصحابه من نياق أمية، التي ســـيفتدي نفسه وابنه بها، واسترخت أعصابه، فاسترسل في الحديث وقال لعبد الرحمن بن عوف وهو يمشـــي (بينه وبين ابنه آخذاً بأيديهما: يا عبد الإله: من الرجل منكم المعلم بريشة نعامة في صدره؟

قلت: حمزة. قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل)[1]

وواصلوا المشـــي والمسير، وفجأة دوت صرخة مرعبة من بعيد.. اتسعت لها عيون أميـــة وابنـــه.. صرخة قلبت أرض بدرٍ على رأس أمية مـــن جديد.. صرخة من أعماق مضطهـــد لا تزال جراحه تلتهب. يقول عبـــد الرحمن بن عوف: (فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معي -وكان هو الذي يعذب بلالاً بمكة على الإســـلام- فلما رآه قال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا، قلت: أي بلال، أسيري.

قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلـــف لا نجوت إن نجا)[2] (فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية بن خلف.

فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشـــيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم، فقتلوه، ثم أتوا حتى تبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: أبرك.

فبرك، فألقيت عليه نفســـي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي)[3](فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة[4]، فأنا أذب عنه، فأخلف رجل بالسيف فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط، قلت: انج بنفسك ولا نجاء، فوالله ما أغني عنك شيئاً، فهبروهما بأسيافهما حتى فرغوا منهما)[5]..

---

(١) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه البزار (٣-٢٢٧)وغيره: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن عبد الرحمن بن عوف. إبراهيم له رؤية وابنه تابعي ثقة وشيخ ابن إسحاق ثقة وجرح ابن حبان لا يضره.

(٢) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٢٣٠١).

(٤) التفوا حولنا وكأنهم داخل بئر صلبة لا تحتاج إلى طي.

(٥) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(قتلوه وأصاب أحدهم رجلي بسيفه)[1]..

يتذكر عبد الرحمن رضي الله عنه ذلك مبتسماً ويقول: (يرحم الله بلالاً، فجعني بأدراعي وبأسيري)[2].

وهكــذا انتهت قصة أمية الطويلة، كما تنتهي قصص كثير من أمثاله الذين قضوا حياتهم في التعذيب، والتنكيل بمن يقع بين أيديهم من المؤمنين والضعفاء والمســاكين.. انتهت حياته على يد من كان يتفنن في تعذيبه، ويسلقه تحت شمس مكة المحرقة. لقد (اشــترى أبو بكر بلالاً، وهو مدفون بالحجــارة)[3] الحامية في حرارة الصيف.. دفنه أمية، فهل سيدفن أمية بالحجارة؟

لم تنته المعركة بعد، والســاحة حبلى بالمشاهد المثيرة.. المثيرة، فهذا سعد بن أبي وقاص، وقد سقط أخوه الصغير عمير شهيداً.. يقاتل بضراوة، وكأنه يقاتل عن اثنين.. كأنه يقاتل عن أخيه الصغير. يشــاهده عبد الله ابن مســعود فيتعجب من شــجاعته ويقول: (كان سعد يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم بدر قتال الفارس والراجل)[4]

وفي مكان آخر كان الزبير بن العوام فارساً يقتحم قلعة من الحديد، فتتهاوى بين يديه.

يقــول رضي الله عنه: (لقيت يوم بدر عبيد بن ســعيد بن العاص، وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش. فحملت عليه بالعترة فطعنته في عينه فمات)[5].

وســقط مع من ســقط من الكفار، الذين ملأت جثثهم أرض بدر، ورأى المشركون ما يحدث لقادتهم وأبطالهم، فجمعوا شــظايا عزم لديهم، فشــدوا على المسلمين في محاولة يائســة.. محاولة كالانتحار، وهي في حركتها تشــبه كتلة من اللهب تهوي على

(١) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.
(٢) حديث صحيح. جزء من حديث ابن إسحاق السابق.
(٣) حديث صحيح مر معنا في المجلد الأول.
(٤) سنده قوي رواه البزار ٢-٣١٥ حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش عن إبراهيم عن ابن مسعود. وهناك انقطاع بين إبراهيم وابن مسعود، ورواه متصلاً عن إبراهيم بن يوسف حدثنا أبو معاوية. فجعل علقمة بين إبراهيم وابن مســعود، وإبراهيم في التقريــب صدوق به لين والصواب أنه: ثقة فجرح النسائي غير مفسر التهذيب ١-١٨٥.
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٩٨).

الأرض، فتنطفئ لكنها تؤذي من يتصدى لها. ومع ذلك كان أشجع الناس يتقدم كالموج يطفئها.. كالموت يخمدها، وخلفه كان سعد الذي يقاتل كرجلين، والزبير الذي يهزم الحديد، وعلي بن أبي طالب بشجاعته المعروفة، وعمه حمزة الذي فعل بهم الأفاعيل، وعمر بن الخطاب الذي تهابه كل قريش، وأبو بكر الصديق درع رسول الله ﷺ...

هؤلاء الذين صنعوا الأحداث والتاريخ.. هؤلاء وغيرهم قاتلوا في ساعة من ساعات بدر خلف ذلك الشجاع فمن هو:

أشجع رجلٍ في بدر؟

إنه رسول الله ﷺ، وأحد الذين كانوا يلوذون بشجاعة رسول الله ﷺ.. أحد الذين كانوا يلوذون بسيف رسول الله ﷺ يحدثنا بنفسه فيقول: (لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً)[1] و (لما كان يوم بدر اتقينا المشركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأساً)[2]

وأمام هذا البأس تساقط المشركون من اليأس، وتفتت آخر حلم وثني على أرض بدر، وعلى سماء بدر أيضاً؛ فجيش محمد ﷺ ليس على الأرض فقط، بل وفي السماء له جيش.

أحد الذين كانوا يقاتلون المؤمنين.. أحد الذين أصابهم اليأس والإحباط.. رأى بين السماء والأرض شيئاً كالبساط.. شيئاً قادماً لمحمدٍ، ولأصحاب محمد ﷺ. فماذا رأى جبير بن مطعم، وما أثره على قومه.

يقول جبير: (رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء مثل النمل الأسود، فلم أشك أنها الملائكة، فلم يكن إلا هزيمة القوم)[3] الكافرين الذين تطايروا من جديد كالشظايا.. هرباً من الحتف القاسي الذي يمتطي

---

(١) حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة (٧/٣٥٤) وانظر ما بعده.

(٢) سنده صحيح. رواه أحمد ١-١٢٦ والبيهقي ٣-٦٩ واللفظ. وسنده وسند ما قبله هو: إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي وقد مر معنا كثيراً.

(٣) سنده قوي. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٦١): حدثني أبي عن جبير بن مطعم. والد ابن إسحاق ثقة روى عن معاوية ومعاوية توفي بعد جبير رضي الله عنهما.

نواضح يثرب بعد أن أطلقه ﷺ.. أطلق شباب الإسلام حماساً يفتك بأوصال الوثنية.. حماساً أوقده ﷺ عندما قال: (من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا، فسارع في ذلك شبان الرجال وبقي الشيوخ تحت الرايات)(١)

وبين بريق الانتصار، وبرق التسابق نحو رقاب الطغاة كان هناك من يسابق الشباب نحو تلك الرقاب. هذا أحد شباب الإسلام، واسمه الحارث ويكنونه بأبي واقد الليثي.. يشتد مسرعاً نحو أحد الطغاة فيشاهد العجب.. العجب.

يقول رضي الله عنه: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه، فوقع رأسه قبل أن يصل سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله)(٢)

كان أحد الملائكة لا شك.. الملائكة التي تحز الرقاب، وتلطم الأنوف والوجوه المشركة؛ فبين السماء والأرض كان هناك صراخ.. كان هناك حيزوم. ولا أدري ما هذا المخلوق الذي تردد اسمه في الفضاء؟ هل هو جواد ذو أجنحة، أم أن حيزوماً ملك من الملائكة؟ لكنه كان مسرعاً لا شك.. يسابق أحد الفرسان نحو أحد المشركين.. فـ (بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. إذ نظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقياً، فنظرنا إليه، فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)(٣) ومدد السماء لم يقتصر على حز الرقاب ولطم الأنوف والوجوه، وتمريغها في الذل.. مدد السماء كان يفعل شيئاً آخر.

عم رسول الله ﷺ (العباس بن عبد المطلب) كان قد خرج مع قريش فوقع في الأسر، وها هو الأنصاري الذي أسره يقتاده نحو رسول الله ﷺ، لكن العباس يصر على أن هذا الأنصاري القصير القامة لم يأسره، والأنصاري يصر على أنه أسره!

---

(١) حديث صحيح. وصححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٢).

(٢) سنده حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٥٦ حدثني والدي إسحاق بن يسار حدثني رجال من بني مازن عن أبي واقد الليثي. شيوخ والده جمع وهو يروي عن الصحابة، فإن كانوا صحابة صح السند وإن كانوا من كبار التابعين فيقوي بعضهم بعضاً.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له ٣-٥٢.

لم يكذب الأنصاري، ولم يكذب العباس؟ والحقيقة عند رسول الله ﷺ، لقد (جاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسـيراً، فقال العباس: يا رسول الله، والله إن هذا ما أسـرني، لقد أسـرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهاً، على فرس أبلق ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله.

فقال ﷺ: اسـكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم)[1]، لا بشـيطان رجيم. لكن يا ترى أين الشـيطان الرجيم من هذه الأحداث.. لا شـك أنه بين صفوف المشـركين يتلقى نصيبه من الهزيمة والذل. أخبرنا عن ذلك ربنا وهو يقول: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]

لما تهاوت الأجسـاد من حوله، وشـخبت الدماء منها خاف أن يلقى المصير الذي لقيته تلك الجثث ففر، وفر المشـركون قبله.. تطايروا كالشظايا في الشعاب والجبال، وانقشـعوا عن أرض بدر، فانقشـع الغبار، وهدأت الأنفاس.. تأمل ﷺ ذلك المشهد، وتأمل فرسـانه من حوله، فإذا الساحة صمت حزين ورهيب.. منظر لا يسر.. سبعون جثة من قريش بلا حراك.. سبعون جثة لأبناء العمومة والعشيرة.. بلا أرواح.

ما الذي أوصلهم إلى هذه المأساة؟ من وما الذي قادهم إلى هذه النهاية المخيفة.. إلى الهزيمة وإلى جهنم؟

أبو جهل قادهم، والشيطان أجج الشرك في نفوسهم. أما يكفيهم ثلاثة عشر عاماً من حديث رسول الله ﷺ.. من حب رسول الله ﷺ، ورحمته وحرصه عليهم؟!!

نهاية مخيفة تلك التي انتهى إليها أولئك السـبعون.. لقد فر أصحابهم وتركوهم للشـمس والغبار، وتركوا مثل هذا العدد بين القيود والحبال.. سبعون أسيراً يغشاهم الذل، وتجللهم الهزيمة.

---

(١) هو جزء من حديث أحمد ١-١١٧ المشهور عن علي وقد مر معنا.
(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٤٧، ٤٨.

ها هو الشـــرير: عقبة بن أبي معيط بين الأسرى، وها هو أبو يزيد واسمه:سهيل بن عمرو أسير أيضاً، وها هم الصحابة يستجيبون لأمر الله وأمر رسوله ﷺ، فيكتفون بأسر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، وأسر ابن عمه عقيل بن أبي طالب، لأنهم خرجوا كارهين لقتال رســـول الله ﷺ كما قال نبي الله ﷺ: «من اســـتطعتم أن تأسروا من بني عبد المطلب فإنهم خرجوا كارهين»[1]

لكـــن لماذا لـــم ينه ﷺ عن قتل أمية بن خلف وقد خرج كارهاً أيضاً..؟ السـبب لا يحتاج إلى كثير من التفكير، فأمية بن خلف كان من أشرس الناس على الإسلام وأتباعه خاصة بلال بن رباح بعكس بني عبد المطلب، ثم إن أمية لم يكن كارهاً لقتال المسلمين.. إنه يتمنى ســـحقهم وســـحق نبيهم ﷺ، لكنه كان خائفاً على نفسه لأنه يدرك أن رسول اللـــه ﷺ لم، ولا، ولن يكذب. وقد توعـــده بالموت وهو يدرك خطورة وعيده ﷺ. لذلك اشترى تلك الراحلة ليهرب عندما يلوح الخطر، لكن الذي لاح لأميه لم يكن الخطر.. إنه شيء أكثر خطورة.. إنه بلال وقد (كان هو الذي يعذب بلالاً في مكة على الإسلام)[2]

ثم إن بني عبد المطلب دافعوا عن رســـول الله ﷺ، وشـــاركوه في المعاناة والسجن في الشّعب.. لم يشذ عن هؤلاء الكرام إلا شرير يُسمى (أبو لهب)، وهو لم يحضر إلى أرض المعركـــة، ربما كان مريضاً، وقد أســـر بالإضافة إلـــى العباس وعقيل زوج حبيبة رســـول الله ﷺ.. زوج ابنته زينب، التي كانت كارهة لخروج زوجها، وخائفة على دينها ونبيها وأبيها ﷺ، وقد كان من السهل أسر هؤلاء الثلاثة، فهم لا يشعرون في أعماقهم بأي دافع لهذه المعركة سوى عنجهية أبي جهل وغطرسته. أبو جهل!!

أين أبو جهل يا ترى؟ إنه ليس بين القتلى ولا بين الأسرى والحبال؟

---

(١) رواه أحمد (٨٩/١) بســـند حســـن من أجل أبي ســـعيد شـــيخه وهو حســـن الحديث من رجال البخاري (التقريـــب ٤٨٧/١) قال الحافظ: صدوق ربما أخطأ، ولعل الصـــواب أنه ثقة ربما أخطأ. انظر التهذيب وقد قال أبو سعيد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي... وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن قتل أمية بن خلف.

أين أبو جهل

ذلك المجرم، الذي رفض الإسلام حسداً لأن النبوة لم تكن في بيته. أين الطاغوت الـــذي أخرج قريشـــاً وهي كارهة لترقص حوله وهو يشـــرب الخمـــر..؟ إنه ليس بين القتلى، ولا بين الأسرى؟

لذلك (أمر رســـول الله ﷺ أن يلتمس في القتلـــى)[1] وقال لأصحابه: (من ينظر مـــا صنع أبو جهل)[2] (من يعلم ما فعل أبو جهل)[3] فتقدم رجل نحيل الجســـم.. دقيق الســـاقين.. كان يرعى الغنم في مكة، وكان أبو جهل قد اســـتضعفه ذات يوم في مكة فـــآذاه. تقدم هذا الرجل النحيل الصالح وقال لرســـول الله ﷺ: (أنـــا يا نبي الله)[4] فانطلقت تلك الســـاقان تنفيذاً لإرادة رســـول الله ﷺ، وبعد قليل هدأتا وتهادتا نحو جريح ينزف.. قد طارت ســـاقه، وطار صوابه. حدق به ابن مسعود، فإذا هو أبو جهل (فوجـــده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل؟ قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو قتله قومه)[5] فقال ابن مسعود: (قد أخزاك الله. فقال: هل أعمد مـــن رجل قتلتموه)[6] أي حقد ينضح من جثـــة هذا الطاغية، وأي روح خبيثة تلك التي بين جنبيه.

لقد كان أبو جهل جثّة.. كتلةً متورمة من العناد، فهل ســـيتركه ابن مســـعود ليخبر رسول الله ﷺ.. أم ماذا؟

ماذا فعل ابن مسعود بأبي جهل

قـــال رضي الله عنه: (أدركـــت أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً فقلـــت: أي عدو الله قد أخزاك الله. قال: وبم أخزاني من رجل قتلتموه؟!

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن انقضاض معاذ بن عمرو بن الجموح على أبي جهل.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ – ٨٧).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦ – ٨٧).
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٥) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٦).
(٦) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي (٣/٨٧).

ومعي سيف لي، فجعلت أضربه ولا يحيك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده، فوقع السيف من يده، فأخذته، ثم كشفت المغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته.

فقال: الله الذي لا إله إلا هو؟ قلت: الله الذي لا إله إلا هو -حتى حلفني ثلاثاً- [قال: انطلق فاستثبت، فانطلقت فأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته].

فقال رسول الله ﷺ: فانطلق فأرني. فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: هذا فرعون هذه الأمة)[1] رأسه هنا، ورجله هناك، وباقيه في مكان آخر.

أبو جهل الذي جمع الشرك كله، ورفض الحكمة كلها. أبو جهل الذي وصف رسول الله ﷺ وأصحابه بأنهم مجرد لقمة.. مجرد أكلة جزور.. أبو جهل الذي اتهم عقلاء قومه بالجبن.. يسقط على أرض بدر دون أن يمس أحداً من المؤمنين بأذى.. دون أن يشفي غليله ولو بضربة واحدة، أما سيف أبي جهل الثمين، فلم تصدر منه سوى ضربة واحدة متجهة نحو رقبة صاحبها.. نحو أبي جهل. هلاك أبي جهل مروع، والتاريخ يكتب للطغاة بحبر المضطهدين. لكنهم لا يقرأون، ولا يفيد من التاريخ سوى العقلاء. هلك أبو جهل بسيفه، والذين مزقوه شباب صغار انتقاما ونصرة لحبيبهم عليه السلام، والذي أجهز عليه وحز رأسه أحد الضعفاء، الذين أخافهم كثيراً، وأذلهم كثيراً في شوارع مكة وأزقتها، بل وفي بيت الله الحرام.

ترى هل يتذكر ابن مسعود وهو يجهز على أبي جهل ذلك اليوم الذي كان فيه خائفاً بجوار الكعبة الآمنة.. ينظر إلى حبيبه ويتمزق حرقة، لكنه لا يستطيع فعل شيء؟ فـ (بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور (بني فلان) فيأخذه فيضعه على كتِفَي محمد إذا سجد؟

---

(١) سنده قوي. رواه الطبراني ٩-٨٣ حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا أبو المعافى محمد بن وهب بن أبي كريمة حدثنا محمد بن أبي تملة عن أبي عبد الرحيم عن زيد ابن أبي أنيسة عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود.. ابن أبي تملة لم أجد له من ترجمة والصواب محمد بن سلمة الحراني ابن أخت عبد الرحيم الحراني من تلاميذ خاله ومن شيوخ ابن وهب. التهذيب ٩-٥٠٦ و٩-١٩٣-١٩٤ وهؤلاء ثقات كلهم، وابن ميمون مخضرم ثقة، التقريب ٤٢٧ وشيخ الطبراني حافظ جليل. أعلام النبلاء ١٤-٥٧ وللحديث شواهد منها الطبراني ٩-٨١-٨٢-٨٣ ومنها حديث سنده قوي عند البزار.

فانبعث أشقى القوم فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل إلى بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحت عنه ثم أقبلت عليهم تسبهم.

فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً. وإذا سأل، سأل ثلاثاً، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل ابن هشام، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»[1].

واليوم سقط هؤلاء كلهم.. كلهم إلا عقبة بن أبي معيط، فأين هو..؟ هذا المجرم لا يزال حياً.. إنه بين الأسرى، ولا أدري ما سيفعل به رسول الله ﷺ، لكنه يتعذب الآن بمنظر شركائه في الإجرام وقد بدأوا ينتنون وينتن شركهم، وقد تحققت دعوة رسول الله ﷺ عندما: (استقبل رسول الله ﷺ البيت، فدعا على نفر من قريش فيهم أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وعقبة بن أبي معيط.

قال ابن مسعود: فأقسم بالله لقد رأيتهم صرعى على بدر، قد غيرتهم الشمس، وكان يوماً حاراً)[2] وفي اليوم الحار تنتن الجثث سريعاً. إذاً فلا بد من دفن تلك الجثث، ولو كانت جثث كفار، هذه هي تعاليم الإسلام، والإسلام دين صحة ونظافة، ودين يحترم الإنسان لآدميته، ورسول الله ﷺ يقول لأمته: (أسرعوا بالجنازة فإن تك صالحة فخير تقدمونها عليه، وإن تكن غير ذلك فشر تضعونه على رقابكم)[3] لذلك أمر ﷺ أن تقذف تلك الجنائز في بئر كان موجوداً على أرض بدر، فـ (نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث)[4] بئر يعج برائحة الموت وعفن الشرك، و (لما أمر رسول الله ﷺ بالقتلى أن يطرحوا في القليب، طرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه انتفخ في درعه

(١) حديث صحيح. رواه مسلم الجهاد والزوائد له ، والبيهقي ٢-٢٨٠ واللفظ له.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي ٢-٣٣٥.
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ١ - ٤٤٢ ومسلم ٢-٦٥١.
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري ٤-١٤٦١.

فملأهـا، فذهبوا ليخرجوه فتزايـل لحمه، فأقروه، وألقوا عليه مـا غيبه من التراب والحجارة)[1]... هلك أمية بن خلف.. لم يحفر له قبر كبقية الناس، فقد تفسـخ لحمه فتركوه، ودفنوه بالحجارة بعد أن قتله بلال. يال انتقام الجبار لبلال المؤمن المسكين!

أيتذكر بلال وهو يرى عدوه مدفوناً بالحجارة.. أيتذكر تلك الأيام العصيبة، عندما كان أمية يدفنه بالحجارة في مثل هذه الأيام الحارة، وتحت هذه الشمس المحرقة؟ لقد كان بلال حتى آخر لحظات الرق مدفوناً بالحجارة.

يقول أحد الذين أدركوا تلك الأحداث: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون بالحجارة)[2] وها هو أمية: الطاغوت الذي دفن بلالاً.. هاهو يدفن بالحجارة أمام عيني بلال المسكين. سبحانك ما أعظمك.. إنها دعوة المضطهدين والمظلومين.

وقبل أن يتخلص النبي ﷺ من تلك الجثث تهادى إلى شـهداء الإسـلام.. شهداء بدر فكم كان عددهم:

ثمانية عشر شهيداً

دفنهـم النبي ﷺ، وتحدث عنهم ابن مسـعود رضي الله عنه بحديث كالماء البارد فقال: (إن الثمانية عشـر الذين قتلوا من أصحاب رسـول الله ﷺ يوم بدر، جعل الله أرواحهم في الجنة في طير خضر تسـرح في الجنة، فبينما هم كذلك إذ اطلع عليهم ربك اطلاعة، فقال: يا عبادي، ماذا تشتهون؟

قالـوا: يا ربنا ما فوق هذا شـيء. فيقـول: عبادي ماذا تشـتهون؟ فيقولون في الرابعـة: ترد أرواحنا في أجسـادنا فنقتل كمـا قتلنا)[3] إنهم يبحثـون عن الموت من

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق (سـيرة ابن كثير ٢/٤٤٩) حدثني يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة قالت:... وهذا السند صحيح. يزيد بن رومان تابعي صغير ثقة، وهو أحد موالي آل الزبير (التقريب ٦٠١) وشيخه لا يسأل عنه.

(٢) حديث صحيح مر معنا في الجزء الأول.

(٣) سـنده صحيح. رواه الطبراني (١٠/٢٤٩): حدثنا سـليمان بن الحسن العطار أبو أيوب حدثنا محمد بن علي ابن الحسن بن شفيق، سمعت أبي: أخبرني الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق أن ابن مسعود: شـقيق بن سـلمة أدرك الجاهلية والإسلام التهذيب ٤ - ٣١٧) وسمع منه التابعي الثقة: قال لي أبو وائل: يا سـليمان لو رأيتني ونحـن هراب من خالد بن الوليد. وقال الأعمش عن إبراهيم: عليك بشـقيق، فلا تضر عنعنة الأعمش، لا سـيما وهما كوفيان، وتلميذه الحسـن ثقة، وعلي بن الحسن وولده ثقتان، وشيخ الطبراني ثقة. سؤالات السهمي كما عزاه الشيخ عبد القدوس في مجمع البحرين ٦-١٤٧.

جديد.. يريدون فعل شيء يجعلهم يستحقون كل ما حولهم، ويستحقون ما هم فيه من الرفاهية والدهشة التي لا يمكن وصفها، وماذا يساوي ألم الموت أمام عوالم السعادة والابتهاج والخلود، ماذا يساوي الموت و(الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم مس القرصة)[1]؟

ماذا يساوي ألم الموت أمام تلك القصور الفاتنة، والشوارع الفسيحة الساحرة، والملابس الراقية الأنيقة، والأجساد الشابة الغضة الفاتنة التي سينعمون بها والتي لا تعرف المرض ولا الهرم، ولا الترهل ولا الشحوم ولا الشحوب ولا القبح. لن تهم الطعنات إن كانت كل طعنة بوابة للخلود الذي لا يعرف الموت، والغنى الذي لا يعرف الفقر، والأمن الذي لا يعرف الخوف.. إنها الجنة حيث لا عين رأت مثل جمالها، ولا أذن سمعت بروعة كروعتها، ولا خطر على بال بشر مستواها ومستوى البهجة داخلها.

دفن ﷺ شهداء بدر بثيابهم ودمائهم، وبشرهم وبشر أمثالهم فيما بعد فقال: (أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح في الله، إلا جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[2] ويقول ﷺ: (للشهيد عند الله سبع خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته)[3].

هذا ما سيفرح به الشهداء من المهاجرين والأنصار، وما في الجنة أجمل وأبقى. أما ما سيلقاه قتلى قريش فشيء مخيف ومرعب.. بشرهم به ﷺ.. خاطبهم وهم أكوام محشورون في تلك البئر المنتن، ولكن بعد ثلاثة أيام من انقضاء المعركة، وقد

---

(١) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (١-٦٩٦).

(٢) سنده حسن رواه البيهقي في الكبرى ٤-١١ وابن سعد ٣-١٢ عن خالد بن مخلد، حدثني عبد الرحمن بن عبد العزيز حدثني الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، عبد الرحمن حسن الحديث من رجال مسلم وخالد صدوق وعند البخاري وغيره.

(٣) سنده صحيح. رواه أحمد ٤-١٣١ عن شيخيه قالا: حدثنا إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن المقدام. إسماعيل عن شيخه حمصيان ثقتان التقريب ١٠٩ و١٢٠ وابن معدان تابعي ثقة، التقريب ١٩٠.

كانت سنته ﷺ إذا انتصر في معركة أن يقيم ثلاثة أيام[1] على أرض المعركة بعد انقضائها، ثم يعود إلى المدينة.. ربما كان ذلك لتأكيد الانتصار، والمحافظة عليه من أية محاولة -ربما- تقوم بها الفلول الخاسرة لتعويض خسارتها، وفي تلك الأيام الثلاثة كان النبي ﷺ مشغولاً بتركة هذا الانتصار.. مشغولاً بقضايا وهموم تحتاج إلى أكثر من التفكير، ومن هذه القضايا والهموم.

قضية الغنائم

فالغنائم بالنسبة للذين حضروا بدراً لا تعني رصيداً مادياً أبداً.. إنها أكبر من ذلك، والصحابة مهاجرون وأنصار أكبر من هذا التفكير، فالمهاجرون تركوا أموالهم لله، والأنصار شاطروا إخوانهم وأموالهم ودورهم، لكنها غنائم أول معركة مع رسول الله ﷺ، وأول معركة ضد كفار قريش الذين أخرجوا رسول الله ﷺ، وأول معركة في الإسلام، والمشاركة فيها والحصول على شيء من غنائمها له في النفوس أثر ينام ويصحو مع الإنسان، ويظله في كل مكان يسير ويخطو عليه.. أثر يتطهر معه أهل بدر من كل ذنوبهم. لست أبالغ فقد قال رسول الله ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة)[2] ثم إن الصحابة بشر.. يصيبون ويخطئون، فيقوم ﷺ بتصحيح أخطائهم، لتصحح الأمة أخطاءها، وتأخذ أحكامها من هذه الأحداث، وليس هناك أخصب من المعارك للانفعال والتأثر والخطأ.

فماذا حدث من الصحابة ومارأي بعضهم حول الغنائم؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه وعنهم: (إن النبي ﷺ قال: من أتى مكان كذا وكذا، فله كذا وكذا. أو فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا. فتسارع إليه الشبان، وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما فتح الله عليهم جاءوا يطلبون ما جعل لهم النبي ﷺ، فقال لهم الأشياخ: لا تذهبوا به دوننا، فأنزل الله عليه هذه الآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾[3] والآية التي نزلت هي قوله سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ

---

(١) (كان ﷺ إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال) رواه البخاري وسيمر معنا.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٣٩٨٣).

(٣) سنده صحيح رواه ابن جرير ٦-١٧١-١٧٢ عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس. داود تابعي ثقة متقن التقريب ٢٠٠ وشيخه تابعي ثقة ثبت مر معنا كثيراً.

﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(1).

ولكــي تتضح الرؤية جيداً دعونا نمشــي خلف هذا الشــاب الــذي يحمل بيديه ســيفين.. سيفه وسيف رجل من المشــركين. إنه يتوجه نحو رسول الله ﷺ.. يستأذنه، ويرجوه أن يمنحه هذا الســيف؟ (فأتى به رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه. ثم قام فقال: يا رسول الله: نفلنيه. فقال ﷺ: ضعه.

ثم قام فقال: يا رسول الله نفلنيه، أُجعل كمن لا غَنَاء له؟

فقال النبي ﷺ: ضعه من حيث أخذته)(2).

هذا الشاب هو سعد بن أبي وقاص وهو يحدثنا بنفسه فيقول: (جئت إلى النبي ﷺ يوم بدر بسيف، فقلت: يا رسول الله، إن الله قد شفى صدري اليوم من العدو، فهب لي هذا السيف. فقال ﷺ: إن هذا السيف ليس لي ولا لك.

فذهبت وأنا أقول: يعطاه اليوم من لم يبل بلائي، فبينا أنا إذ جاءني الرسول فقال: أجب. فظننت أنه قد نزل فيَّ شيء من كلامي، فجئت، فقال لي النبي ﷺ: إنك سألتني هذا الســيف وليس هو لي ولا لك، وإن الله قد جعله لي، فهو لك. ثم قرأ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾)(3) إذاً فالســيف ليس لرســول الله ﷺ ولا لسعد بن أبي وقــاص وكذلك الغنائم، فلمن كانت الغنائم في الحروب التي خاضها الأنبياء من قبل؟ لقد كانت الغنائم تحرق.

---

(1) سورة الأنفال: الآية 1.

(2) سنده قوي. رواه ابن جرير 1-173 من طرق عن: سماك بن حرب، سمعت مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. ســماك صدوق روايته قوية إلا عن عكرمة، وهذه ليســت منها، بل عن التابعي الثقة مصعب بن سعد وهو من رجال الشيخين.

(3) حديث صحيح. رواه مسلم والبيهقي واللفظ له (6/291 من السنن).

إحراق الغنائم

شـــيء غريب، ولماذا تحـــرق؟ يقول أحد الصحابة: (لما كان يـــوم بدر تعجل الناس إلى الغنائم، فأصابوها فقال رســـول الله ﷺ: إن الغنيمة لا تحل لأحد ســـود الرؤوس غيركـــم، وكان النبي[1] ﷺ وأصحابــه إذا غنموا الغنيمة جمعوهـــا، ونزلت نار فأكلتها فأنـــزل الله هذه الآية: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ ﴾[2].

نزلـــت هذه الآيات فترك المجاهدون اجتهاداتهم لوحي الســـماء، فليس مع الوحي الصريح اجتهاد، وســـلموا الأمر لله ولرســـوله ﷺ، وســـلمت الغنائم لرسول الله ﷺ، فوزعهـــا على المهاجرين والأنصار ففرحوا بها، كانـــت أول هدايا الله للنبي وأصحابه علـــى أرض معركة، وكانوا أول أمة تباح لها الغنائـــم، لكنهم تعلموا أيضاً أن المال العام (مال الدولة) محرم على أي فرد من أفراد الشـــعب حتى ولو كان مجاهداً، إلا إذا كان بصورة نظامية مستحقة.

فرح ســـعد بن أبي وقاص بسيفه، وبشـــيء آخر مع سيفه. أما علي بن أبي طالب فـــكان نصيبه من الإبل، حيث يقول رضي الله عنه: (كانت لي شـــارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان النبي ﷺ أعطاني مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذ)[3].

إذاً فعلي رضي الله عنه حصل على بعيرين بعير من نصيبه من الغنائم، وبعير من الخمس، فما هو الخمس الذي تحدث عنه علي بن أبي طالب هنا..؟ الإجابة بسيطة. فقد أمر الله سبحانه بتقسيم غنائم الحرب إلى خمسة أجزاء:

أربعة أجزاء للمجاهدين المشاركين في المعركة.

---

(١) أي من الأنبياء السابقين. وهذا من كلام أبي هريرة وليس من كلام النبي عليه السلام.

(٢) سنده صحيح مشهور رواه الطيالسي ٢-١٩ وغيره عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة.، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي ٣-٥٣.

(٣) رواه البخاري ٤-١٤٧٠.

أما الجزء الخامس فيقسم أيضاً إلى خمسة أجزاء:

١- جزء لله وللرسول ﷺ.

٢- جزء لقرابة الرسول ﷺ.

٣- جزء ليتامى المسلمين الذين فقدوا آباءهم.

٤- جزء للمساكين المحتاجين من المسلمين.

٥- جزء للمسافرين الذين فقدوا أموالهم، أو نفذت أموالهم وليس لديهم ما يسد حاجتهم للمواصلة، أو الرجوع إلى ديارهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[1] ويوم الفرقان هو يوم بدر.

انتهى المسلمون من قضية الغنائم وتقسيمها، وبقيت قضية أخرى لا تقل عنها.. إنها:

قضية الأسرى

أما الأسرى فقد نظر إليهم النبي ﷺ نظرة أسف، ثم نطق بالوفاء كله لأحد رجالات قريش الكرام، الذين كانوا مثالاً في احترام النفس، واحترام الآخرين.. رجل شهم كأبي طالب. إنه المطعم بن عدي، ذلك الرجل الذي حمى رسول الله ﷺ في مكة يوماً من الأيام. تذكر ﷺ موقف المطعم بن عدي فانطلقت مشاعر الوفاء منه لكل صاحب معروف ولو كان مشركاً، فباح بوفائه وقال: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتن لأطلقتهم له)[2] لكن المطعم بن عدي تحت الثرى، ولم ينزل على رسول الله ﷺ وحي في أمرهم حتى الآن، فكانت المشورة الملزمة عند عدم وجود نص.

توجه ﷺ نحو أبي بكر وعمر وعلي يستشيرهم: ماذا يفعل بهؤلاء الأسرى؟ فرسول الله ﷺ إذا لم ينزل عليه الوحي لا يستبد برأيه، ولا يفرضه على من حوله،

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٤).

وقد قال ﷺ في أول المعركة: (أشيروا علي أيها الناس) وها هو يتجه بالمشورة في آخر المعركة نحو أبي بكر وعمر وعلي، فكانت الإجابة:

رأياً لأبي بكر ورأياً لعمر

فبأيهما سـيأخذ؟ يقول عمر رضي الله عنه: (لما أسـروا الأسارى، يعني يوم بدر، قال رسـول الله ﷺ: أين أبو بكر وعمر وعلي؟)[1] فجاء أبو بكر وجاء عمر وجاء علي رضي الله عنهم، ولما وقفوا أمامه ﷺ قال لهم: (ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يـا رسـول الله هم بنو العم والعشـيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكـون لنا قوة على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسـول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو، ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم: فتمكن علياً من (عقيل) فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من (العباس) فيضرب عنقه، وتمكنني من (فلان) -نسيب لعمر- فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت.

قال عمر: فلما كان من الغد، جئت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان، فقلت: يا رسـول الله، أخبرني من أي شـيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت.

فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عُرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة -لشجرة قريبة من رسول الله ﷺ-.

فأنـزل الله عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ... ﴾[2])[3].

---

(١) حديث صحيح. رواه مسـلم وابن جرير في التفسـير ٦-٢٨٧ واللفظ له من طريق عكرمة بن عمار حدثنا أبو زميل، حدثني ابن عباس وسند ابن جرير صحيح.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٦٧-٦٩.

(٣) حديث صحيح. رواه مسلم وابن جرير في التفسير بالسند السابق.

بكى ﷺ، وبكى صاحبه من خشية الله، وتلا على أصحابه عتاب الله له..لم يخفه عنهم، ولم يضمر هذه الآيات في نفسه، بل أعلنها للجميع. أعلنها لأنها وحي، وأعلنها لأنه مطالب بإعلانها، وأعلنها لأنه صادق، ولو لم يكن صادقاً لما كان نبياً.

كانت تلك الآيات تحمل كرامة لعمر، وتصويباً لرأيه، فهؤلاء الرجال خرجوا لحرب الله ورسوله. صحيح أن بعضهم كان كارهاً، وأن البعض الآخر قد استدرج واستفز من قبل أبي جهل، لكن ألا يستطيع هؤلاء وهؤلاء أن يقولوا: لا؟!

تألم ﷺ لما حدث، لكن الله رحيم بنبيه.. لم يتركه لآلامه ودموعه. بعث له جبريل مرة أخرى يحمل بشرى بالفداء والجنة.

ها هو (جبريل نزل على النبي ﷺ في أسارى بدر فقال: إن شئتم قتلتموهم، وإن شئتم أخذتم منهم الفداء، واستشهد قابل منكم سبعون. فنادى النبي ﷺ في أصحابه، فجاءوا، أو من جاء منهم، فقال ﷺ: هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم، وبين أن تفادوهم واستشهد قابل منكم بعدتهم؟ فقالوا: بل نفاديهم فنتقوى به عليهم، ويدخل منا الجنة سبعون، ففادوهم)(1) أي يستشهد منا سبعون في السنة القادمة. وهكذا (فادى النبي ﷺ بأسارى بدر، فكان فداء كل واحد منهم أربعة آلاف)(2) أربعة آلاف درهم.

وبعد الأمر بأخذ الفداء استثنى عليه السلام منهم طاغوتاً:

إعدام طاغوت

فقبل أن يطلبوا من أسراهم الفداء أمر ﷺ بإخراج أحد المجرمين من بين الأسرى، واسم هذا المجرم: (عقبة بن أبي معيط).. أمر ﷺ بإخراج عقبة هذا، فهو لن يقبل

---

(1) سنده صحيح. ورواه ابن سعد (٢/٢٢) عن ابن سيرين عن عبيدة مرسلاً ورواه البزار ٣-١٧٦ والنسائي الكبرى ٥-٢٠٠ وغيرهم عن سفيان الثوري عن هشام ابن حسان، عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي وهذا السند كالذهب: عبيدة مخضرم ثقة ثبت، وهشام ثقة وأثبت الناس عن شيخه يقول: حدثني أصدق من أدركته من البشر التهذيب ٩-٢١٥.

(2) رواه عبد الرزاق (٥/٢٠٦) عن معمر بن قتادة قال: وأخبرني عثمان الجزري عن مقسم عن ابن عباس: وفي الأول إرسال قتادة لكن معمر رواه من طريق أخرى فيها ضعف من أجل عثمان. وللحديث شاهد سيمر معنا عند الحديث عن فداء مشرك يدعى (وداعة).

منه فداءً ولا مالاً، لأنه لا يقل شراســة وإجراماً عن أبي جهل. عقبة كان فرعوناً آخر لهذه الأمة.. إنه مجرم، حتى لقد عزم يوماً على قتل رسول الله ﷺ. ليس في الطريق، وليس في بيته، ولا في الصحراء، بل وهو آمن مع ربه في بيته الحرام، الذي يلقى فيه الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له. لكن عقبة كان كتلة من الحقد والكفر والإجرام.

سأل رجل أحد الصحابة: (حدثني بأشر شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ؟

قــال: أقبل عقبة بن أبي معيط ورســول الله ﷺ يصلي عنــد الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شــديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذه بمنكبيه فدفعه عن رســول الله ﷺ، ثم قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[1].

فشــلت محاولة عقبة.. أفشلها أسد من أســود الإسلام.. أحبطها أبو بكر رضي الله عنه، فانســحب عقبة وهو يضمر شــراً، فلما خرجت قريش إلى بدر أشراً وبطراً خرج عقبة معها، لينفس عن أحقاده وشــروره، لعله يحظى برأس محمد وصاحبه أبي بكر معاً، لكنه فشل من جديد. وها هو علي بن أبي طالب يجتره من بين الأسرى، وهو يرتعد خوفاً من الموت، فيحاول أن يدفع الموت عنه بكلمة يستدر بها رحمةً.. أي رحمة؟ لكن رسول الله ﷺ يقتله بكلمة قبل أن يقول السيف كلمته.

حدث ذلك عندما (قام علي بن أبي طالب فقتله صبراً قال: من للصبية يا محمد؟ قال ﷺ: النار)[2].

عقبة يذكر الصبية، لكنه لا يذكر الله، ولا الإســلام، وكأن ســبب هذه المعركة ثأر قــديم، أو خلاف في وجهات النظر بين أفراد قبيلة واحدة. ومع ذلك فيمكن لعقبة أن ينجو من الموت، وأن ينجو من النار، لو أنه اختار الله ورســوله. لكنه وهو على شــفير الموت يرفض ذلك. لو تشهد لنجا من سيف علي، لكنه يرفض أن يكون عبداً لله وحده، ويرضــى بأن يكون عبداً لحجر مقذوف على ظهر الكعبة.. هو صنعه بيديه، بل حاول قتل رسول الله ﷺ من أجل ذلك الحجر، فكان لعقبة ما اختار من لهيب السيف ولهب

(١) حديث صحيح. رواه البخاري والبيهقي من الطريق نفسه (٢/٢٧٤).
(٢) هو آخر حديث عبد الرزاق السابق ٥-٢٠٦.

النار، وقذف عقبة مع أصحابه في تلك القليب النتنة المحشـوة عفناً وكفراً وجحيماً.. قذف عقبة باختياره. أما رسول الله ﷺ فلم يكن يكره أن يسلم عقبة والأسرى جميعاً. لقد نفذ أمر ربه الـذي يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾[1] ورسول الله ﷺ كان رحيماً فلم يكره أن يسلم عقبة ابن أبي معيط.. لم يكره أن ينجو من سـيف علي، فدخول عقبة في دار الإيمان يكفل حمايته من السـيف، ومن سيوف المؤمنين جميعاً.

ها هو أحد فرسـان بدر.. المقداد بن عمرو يبعث برسالة إلى العالم.. من أقصاه إلى أقصاه.. من خلال حوار متحضر جداً مع رسول الله ﷺ.

قال المقداد لنبيه ﷺ: (يا رسـول اللـه، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسـيف فقطعها، ثم لاذ مني بشـجرة فقال: أسلمت لله. أقتله يا رسـول الله بعد أن قالها؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله. فقال: يا رسول الله إنه قطع إحدى يدي ثم قال ذلك بعدما قطعها؟!

فقال رسول الله ﷺ: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال)[2].

هذا هو الإسلام، وهذا هو خطابه الحضاري لأتباعه والعالم: لا شأن لكم بالنوايا.. لا شـأن لكم، ولا يعرف ما في القلوب إلا من خلقها. لا انتقام ولا مقابر جماعية ولا تشف ولا تشويه للجثث ولا جهاد دون انضباط.

وقد رفض عقبة هذا الخطاب الجميل، فغادر إلى الجحيم غير مأسوف عليه.

بقية الأسرى في نعيم

بقية الأسـرى لم يسـحبوا إلى قليب، ولم يُقتادوا إلى معسكرات تجويع وتعذيب، ولم يؤمروا بالقيام بأعمال شـاقة. فمنذ أغمد الصحابة سيوفهم تحولت الساحة من

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠١٩).

أنهار دم إلى شـــلالات كرم وواحات سلام.. شرب فيها الأسرى وأكلوا وناموا أكثر من الصحابة، وأكثر من نبيهم عليه الصلاة والســـلام.. شيء لا يصدق! لأنه لم يحدث من قبل.. شيء لا يصدق. أيعقل أن يعامل المسلمون هؤلاء المشركين الذين حملوا السيوف، وطردوا الرسول ﷺ، واغتصبوا المال والدار.. أيعقل أن يعاملوا معاملة المسكين، والطفل اليتيــم..؟! أجل، يعقــل إذا كان القائد هو محمد ﷺ، وكان الجيش من الصحابة.. ها هم يقدمون طعاماً للأسرى أفضل من طعامهم، رغم جوعهم ورغبتهم الملحة فيه. ليس لأنهم أبناء العمومة والعشــيرة، ولا لطمعهم بفدية أكثر، فإن من المشركين من لا يملك إلا سيفه. الســبب ببساطة هو وعد نزل كالمطر من السماء، فأنبت في قلوب المؤمنين تلــك الرياض، وتلــك الرعاية، وذلك الفيض من العطاء.. وحي مــن الله يقول: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾[1].

هذه هي معســكرات الأسر في الإسلام مهما كان الأســير مجرماً، أو مشركاً أو حتى ملحداً. هذا هو مفهوم الحبس في الإســلام إن كان في الإســلام حبس. أســير مشرك خرج لسفك الدماء يخجل من كرم آسره، وآسر يستحي أن يقدم لأسيره طعاماً أقل من طعامه، أو مســاوياً له. يكتفي الصحابة بالتمر والماء، ويقدمون الخبز واللحم -إن وجد- لأسراهم.

أخــلاق زرعها ﷺ في أعماق أصحابه.. أخــلاق تعادل درجاتٍ من الصلاة والصيام لا يطيقها الإنســان.. بشــرهم ﷺ بذلك عندما قال لهم: (إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار)[2] ومن الذي يصلي ليله كله دون توقف، ويصوم كل يوم ولا يفطر؟ قال لهم ﷺ: (إن أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً في الدنيا)[3] (إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً)[4] و(من كان سهلاً هيناً ليناً حرمه الله على النار)[5].

---

(١) سورة الإنسان: الآيات ٥-٩.
(٢) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣٣٤).
(٣) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٢٧).
(٤) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٤٣٨).
(٥) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢-١١٠٥).

غـــرس ﷺ تلك الأخلاق عندما قال لهم: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[1] و(أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)[2].

سحابة عطر كان محمد ﷺ وأصحابه، بعد أن كانوا قبل قليل عاصفة من السلاح والموت.. سحابةٌ شعر الأسرى تحتها بالارتياح.. شعروا بنسيم الإسلام البارد يغمرهم، ويلطـــف لفح الصحراء من حولهم، فانتشـــى الأنصار من جديد، وتوهج كرمهم وحبهم لرسول الله ﷺ بالإيثار من جديد.

يقول أحد أبنائهم: (إن رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: إيذن لنا فلنترك لابن أختنا العباس فداءه.

فقال: لا والله، لا تذرون منه درهماً)[3] وطالب رسول الله عمه العباس بالفداء، بل كان فداء العباس أكثر من فداء غيره.

مكث ﷺ على أرض المعركة ثلاثة أيام كان فيها مشغولاً بأصحابه، يعالج قضاياهم وجرحاهم، ويتلقى الوحي من الله سبحانه في علاجه ذلك.. لم يكن ﷺ مشغولاً بمن معه فقط، بل كان يعيش بقلبه وشـــعوره مع أحباب لا يراهم حوله. كان بقلبه وشـــعوره بـــين حرات المدينة.. يتذكر أصحابـــه وأهله، وحبيبته التي لا يدري ما فعل المرض بها، ولا يدري أي حالة تعيشها ابنته رقية.

ترى هل تعافت من مرضها، أم أن الأوجاع تداعت على شبابها؟ تذكر ﷺ المدينة ومن فيها فأرســـل ابنه زيد -زيد بن حارثة[4]- ليبشر المدينة بنصر الله، والقضاء على طواغيت قريش.. يبشـــر بأسر أشـــرافهم في يوم الإسلام العظيم.. يوم الفرقان، وقد كان ابنه أســـامة ابن زيد ملازماً لعثمان ورقية في مرضها، وكان مع أول من اســـتقبل والده وأخباره.

---

(١) حديث صحيح. صحيح الجامع (١-٣١٠).
(٢) حديث حسن. صحيح الجامع (١-٣٠٦).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠١٨).
(٤) كان يسمى في ذلك الوقت زيد بن محمد.

أســامة يحدثنا عن ذلك فيقول: (إن النبي ﷺ خلف عثمان بن عفان، وأسامة بن زيــد على رقية بنت رســول الله ﷺ أيام بدر، فجاء زيــد بن حارثة على العضباء ناقة رســول الله ﷺ بالبشارة، فسمعت الهيعة، فخرجت فإذا زيد قد جاء بالبشارة، فوالله ما صدقت حتى رأيت الأسارى، فضرب رسول الله ﷺ لعثمان بسهمه)[1].

وهذا يعني أن عثمان كان يريد الخروج مع رســول الله ﷺ، لكن رســول الله ﷺ أمره بالبقاء لتمريض زوجته رقية.

قال الشــاب عبد الله بن عمر بن الخطاب إن عثمــان بن عفان (كانت تحته ابنة رســول الله ﷺ، وإنها مرضت، فقال له رســول الله ﷺ: إن لك أجر رجل ممن شــهد بدراً وسهمه)[2].

لكــن أين رقيــة..؟ أين حبيبتك يا عثمان.. أين حبيبة رســول الله ﷺ وريحانته؟ الإجابة حزن على وجه عثمان، وعلى وجه أسامة.

ماتت رقية رضي الله عنها ووالدها بعيد عنها.. ماتت قبل أن ترى والدها، وتطمئن على ســلامته.. دون أن ترى أختها الحزينة زينب. ها هو الحزن من جديد يخيم على بيــت النبي ﷺ.. فاطمة تبكي، وأم كلثوم تبكي حزناً على رقية.. كم لعبوا ســوياً.. كم ضحكوا وتراكضوا وتســابقوا إلى حضن خديجة، وكــم تواثبوا وتزاحموا ليركبوا على ظهــر محمد.. ما أحوج فاطمة وأم كلثوم إلــى أبيهما، وما أحوجهما إلى خديجة.. ما أحوجهمــا إلى أختهما الكبيرة زينب.. ينثران على صدرها شــيئاً من الدموع، فزينب بعيدة هناك.. حزينة هناك.. في مكة لا يعلمان عنها شيئاً، ولا تعلم عنهم شيئاً.

ماتت رقية قبل أن يصل زيد بالخبر، فقد (وافق زيد بن الحارثة ابنه أسامة حين

---

(١) سنده حسن. رواه البيهقي (٣/١٣٠) أخبرنا أبو الحسن المقرئ وهو إمام حافظ ناقد. انظر السير للذهبي (١٧/٣٠٥) وشيخه الحسن الدقاق صحيح السماع من أهل القرآن والصلاح. المصدر السابق (١٥/٥٣٥) وتاريخ بغداد (٧/٤٢٢) وشــيخه هو الثقة يوســف ابن يعقوب القاضي. تاريخ بغداد (١٤/٣١٠) وشــيخه أحد رجال الشــيخين: الثقة محمد ابن أبي بكر المقدمي. التقريب (٢/١٤٨) وشــيخه حسن الحديث فهو صدوق في حفظه شــيء. التهذيب (٨/٥٨) والتقريب (٢/٧٢) وهو من رجال الســتة واســمه عمرو بن عاصم الكلابي وشــيخه ومن فوقه أئمة ثقات: حماد عن هشــام عن عروة عن أسامة بن زيد. وللحديث شاهد يأتي.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٦٦).

سوى التراب على رقية بنت رسول الله، فقيل له: ذاك أبوك، حين قدم.

قال أسـامة: فجئت وهو واقف للناس يقول: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل، ونبيه، ومنبه، وأمية بن خلف.

فقلت: يا أبت أحق هذا؟ قال: نعم والله يا بني)[1]

ويختلط الحزن في أجواء المدينة بالفرح، ويبتهج بقية المهاجرين والأنصار بالخبر الذي لا يصدقه إلا مؤمن، ويخفف النصر من الحزن والدموع المنثورة على رحيل رقية، ويخيـم الليل والوجـد على عثمان.. إنه يعود إلى منزله، فـلا يجد فيه رقية.. كم هو مشـتاق إليها.. كم هو وحيد دون رقية، وكم هو وحيد وقد انقطع نسبه مع النبي ﷺ. يا له من ليل حزين لا تبدده إلا الصلاة.

هذا ما يحدث في المدينة، أما على أرض المعركة فتتسـلل خيوط الفجر إلى سـماء بدر، ويشرق بلالٌ بالأذان، ويستيقظ من كان نائماً، ويصلي الجميع خلف رسول الله ﷺ. إنه فجر اليوم الثالث بعد انقضاء المعركة، حيث يأمر ﷺ بالاسـتعداد للعودة إلى المدينة، ويطلب تهيئة راحلته، ويفرغ الجميع مما أمروا به، فينطلق ﷺ إلى غير ما توقع الصحابة، فهذا ليس بطريق المدينة.. إنه يتوقف ويتحدث إلى أقوام بشـيء مفزع ومخيف جعل أحد الصحابة يستفسره عن ذلك؟

أنس بن مالك يحدثنا عن ذلك المسير، وعن ذلك التساؤل فيقول: (فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشـدت عليها رحلها، ثم مشـى واتبعـه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شـفى الركى[2] فجعل يناديهم بأسـمائهم وأسماء آبائهم: [يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعـة... أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقـاً؟] يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسـركم أنكم أطعتم الله ورسـوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

---

(١) حديث حسن. رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢١٧): حدثني عبد الله بن أبي بكر، وصالح بن أبي أمة عن أبيه.. وهذان طريقان يقوي بعضهما بعضاً لأن صالحاً لم يوثقه إلا ابن حبان. ويشـهد للحديث حديث أسامة السابق.

(٢) حافة البئر.

فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رســول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما أنتم بأســمع لما أقول منهم [ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا(١)](٢) ولا يقدرون على أن يعودوا فيتوبوا. مصير أســود رســموه لأنفســهم، وجحيم مرعب تســابقوا إليه، وهم يحملون أصنامهم. أما رســول الله ﷺ فقد تركهم وما تســابقوا إليه، وانعطف براحلته نحو عواطف جياشةٍ تنتظره في طيبة الطيبة، فليت شــعري كيف استقبله أحبابه هناك؟ أيهنئون أنفسهم به ويهنئونه بنصر الله؟ أم يعزونه في رقية..؟

كيف استقبله عثمان هناك؟ كيف كانت حالته ﷺ عندما زاحم الحزن فرحاً يزين صــدره؟ كيف كانــت حالته عندما التقت عيناه بعيني فاطمــة وعيني أم كلثوم؟ وكيف شكتا له الوجد على أختهما الحبيبة..؟

لــم تصفُ الحيــاة لمحمد ﷺ.. لم تصفُ لحبيب الله، فالحــزن والمعاناة جزء من حياته.. يفقد ابنته الشــابة، ويصبر ويحتســب ويتوهج بوعــد الله، فيخفف عن غيره مصيبته ولوعته رغم ما هو فيه، ويقول لعثمان: (لك أجر رجل شهد بدراً وسهمه)(٣)

وفي مكان آخر من المدينة تركض أم حارثة.. ذلك الشــاب المكلف بالمراقبة والرصد، والذي استشــهد هناك في بدر. أمه اليوم مذهولة تتلقى الركب.. تمســك بأزمة المطايا.. تسأل عن حبيبها وفلذة كبدها، فيقع الخبر عليها كالموت، فيحملها الحزن إلى نبيها ﷺ.

لقد (أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رســول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتســب، وإن تكن الأخرى تــرى ما أصنع. فقال ﷺ: ويحك، أَوَهبلــت؟ أَوَجنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه في جنة الفردوس)(٤) و(الفردوس ربوة الجنة وأعلاها وأوسطها، ومنها تفجر أنهار الجنة)(٥).

---

(١) أي أنهم يستمعون لقوله ﷺ حقاً أثناء خطابه لهم.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري عن أنس (٣٩٧٦) وما بين المعقوفين عند مسلم عن أنس.
(٣) حديث صحيح مر معنا وهو عند البخاري (٤٠٦٦).
(٤) حديث صحيح. رواه البخاري -٤-١٤٦٢.
(٥) حديث صحيح. (صحيح الجامع الصغير ٢-٧٨٩).

سافر حارثة إلى الفردوس، إلى مدنها الساحرة، وبحيراتها وأنهارها ويخوتها ومركباتها المبحرة والطائرة والسيارة.. سافر إلى أحلامه وأمانيه ليجدها فوق ما يتصور ويتخيل ويحلم، فيتمنى العودة ليقتل مرات ومرات حتى يرى أنه استحقها. أما أمه الثكلى فعادت إلى بيتها صابرة محتسبة، فلقد حول الإسلام حزنها إلى مبعث لسعادتها، فاختلطت دموع الحزن بالفرح عند المؤمنين فـ (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)(١). وعجباً لهذا النبي ما أرحمه. إنه يتجاوز أحزانه إلى الآخرين، ليخفف عنهم، ليحثهم على الإبحار مع شهدائهم في أنهار الجنة، وأهل بيته كانوا مثله.. يواسون تلك البيوت الحزينة، كهذا البيت الذي تنوح فيه عفراء رضي الله عنها:

عفراء حزينة تنوح

عفراء حزينة على صغيريها. عاد الرجال من القتال.. عاد المحاربون بالأسرى والجمال، ولم يعودوا بالصغار.. لم يعودوا بعوف، ولا بمعوذ، ولن تراهما عفراء بعد الآن، ولن تناديهما لقضاء حوائجها بعد اليوم.. لن تبحث عن عروس لعوف، أو لأخيه، ولن تسعد مع نساء المدينة بزفاف بهيج لهما. ولن تفرح بأحفادها منهم.

عفراء مشتاقة إلى صغيريها.. يحترق جوفها من الحزن، وتحمر عيناها من البكاء، ولا يدرك وجد الأم إلا الأم.. خيمة حزن بيت عفراء، أما بيت النبي ﷺ فكان غيمةً من المشاعر.. تمتد إلى الجميع. ها هي سودة وقد سمعت بما حدث لعوف وأخيه.. تتوجه إلى بيت أمهما.. تواسيها، وتعزيها، وتخفف أحزانها ببشرى الشهادة، فصغيراها قد اجتثا فرعون الأمة، وعدو الله ورسوله، وهو أمر يسر أهل السماوات والأرض، ويُخلد ذكرهما، وذكر أمهما. مكثت سودة رضي الله عنها وقتاً عند عفراء، لكن مفاجأةً أخرجتها فعادت إلى بيت زوجها ﷺ متأثرةً بحال تلك الأم الوالهة الجريحة، وتأثرت كذلك بوقع تلك المفاجأة، فتحولت مشاعر سودة إلى كلمات عاتبها الرسول ﷺ عليها فـ:

---

(١) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٩٥.

ماذا قالت سودة حتى عاتبها زوجها

هذه هي القصة كما يرويها لنا الأنصاري عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنهما فيقول : (قُدم بالأسـارى حين قدم بهم المدينة، وسـودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ ابني عفراء، وذلك قبل أن يضرب الحجاب. قالت سـودة: فوالله إني لعندهم، إذ أُتينا فقيل: هؤلاء الأسارى قد أتي بهم، فرجعت إلى بيتي ورسـول الله ﷺ فيه، فإذا أبو يزيد (سـهيل بن عمرو) فـي ناحية الحجرة، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيد كذلك، أن قلت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم! ألا متم كراماً؟.

فمـا انتبهـت إلا بقول رسـول الله ﷺ من البيت: يا سـودة أعلى الله ورسـوله تحرضين؟!

فقلت: يا رسـول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسـي حـين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل، أن قلت ما قلت)[1].

لقد غمرت سـودة أجواءٌ مشـحونة بالأحـزان، والأحداث والمفاجـآت.. تتدافع نحوها.. تتهـاوى عليها، وكأن العالم يتقوض فوق رأسـها. فتنفلت منها تلك الكلمات دون أن تشـعر.. موت رقية، ومناحة عفراء، وأسـير من سـادات قريش وكرمائها في حجرتهـا.. خطيب قريش وحكيمها مجموعـة يداه إلى عنقه.. متكوم كالذل في زاوية الحجرة.. منظر يثير الشـفقة والرأفة، وامرأة رقيقة المشـاعر زادها الإيمان شفافية تشـهد ذلك كله، لكن رسـول الله ﷺ لم يعنفها.. لم يكفرها بتلك الحروف الشاردة. كان ﷺ مربياً. أشـعرها دون أن يخدش مشاعرها، وأعادها دون أن يجرحها. سألها سؤالاً.. سأل إيماناً متجذراً في أعماقها، فأفاقت واعتذرت لله ولرسوله ﷺ، وأفاقت المدينة كلها على وقع الحوافر والخفاف، الجمال والخيل والأحمال تملأ شوارع المدينة، والحقد والغيظ يملأ قلوب اليهود والمنافقين، فقد اسـتجاب الله لرسـوله (حين خرج

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ومن طريقه الحاكم (٣/٢٢): حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسـعد بن زرارة عن جده.. وشـيخ ابن إسـحاق ثقة (التقريب ٢٩٧) ويحيى تابعي ثقة (التقريب ٥٩٣) وجده صحابي.

فقال: اللهم إنهم عراة فاكسـهم، اللهم إنهم جياع فأشـبعهم، ففتح الله لهم يوم بدر، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين واكتسوا وشبعوا)[1]

فرح وعناق في الشـوارع، وعلى الأبواب وخلف الأبواب، ورغم هذا الفرح المتدفق في الشـوارع والقلوب.. كان ﷺ مأخوذاً بهموم وهموم.. الدعوة والقيادة والأسـرى، وبيته الحزين على رقية، وزينب البعيدة بين جبال مكة.

يا له من شـوق حمله ﷺ إلى المشي حيث يؤسـر زوجها وابن خالتها (أبي العاص بن الربيع) إنه الآن بين الأسـرى، ولا أدري في أي حجرة هو. لكن شـوق النبي ﷺ إلى ريحانته زينب يأخذه إلى حيث يقبع أبو العاص، ليحدثه في شأن زينب، فلا يتركه حتى (أخذ عليه أو وعده أن يخلي سـبيل زينب إليـه)[2] ولكن هذا لا يعني أن يعفى زوج ابنة رسول الله ﷺ من الفداء. فهو أحد الأسرى، ولا فرق بينه وبينهم، وما طلبه الرسول ﷺ منه كان طلباً شـخصياً لا علاقة له بالحرب، فزينب هي ابنة خديجة بنت خويلد، وأبو العاص هو ابن خالتها هالة بنت خويلد.. هالة التي كان تحلق برسول الله ﷺ في أجواء من الذكريات الحبيبة، فتثير الغيرة في قلب الشابة عائشة رضي الله عنها.

تحدثنا أم المؤمنين عن غيرتها فتقول: (اسـتأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع فقال: اللهم هالة! فغرت)[3].

وسـوف ينفذ أبو العاص ويفي بوعده، فهو رجل كريم حسـن الخلق وإلا لما زوجه رسول الله ﷺ أكبر بناته.

غادر ﷺ أبا العاص بن الربيع إلى أسـير آخر يتململ من أسـره، وتخجله ثيابه الممزقـة.. إنه عمه (العباس) الذي أحزن منظر ثيابه رسـول ﷺ، لكن أحد مشـركي المدينة شعر بالشفقة على مشركي قريش، فقام بعمل يكسب به معروفاً على النبي عليه السلام، ومعروفاً على مشركي قريش.

---

(١) حديث حسن مر معنا وقد حسنه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٢/٥٢٥).
(٢) حديث حسن. رواه أبو داود وحسنه الإمام الألباني (٢/٥١٢).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري ٣-١٢٨٩ ومسلم ١-٤١٠ .

(عبد الله بن أبي بن سلول) الوثني الحاقد على هذه الدولة التي تحميه، المحتقن مـن هذا الانتصار العظيم يقدم هدية للعباس. جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: «لما كان يـوم بدر، أتى بأسـارى، وأتـى بالعباس، ولم يكن عليه ثـوب، فنظر النبي ﷺ له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه، فكساه النبي ﷺ»[1]

شكر النبي ﷺ ابن سلول صنيعه وحفظه له، وترك عمه العباس في أسره، وتوجه نحو أصحابه، وتحدث معهم عن الأسـرى، فجرى الحديث على ذكر أحد شيوخ قريش في الأسر، فكانت:

المعجزة

لقد قيل إن (في الأسرى (أبو وداعة بن صبرة السهمي)، فقال رسول الله ﷺ: إن له بمكة ابناً تاجراً كيساً ذا مال، كأنكم به قد جاءكم في فداء أبيه)[2] وابنه هذا اسمه: المطلب بن أبي وداعة. معجزة ينطق بها ﷺ، وهو لا ينطق عن الهوى، لكن ما السـبب الذي جعل المطلب ينهض مسرعاً نحو المدينة؟

دعونـا ننتقل إلـى أجواء مكة الكئيبة.. بين منازلهـا وجبالها. حيث أصاب حجر فـارس الأحـلام، الذي رأته عاتكة بنـت عبد المطلب في منامهـا كل منزل من منازل قريش، وشـظايا ذلـك الحجر الآن نزيف في كل قلب يسـكن مكـة. امتلأت البيوت والأخبية بالبكاء والعويل، وشقت الثياب، وارتفع النواح، ونثر التراب على الرؤوس. فأبو سفيان الذي نجا بالقافلة لم ينج من جراح بدر، فقد أثخنته في أعماقه.. ها هي هند بنـت عتبة زوجته تنوح وتنـوح، وقد أصيبت بما لم يصب به غيرها. التهمت الصحراء والدها عتبة، وعمها شـيبة، وأخاها الوليد، وهم شـجعان العرب وسادة قريش. ترى ماذا فعلت هند بثيابها؟ وإلى أي مدى ارتفع نشيجها ونواحها؟ وهناك (أم جميل) أخت أبي سفيان.. حمالة الحطب المجرمة. لا بد أنها احترقت بما سمعت، وهناك زوجة أبي جهل.. ماذا فعلت عندما أخبرها عكرمة بقصة هلاك والده؟ وزوجة أمية بن خلف.. لا بد أنه قد جن جنونها عندما علمت بموت زوجها الشنيع مع ابنها علي.

---

(١) صحيح البخاري ٣-١٠٩٥.

(٢) تخريجه في الحديث التالي فهو جزء منه.

أبو لهب طار صوابه لدوي انتصار ابن أخيه.. يطرق المدى والآفاق.. أجواء بائسة بائسة، ومكة تكاد تحترق بأنفاس أهلها وغيظهم.. الذهول تجده في كل زاوية، وعلى كل وجه.

لكـن هناك من اختلطت في نفسـه مشـاعر البهجة بالأسـى.. عاتكة بنت عبد المطلـب تفرح بتحقق رؤياهـا، وهلاك طواغيتها، لكن العبـاس وعقيلاً قد وقعوا في الأسر. وفي بيت عقبة بن أبي معيط كانت ابنته المحبوسة (أم كلثوم) لا بد أنها حزنت كثيراً لموت أبيها مشركاً. فإذا تخطينا عدة أبيات، ثم توقفنا ودلفنا.. وجدنا زينب ابنة النبي ﷺ والوجوم يلفها.. زوجها أسـير، ووالدها وأخواتها بعيدون عنها، وبعض أهل مكة يقتلونها بنظراتهم، لكنها تصبر وتحتسـب المرارة والحزن عند الله، وتسـمع عن الفـداء، فترفع يديها خلف رقبتها، وتحل رباط قلادة لها، وتبحث عن أمين يبعث بهذه القلادة إلى والدها، عل هذه القلادة تحرر أسيرها وحبيبها.

أما المطلب بن أبي وداعة، والذي تنبأ الرسول ﷺ بقدومه إلى المدينة ليفك أسر أبيه، فيسـير نحو مجلس لبعض رجالات قريش، الذين ندموا على كثرة النواح والعويل على من التهمتهم الصحراء في بدر. فماذا قال المطلب في ذلك المجلس؟

لقـد (كانت قريش ناحت على قتلاهـا، ثم ندمت، وقالوا: لا تنوحوا عليهم، فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم،...

فلما قالت قريش في الفداء ما قالت، قال المطلب: صدقتم والله لئن فعلتم ليثأرن عليكم. ثم انسـل في الليل، فقدم المدينة، ففدى أباه بأربعة آلاف درهم)[1] واصطحبه معه إلى مكة، ورأى الصحابة معجزة نبوية أخرى، وتتابع المشركون بعده يفدون أسراهم بأموالهم، لكن هناك من يحلم بـ:

إطلاق الأسرى دون مقابل

أحدهم كان يحمل طموحاً أكبر، فهو يطمح إلى إطلاق جميع الأسـرى. إنه الذي رأى الملائكـة على أرض بدر، وهو أحـد وجهاء قريش: (جبير بن مطعم بن عدي) ابن

---

(١) سنده حسن رواه الطبراني (الجزء المفقود رقم ١١) من طريقين:.. وهب بن جرير و... عبيد بن عقيل قالا: حدثنا جرير بن حازم، حدثنا ابن إسحاق، حدثني يحيى بن عباد عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير. صرح ابن اسـحاق بالسـماع من التابعي الثقة يحيى بن عباد التقريب ٥٩٢ وأبوه تابعي ثقة وجرير ثقة إلا عن قتادة وهذا ليس منه ووالده أوثق منه.

ذلك الشـهم الكريم «المطعـم بن عدي».. يمتطي راحلته متجهـاً نحو المدينة، ليجتمع برسول الله ﷺ في محاولة منه لإطلاق سراح الأسارى من قومه، لكنه يقع في الأسر. لم يأسره أحد من الصحابة، ولا حتى من قطاع الطرق! أسره القرآن وهو يمشي بهدوء بمحاذاة جدار مسجد النبي ﷺ.. في سويعات هادئة بعد الغروب.

يقـول جبير: إنه (جاء في فداء أسـارى أهل بدر، فوافقت رسـول الله ﷺ يقرأ فـي صلاة المغرب: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾﴾ فأخذني من قراءته فكان ذلك أول ما سمعت من أمر الإسلام)[1] (فسمعته وهو يقرأ وقد خرج صوته مـن المسـجد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾﴾ فكأنما صدع قلبي)[2]، (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[3]، فاسـتجاب جبيـر بن مطعم لقلبه الذي تعلق بهذا الصوت المنساب من المسجد، فتوقف يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ﴿٨﴾ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴿١٠﴾ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ

---

(١) حديث حسـن من أجل أسـامة بن زيد الليثي وهو حسـن الحديث إذا لم يخالف ويشهد له ما بعده عند البخاري.. والحديث رواه الطبراني (٢-١١٧).

(٢) حسـن. رواه الطبراني (٢-١١٧-١١٨) من طريقين عن هشيم وعزاه لأبي يعلى وهشيم رواه من طريقين: حدثنا سفيان بن حسين عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه. وأخبرنا إبراهيم بن محمد بن جبير عن أبيه عن جده. وقد صرح هشيم، وسفيان ثقة في غير الزهري، فهذه الطريق ضعيفة وأما الطريق الثانية فهشـيم سـمعه من الزهري ومع ذلك فهو معلول لأنه كتب عنه فطيرت الريح أوراقه بعد خروجه فأصبح معلول الحديث إذا روى عنه. وهذان الطريقان يقوي بعضهما البعض بالإضافة إلى حديث البخاري.

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

يقول جبير: (فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾. كاد قلبي أن يطير)[2].

كان جبير خلف الجدار يشقى بقلبه، بينما كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة ينعمون بالقرآن والصلاة حتى أتموا صلاتهم، ثم سلم النبي ﷺ وسلم الصحابة من خلفه، وبعد قليل انصرفوا، وانصرف النبي ﷺ، فتوجه إليه جبير ابن مطعم، فاستقبله النبي ﷺ بكل الوفاء والعرفان مذكراً إياه بكرم أبيه «المطعم بن عدي». قدَّم جبير للنبي ﷺ التماساً يطلب فيه إطلاق الأسرى من قريش، لكن إجابة الرسول ﷺ كانت مخرسة.

لقد قال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[3] فهِمَ جبير بن مطعم إجابة النبي ﷺ، فانصرف بغير القلب الذي جاء به.. يحمل إيماناً يصارع كفراً.. يحمل همَّ عمه الذي قتله حمزة، ويحمل تقديراً للنبي ﷺ وإجلالاً، بعد أن سمع ما يسر من ثناء على أبيه واحتفاظ بالجميل.

عاد جبير إلى مكة ولم يعد الأسرى، وما زال أبو العاص بن الربيع بينهم، وذات يوم يصل إلى المدينة رجل يحمل مالاً، ويحمل قلادة إلى رسول الله ﷺ، فيأخذ عليه

(١) سورة الطور: الآيات ٧-٣٧.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٥٤).
(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٠٢٣).

السلام تلك القلادة، وتهتز نياط قلبه وهو يقلبها، وتتعلق عيناه بها فتحمله بعيداً.. بعيداً حيث خديجة.. حيث زينب وحيث مكة الحبيبة، فينضح قلبه بالحزن، ولسانه بالرجاء لأصحابه أن يخففوا أحزانه وأحزان حبيبته.

فيتأثر من حوله بمشهد الحرمان والشوق والغربة الذي يحيط بهذا النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم جميعاً.

تقول عائشة رضي الله عنها: (لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة، أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا. فقالوا: نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليها الذي لها)[1] وقبل أن ينطلق أبو العاص إلى زينب أكد لرسول الله ﷺ أنه سيبعث بزينب، وذلك بتحديد مكان تلاقي فيه من سيرسله رسول الله ﷺ لمرافقتها في طريق هجرتها. هذا المكان هو أحد بطون الأودية واسمه (بطن يأجج)، وهو قريب من مكة. ثم انطلق أبو العاص إلى مكة، ولما وصل إلى زينب فرحت به، وفرح بها وسلمها قلادتها وحريتها، فاختارت الله ورسوله، وتوجهت إلى (بطن يأجج) بصحبة ابنتها الصغيرة أمامة.

أما في المدينة فقد (بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار فقال: (كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما زينب، فتصحبانها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شيعة، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها فخرجت جهرة)[2] بعد أن سلمها أبو العاص قلادتها وحريتها، وأبقى لنفسه الهواجس والحرمان. وفي بطن (يأجج) رافقها أخوها زيد وصاحبه إلى أبيها.. إلى المدينة المنورة بالإسلام. فرح بها رسول الله ﷺ.. فرحت بها فاطمة، وفرحت بها أم كلثوم، لكن وصولها لامس

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وأحمد ٦-٢٧٦ وغيره من طريقه: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة. وهو سند مر معنا فيحيى ثقة ووالده أوثق منه.

(٢) هذه الزيادة هي آخر الحديث السابق وبالسند نفسه عند الطبراني ٢٢-٢٨ وأبي داود ٢٦٩٢ وهي زيادة قوية وتلميذ ابن إسحاق هو محمد بن سلمة الباهلي ثقة من رجال مسلم التهذيب ٩-١٩٤ وتلميذ ابن سلمة شيخ أبي داود ثقة حافظ عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل وتلميذ النفيلي - شيخ الطبراني هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن أبي شعيب وهو ثقة كما قال الدار قطني (بلغة القاصي ٨٨).

جرحاً في أعماقهن على رقية الراحلة.. الراقدة تحت أطباق الثرى.. ذكرى رقية، وما أصابها في سبيل الله من غربة وآلام.. آذاها المشركون في مكة، فهاجرت مع عثمان إلى الحبشة، ثم عادت إلى مكة، ثم هاجرت إلى المدينة، ولم يطل بقاؤها في المدينة حتى اجتاحتها أوجاع خطفتها، وخطفت شبابها.

كان ذلك كله في سبيل الله، وهذا ما يهون من الحرقة عليها، فهي راحلة إلى النعيم الخالد. تلك هي قصة زينب وأسيرها فـ:

ماذا عن بقية الأسرى

غادر الأسرى إلى مكة بعد أن دفعوا الفدية، ولكن بقي أناس منهم لا يملكون فداءً ولا مالاً.. استخفهم أبو جهل فأطاعوه، وقد ذهب أبو جهل إلى النار وتركهم بين القيود، وهناك آخرون رفض أهلهم دفع الفداء، فماذا سيفعل بهم الرسول ﷺ؟

هل سيقتلهم، أم سيكون الأسر وأعمال السخرة والتعذيب مصيرهم حتى تجمع لهم قريش مالاً؟

لا هذا ولا ذاك. إن رسول الله ﷺ أكبر من أن يكلفهم ما لا يطيقون، والإسلام ما جاء ليصادر الحريات، بل ليدعمها ويطلقها في طرقات البناء والإسلام.

نزل القرآن الكريم يقول للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾[1].

كلمات تسقي بذور الخير في قلوب هؤلاء الأسرى، وتجعلهم أصحاب أفق أبعد، وتفكير أرقى.. كلمات تقدم المغفرة والجنة، فمن أراد الإسلام فلا حاجة لأسره، فليعش بين أهل المدينة على الرحب والإيمان والسعة. أما من يأبى ذلك، فلا حاجة للمسلمين في حبس حريته.. أبواب الحرية أمامه مشرعة، لكن عليه قبل ذلك أن يؤدي.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٠.

وبذلك يستفاد منه ومن بقائه بين أظهر المسلمين، بدلاً من إرهاق ميزانية الدولة المسلمة الفقيرة بالإنفاق عليهم.. رغم أن هذا الإنفاق فيه أجر عظيم، وعظيم جداً. كما قال تعالى في وصف الصحابة أنهم: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[1] لذلك أمروا بالخدمة الاجتماعية. فما هي الخدمة التي أداها هؤلاء مقابل حريتهم؟

يقول أحد الصحابة: (كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة)[2] وقد حدثت قصة طريفة بين أحد هؤلاء الأسارى وبين والد أحد أولئك الأطفال، عندما (جاء غلام من أولاد الأنصار إلى أبيه فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي.

قال: الخبيث يطلب بذحل بدر؟ والله لا تأتيه أبداً) أي يأخذ ثأره مما حدث له في غزوة بدر بضرب ذلك الطفل.

وبذلك يؤكد النبي ﷺ مبدأ العلم، وأنه (فريضة على كل مسلم)[3] كما يفتح ﷺ باب خدمة المجتمع كبديل للحبس. فتعلم جزء كبير من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وتفوق المسلمون على عدوهم حرباً وعلماً، وعاد بقية الأسرى إلى مكة، بعد أن أدوا تلك الوظيفة الاجتماعية.

أصابت الدهشة جزيرة العرب لهذا الانتصار، وتفاقم الحقد في نفوس اليهود، وضاقوا بما جرى، ولا أدري لم كل هذا الحقد اليهودي والحسد والأمر كوجه الشمس؟

إنه النبي الذي جاء ليحررهم من الاضطهاد والطغيان، ويخفف عنهم بعض الأحكام التي عوقبوا بها لتمردهم. لا أدري لم كل هذا التبرم والعناد وهم يعرفون أنه ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٨.

(٢) سنده قوي. رواه أحمد ١-٢٤٧ وغيره عن علي بن عاصم حدثنا داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس.. وهو صحيح لولا أخطاء ابن عاصم فهو صدوق يخطئ التقريب ٤٠٣ وهو هنا لم يخطئ فقد تابعه خالد بن عبد الله الطحان ثقة ثبت من رجال الشيخين.

(٣) حديث صحيح. (صحيح الجامع ٢-٧٢٧).

﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1]، وقد تمكن الأحبار والرهبان فيما بعد أن يحذفوا اسم محمد ﷺ من التوراة والإنجيل، لكنهم لم يتمتعوا بقدر من الذكاء يمكنهم من طمس كل شيء يتعلق بمحمد في التوراة والإنجيل. لقد كانوا من الغباء بحيث أبقوا على وصف أحداث وأماكن لا يمكن أن تنطبق إلا على محمد ﷺ، فمثلاً غفلوا عن هذه الكلمات في التوراة، والتي تقول: (هذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال: أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من جبل ساعير وتجلى من جبل فاران)[2] حذفوا اسم محمدٍ ونسوا كلمة (فاران) فجبال فاران هي جبال مكة، وموسى وعيسى، وكل أنبياء بني إسرائيل ليس لهم علاقة بجبال فاران، أي جبال مكة حسب التوراة والإنجيل. فمن هو النبي الذي أوحي إليه وهو فوق جبال فاران، كما أوحي إلى موسى بين جبال سيناء، هل هناك غير محمد ﷺ؟!

شيء آخر.. إنه حادث الهجرة، وحتى غزوة بدر أيضاً كان لهما إشارة في التوراة، وقد حذف الأحبار اسم محمد ﷺ، لكنهم نسوا أن الاسم وحده ليس كل شيء، فالأحداث مفصلة على محمد ﷺ وحده. هكذا تقول توراتهم: (وحي على بلاد العرب، في الوعر في بلاد العرب، بيتوا في صحراء العرب يا قوافل الدّدانيين، هاتوا ماءً للعطشان، يا سكان تيماء استقبلوا الهارب الجائع بالخبز[3]. هم هاربون من أمام السيوف، ومن أمام القوس المشدودة، وويلات الحرب، وهذا ما قاله لي الرب. بعد سنة يفنى كل مجد قيدار (عدنان)، ولا يبقى من أصحاب الأقواس من جبابرة بني (عدنان) قيدار غير القليل)[4].

هذه هي النبوءة التي غفل عنها الأحبار، وتعسف في تأويلها الشراح اليوم، هل تنطبق على نبي غير محمد ﷺ؟ من هو الذي جاء بالوحي من جهة بلاد العرب؟ من هو الذي هرب وأصحابه من شدة العذاب ولظى السيوف؟ من هو النبي الذي هرب

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٢) الكتاب المقدس ٨٧٥ وانظر محمد...

(٣) أي رسول الله ﷺ ومن معه... وتيماء واحة عربية والدّدانيين شعب عربي.

(٤) الكتاب المقدس، إصحاح إشعيا، ٢١، ص٨٧٥.

مـــن قومـــه (بني عدنان) ثم حاربهم بعد عام؟ من هو الذي أفنى جبابرتهم ولم يبق من جبابرتهم سوى القليل..؟

مـــن هـــو النبي الذي أفنـــى هيبة قريش، وهـــم بنو عدنان بعد ســـنة من هجرته وهروبه، ثم إن هناك حقيقة كالشمس تزداد سطوعاً كلما حاول اليهود إخفاءها.. هذه الحقيقة هي أن التوراة تخاطب اليهود.. اليهود وحدهم، وهي تطلب منهم أن يستقبلوا حامـــل الوحي القادم مـــن بلاد العرب، ومن فاران بالتحديـــد، بالترحاب والخبز، وأن ينصروه فهو هارب من الســـيوف المسلولة والأقواس المشدودة، فلماذا انتقل اليهود من أرض الشام إلى المدينة (يثرب) لماذا تركوا الديار المقدسة الباردة إلى يثرب ذات المناخ الحار، والحمى القاتلة؟

الســـبب واضح: هو أن التوراة كانت فيها تفاصيل أكثر عن هذا النبي، وعن مكان هجرته، وعن وقت خروجه. وإلا فما الذي حشـــر اليهود وجعلهم يزاحمون العرب في (يثرب) ذات الحمى والجبال الوعرة؟ مالذي جعلهم يتحملون كل هذه المعاناة، إلا لأنهم كانوا يريدون أن يوافوا الهارب بالخبز، ويحطموا به العرب والعالم. لكن ويا لأسفهم.. هـــذا الهارب عربي من بني عدنان (قيدار). إنها بالنســـبة لهـــم كارثة. كيف ينقاد بنو إســـرائيل لنبي عربي بعد ذلـــك التاريخ الطويل والحافل بالكتـــب والوحي.. بعد تلك السلسلة الطويلة من الأنبياء العظام من اليهود؟

كيـــف ينقـــاد اليهود المثقفون إلى نبي من هؤلاء العـــرب الذين تغلب عليهم الأمية وتتغلغل في نفوســـهم الوثنية؟ العرب الذين لم يبنوا مدرســـة، ولـــم يؤلفوا كتاباً؟ كيف يرضى اليهود بنبي عربي من بني إســـماعيل..؟ إنه ليس من بني إســـرائيل (يعقوب)، لا ولا حتى من بني إســـحاق. أمر صعب، وحقيقة مـــرة يرفضها اليهود. إنها تعني في نظرهـــم أن يبقى اليهود وكتبهم وتاريخهم على الأرفف، وفي الخزائن لإفســـاح المجال لهذا الجديد الذي يحمله محمد ﷺ.

هذه قصة عجيبة تبين لنا ســـبب قدوم يهود إلى يثرب، وهي تتفق مع ما ورد قبل قليل في التوراة الموجودة اليوم. دعونا نســـتمع إلى رجال تأثروا بالتوراة أكثر مما تأثر بها اليهود أنفسهم.

يقول هؤلاء الرجال: (إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا، أن كنا نسمع من رجل من اليهود، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فكنا كثيراً ما نسـمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسـول الله ﷺ أجبناه حين دعانا إلـى الله، وعرفنا ما كانوا يتواعدوننا به، فبادرناهم إليـه، فآمنا به وكفروا به، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيـة: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾)(١).

إذاً فهـم في الحقيقـة لا ينتظرون نبياً يهديهم إلى الحـق، وينقلهم من الظلمات والشـرك إلى التوحيد والنور. لقد كانوا ينتظرون ملكاً يبيدون به الجيوش، ويتحكمون به في العالم وثروات العالم، يريدونه مِن نسـل يعقوب وإسـحاق، لا من أبناء العمومة - أبناء إسـماعيل. وهـذا أحد اليهود يتلفظ قبل وفاته بهـذه الأمنية، ويبين لمن حول فراشـه وهو يموت سبب قدومه إلى يثرب، التي يسـميها أرض البؤس والجوع، تاركاً وراءه أرض الخضرة والخمر والأنهار.

يروي لنا هذه القصة رجل من يهود بني قريظة هداه الله للإسـلام، ويحدث من نقل لنا هذه الرواية فيقول: (هل تدري عمَّ كان إسـلام (ثعلبة بن سـعيد) و(أسيد بن سـعية) و(أسـد ابن عبيد) وهم نفر من بني هذل إخوة بني قريظـة. كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام؟

قلت: لا.

قـال: فإن رجلاً من اليهود من أرض الشـام يقال لـه (ابـن الهيِّبان) قدم علينا قبل الإسـلام بسـنين، فحل بين أظهرنا، لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلي الخمس أفضل منه. فأقام عندنا، فكنا إذا قحط عنا المطر قلنا لـه: اخرج يا ابن الهيِّبان فاستسق لنا.

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق ابن هشـام٢-٣٧: حدثني عاصم بن عمر ابن قتادة عن رجال من قومه قالوا: عاصم تابعي ثقة عالم سمع من هؤلاء الصحابة التقريب ٢٦٨.

فيقــول: لا والله، حتى تقدمــوا بين يدي مخرجكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر، أو مدين من شعير.

فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستســقي لنا، فوالله ما يبرح مجلســه حتى يمر الســحاب ويســقي. قد فعل ذلك غير مرة، ولا مرتين ولا ثلاثاً. ثم حضرته الوفــاة عندنا، فلما عرف أنه ميت قال: يا معشــر يهــود، ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قلنا: أنت أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلــدة أتوكف خروج نبي قــد أظل زمانه، هذه البلدة مُهاجــره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أظلكم زمانه، فلا تُســبقن إليه يا معشــر يهود، فإنه يبعث بســفك الدماء وسبي الذراري ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه)[1].

لكن ماذا فعل بنو قريظة بعد بعثة النبي ﷺ؟ هل نفذوا وصية هذا الرجل المشتاق؟ أبداً، لقد ظلوا على يهوديتهم المحرفة، ولم يســلم إلا القليل.. القليل منهم، لكن بعض اليهود لم يكتفوا بالكفر بمحمد ﷺ، بل تفاقم حقدهم فحاولوا نقض المصالحة، وهدم الجسر الذي شيده ﷺ بعد وصوله للمدينة بين أهلها جميعاً.. كفاراً ويهوداً ومسلمين، وكان أحد هؤلاء وأبرزهم يهودي حاقد.. يهودي شــرير أطلق لسانه بالشتم والسباب، ووظف موهبته الشــعرية في الهجاء والسخرية السافلة من الله ورسوله، وكتابه ودينه، ومن دولة الإســلام وأهلها. ومع ذلك كله يأمر الله نبيه ﷺ بالعفو والصفح والتحمل، وعــدم فتــح جبهة مع هذا الخائــن أو ذاك.. صالحهم ﷺ، وأمرهم بأن يعيشــوا في دولة واحدة.. متعاونين على أعدائها متناسين ما بينهم من خلاف، لكنهم خانوا العهد والميثاق، وتنكروا لحسن الجوار والأخلاق، وكان رأس الفتنة هذا يسمى:

كعب بن الأشرف

يحدثنا عنه وعن شــعره أعلم الناس بشــعره.. شــاعر الأنصار (كعب بن مالك) يتحدث عن كعب بن الأشرف فيقول: (إن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو رســول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش في شــعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينــة وأهلها أخلاطاً: منهم المســلمون الذين تجمعهم دعوة رســول الله ﷺ، ومنهم

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق وهو الحديث السابق.

المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج.

فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلماً وأخوه مشرك، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ المدينة يؤذونه أشد الأذى، فأمر الله رسوله والمسلمين بالصبر والعفو، فقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾.

وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ فأمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوا كعباً، فبعث إليه سعد (محمد بن مسلمة) و(أبا عبس) و(الحارث ابن أخي سعد بن معاذ) في خمسة رهط)[1].

فقال ﷺ: (من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟ فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم، قال: فأذن لي رسول الله أن أقول شيئاً.

قال ﷺ: قل)[2] أي سمح له ببعض الكلمات التي يمس فيها رسول الله ﷺ، لكي يخدع بها كعب بن الأشرف، ويتمكن من استدراجه حتى يجهز عليه ويتخلص منه ومن خيانته.

وجاءت ساعة التنفيذ فـ (مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم)[3].

---

(١) سنده صحيح. أرسله البيهقي (٣-١٩٧) ووصله أبو داود (٣٠٠٠) ومن طريقه رواه البيهقي: حدثنا محمد ابن يحيى بن فارس أن الحكم بن نافع حدثهم، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه. والحديث صححه الإمام الألباني في صحيح أبي داود (٣٠٠٠) فالزهري وعبد الرحمن تابعيان ثقتان وشعيب ثقة ثبت من أثبت الناس في الزهري التهذيب ٤-٣٥١: وتلميذه ثقة ثبت من رجال الشيخين التقريب ١٧٦ وتلميذه هو الحافظ الجليل والإمام الثقة المشهور (الذهلي).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣-١٩٥).

(٣) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٠٠): حدثني ثور بن زيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس. ثور الديلي وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب ١٣٥ وشيخه زيد إمام ثقة تلميذ ابن عباس رحمه الله.

إذاً فقد (بعث إليه سعدُ؛ محمدَ بن مسلمة وأبا عبس والحارث ابن أخي سعد بن معاذ في خمسة رهط أتوه عشية، وهو في مجلسهم بالعوالي، فلما رآهم كعب أنكرهم وكاد يذعــر منهم، فقــال لهم: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءت بنا إليك الحاجة. قال: فليدن إلي بعضكم فليحدثني بها.

فدنا إليه بعضهم، فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً لنا لنســتنفق أثمانها. فقال: والله لئــن فعلتم ذلك لقد جهدتم، قد نزل بكم هذا الرجل. فواعدهم أن يأتوه عشــاءً حين يهدأ عنهم الناس.

فجاءوا، فناداه رجل منهم، فقام ليخرج فقالت امرأته: ما طرقوك ســاعتهم هذه لشيء مما تحب. فقال: بلى، إنهم قد حدثوني حديثهم.

فاعتنقه أبو عبس وضربه محمد بن مســلمة بالســيف، وطعنه بعضهم بالسيف فــي خاصرته)[1] فغرق الحاقد بدمائه، وكان لهذا الغــرق تفاصيل أخرى يرويها أحد الأنصار، وهو جابر بن عبد الله فيقول: (قام محمد بن مســلمة فقال: يا رســول الله أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فَأْذَنْ لي يا رسول الله أن أقول شيئاً. قال: قل.

فأتاه محمد بن مســلمة فقال: إن هذا الرجل قد ســألنا صدقة، وإنه قد عنَّانا، وإني قد أتيتك أستسلفك. قال كعب: وأيضاً والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين.

فقال كعب: نعم أرهنوني. قالوا: أي شــيء تريد؟ قال: أرهنوني نســاءكم. قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قــال: أرهنوني أبناءكــم. قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيســب أحدهم فيقال: رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكن نرهنك اللامة[2].

فواعــده أن يأتيه، فجــاءه ليلاً ومعه أبــو نائلة -وهو أخو كعــب من الرضاعة- فدعاهــم إلى الحصن، فنزل إليهم، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الســاعة؟ فقال:

---

(١) جزء من حديث أبي داود والبيهقي السابق.

(٢) أي الدروع أو السلاح.

إنما هو محمد بن مسـلمة وأخي أبو نائلة. قالت: أسـمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسـلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليل لأجاب.

فقال محمد: إذا ما جاء فإني قائل بشـعره فأشـمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فنزل إليه متوشحاً وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت اليوم ريحاً أطيب.

قال كعب: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب.

فقال محمد: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال: نعم فشمه، ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لي؟ قال: نعم.

فلما اسـتمكن منه قال: دونكـم، فقتلوه. ثم أتوا النبي ﷺ فأخبروه)[1] وبشـروه بالقضاء على اليهودي مثير الفتن هذا، وكان أحد سادات يهود بني النضير.

هذا الحدث لم يكن سهلاً.. كان أثره عميقاً في نفوس يهود بني النضير، بل إنه قد هز أعماق المشركين من عبدة الأوثان أتباع الوثني المسمى بـ (عبد الله بن أُبي بن سلول) فعندما (قتلوه فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة، وهو سـيد من سـاداتنا فقتل. فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشـعاره، وينهاهم به، ودعاهم رسـول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم، وبين المسلمين عامة صحيفة كتاباً ينتهون إلى ما فيه.

فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[2] إذاً فقد تحول العهد والميثاق الشفهي إلى:

وثيقة وطنية مكتوبة بين النبي والمسلمين واليهود

ها هو أحد الصحابة يحدثنا بتفاصيل أدق للعملية السـابقة فيقول: (مشى معهم رسـول الله إلى بقيـع الغرقد، ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسـم الله، اللهم أعنهم،

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (٣/١٩٥-١٩٦).

(٢) جزء من حديث أبي داود والبيهقي. السابق وهو صحيح.

ثـم رجع رسـول الله ﷺ إلى بيتـه وهو في ليلة مقمـرة، فانطلقوا حتـى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتهـا وقالت: أنت امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه السـاعة. قال لها كعب: لو دعي الفتى لطعنة أجاب.

فنزل، فتحدث معهم سـاعة وتحدثوا معه، ثم قالوا: هل لك يا ابن الأشـرف أن نتماشى إلى شعب العجوز فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم.

فخرجوا، فمشـوا ساعة، ثم إن أبا نائلة شام يده في فود رأسه ثم شم يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط. ثم مشـى سـاعةً ثم عاد لمثلها حتى اطمأن، ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفودي رأسه ثم قال: اضربوا عدو الله.

فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تغن شيئاً،

قال محمد بن مسـلمة: فذكرت مغولاً في سـيفي، فأخذته وقـد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، فوضعته في ثنته، ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته، فوقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رجله أو في رأسـه، أصابه بعض سـيوفنا، فخرجنا حتى سلكنا على بني أمية بن زيد، ثم على بني قريظة، ثم على بعاث، حتى أسندنا في حرة العريض، وقد أبطأ علينا صاحبنا الحارث بن أوس ونزفه الدم، فوقفنا له سـاعة، ثم أتانا يتبع آثارنا فاحتملناه، فجئنا به رسول ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي، فسـلمنا عليه فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل رسول الله ﷺ على جرح صاحبنا، ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود بوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسـه)[1] بعد أن رأوا مصير هذا المتآمر، لا سيما وهو أحد زعماء يهود بني النضير وساداتهم.

ملأ الخوف نفوس مشركي المدينة أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وغيره، واهتزت حصون اليهود وأوثان المشـركين، فعقدوا اجتماعاً خائفاً وقصيراً، فيدُ الموت أصبحت

---

(١) سـنده صحيح. رواه ابن إسـحاق (سـيرة ابن كثير) وروى البيهقي أوله (٣/٢٠٠) من طريق ابن إسحاق: حدثني ثور بن يزيد الديلي عن عكرمة عن ابن عباس.. وقد صرح ابن إسـحاق بالسـماع من شـيخه.. وشيخه ثقة من رجال الشيخين. التقريب (١٣٥) وعكرمة تابعي وإمام معروف.

طويلة تمتد نحو كل خائن، حتى لو كان زعيماً ككعب بن الأشرف، فما الذي حدث بعد ذلك الاجتماع؟

(فزعت اليهود ومن كان معهم من المشركين، فغدوا على رسول الله ﷺ حين أصبحوا، فقالوا: إنه طرق صاحبنا الليلة وهو سيد من ساداتنا فقتل، فذكرهم رسول الله ﷺ الذي كان يقول في أشعاره وينهاهم به، ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة، كتبها رسول الله ﷺ تحت العذق الذي كان في دار ابنة الحارث)[1].

وثيقة وطنية مكتوبة تلقي على جميع سكان المدينة ومواطني الدولة الإسلامية.. مهما كانت ديانتهم، أقلية أو أكثرية.. مسئولية الأمن في هذه الدولة، وعدم ارتكاب أي شيء يزعزع أمنها، وتجنب أي تعاط مع خارج الدولة قد يسبب ضررا لها.

حدت هذه الوثيقة الوطنية من خيانة هؤلاء اليهود ومن يتعاون معهم من المشركين، أمثال عبد الله بن أُبي بن سلول، وغيره من عباد الأوثان. لقد أفحم رسول الله ﷺ قوم كعب بن الأشرف وأتباعه من يهود بني النضير، وأذنابهم من المشركين حينما هرولوا يحتجون على اغتيال ذلك الخائن.

لقد قدم لهم الوثائق التي تدينه.. أسمعهم ﷺ قصائده التي تنخر في عظام المدينة كلها، وكانت تلك القصائد تحرض على انفجار حرب أهلية تلون جدران المدينة بالموت والدماء.. تلك القصائد كانت تحرض قريشاً على التحالف مع اليهود ضد هذه الدولة الفتية، ولا أعرف سبباً واحداً يجعل كعباً وغيره يقدمون على إثارة الفتن والدماء. لقد عاملهم ﷺ بكل لطف واحترام، وجاء من أجل إنقاذهم.. كان ﷺ حليماً حكيماً في التصرف معهم، رغم إساءاتهم المتكررة له، ولدينه ولأصحابه. لقد سكت اليهود عندما سمعوا تلك القصائد، وكان في سكوتهم إدانة لهم. لكن النبي ﷺ لم يشملهم بالعقاب، إنما دعاهم إلى كتابة وثيقة عهد بينهم يأمن بعضهم شر بعض على أساسها، ويُلزم كل طرف بعدم التعاون مع أطراف خارجية ضد أحد أطراف تلك الوثيقة، ولو بالشعر فالشعر آنذاك هو الإعلام.

---

(١) حديث صحيح مر معنا وقد رواه أبو داود والبيهقي (٣-١٩٨).

وافــق بنــو النضير على ذلك، لكن دماء الحقد المتجمــدة الآن في عروق كعب بن الأشرف.. لا تزال حارةً متدفقة في شرايين بني النضير وغيرهم، فلم يمر سوى زمن يسير حتى:

أعلن يهود النضير وقريظة الحرب

يقول الشاب عبد الله بن عمر بن الخطاب: (إن يهود بني النضير وقريظة حاربوا رســول الله ﷺ، فأجلى رســول الله ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[1] لكن ما هي:

قصة إجلاء بني النضير

وكيف خانوا وحاربوا، وكيف تصرف رســول ﷺ معهم ومــع خيانة بني قريظة عندما نقضــوا تلك الصحيفة، التي أجمع عليها يهود المدينة كلهم؟ يحدثنا أحد أصحاب النبي ﷺ فيقول: (إن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبي بن سلول، ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورســول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة- قبل وقعة «بــدر» يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكــم أكثر أهــل المدينة عدداً، وإنا نقســم بالله لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنســتعن عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

فلما بلغ ذلك (ابن أبي) ومن معه من عبدة الأوثان تراســلوا فاجتمعوا، وأرســلوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة فقال: لقــد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكــم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم.

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة «بدر» فكتبــت كفــار قريش بعد وقعة بدر إلــى اليهود: إنكم أهل الحلقــة والحصون، وإنكم لتقاتلــن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نســاءكم شــيء (وهو الخلاخل).

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم والبيهقي (١٨٣/٣).

فلمـــا بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرســـلت إلى النبي ﷺ: أخـــرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج فـــي ثلاثين حبراً حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبـــي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثـــون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا فـــي براز[1] من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرســـلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ســـتون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليســـمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك.

فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه. واشتملوا على الخناجر وأرادوا الفتك برســـول الله ﷺ، فأرســـلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها -وهو رجل مسلم من الأنصار-، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول ﷺ، فأقبل أخوها ســـريعاً، حتى أدرك النبي ﷺ فســـارَّه بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم، فرجع النبي ﷺ.

فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه.

فأبـــوا أن يعطـــوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمســـلمون، ثـــم غدا الغد على بنـــي قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة (السلاح).

فجـــاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشـــبها، فكانـــوا يخربون بيوتهـــم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشـــبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشـــر الناس إلى الشام، وكان بنو النضير من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إســـرائيل الجلاء، فلذلك أجلاهم رســـول الله ﷺ، فلـــولا ما كتب اللـــه عليهم من الجلاء لعذبهم في الدنيا كمـــا عذبت بنو قريظة،

(١) في مكان مرتفع.

فأنـــزل اللـــه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ وكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة فأعطاه الله إياها وخصه بها فقال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال.

فأعطـى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسـمها بينهم، ولرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة، لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما)[1].

هــذه هي قصة يهود بني النضيــر.. قدموا إلى المدينة بحثاً عــن النبي المنتظر، فلمـا بعث هــذا النبي وجدوه عربياً وليس من بني إســرائيل، فكرهوه، وعاهدوه على مضض، ولما حانت لهم الفرصــة خانوه ونقضوا كل عهودهم ومواثيقهم معه، فعاقبهم الله بالشتات، فاستأنفوا رحلة الضياع من جديد بعد أن حاصرهم المسلمون، فصاروا يخربون بيوتهم غيظاً وحســداً حتى لا يستفيد منها المسلمون. لكن الغيظ القاتل جلل اليهود، ورافقهم عندما وجدوا المســلمين أنفســهم يخربون تلــك البيوت ولا يكترثون. فالمسلمون لم يحاصروا بني النضير من أجل بيوتهم وأموالهم ونخيلهم، بل لأنهم خونة، وإذا كان اليهود يرون في تلك البيوت ثروة للمسلمين، فالمسلمون لا يريدون تلك الثروة، ولا يقبلــون بقــاء الخونة بينهــم أو في جوارهم، بل لقد أقدم المســلمون على تصرف يحرقون به آثار اليهود.

---

(١) صحح إسناده الإمام الألباني في كتابه ·صحيح سنن أبي داود ٢-٥٨٢ حديث (٣٠٠٤) فقد قال: صحيح الإسناد. ولمزيد من التفصيل راجع موسوعة السيرة.

يخبرنا عن ذلك أحد الصحابة رضي الله عنه في قوله: (﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال: يستنزلونهم من حصونهم، وأمروا بقطع النخل فحاك في صدورهم، فقال المسلمون: قطعنا بعضاً، تركنا بعضاً، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ ﴾)[1] أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله.

هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم المسلمون، وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد، وجدران البيوت.. تربية تنتشر في كل اتجاه، وتصاحب المؤمن في كل مكان، وتحت أي ظرف.. في أوج الحروب. بين بريق السيوف والدماء وتفجر الحماس والغضب لله يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ عن صحة تصرفهم مع فسيلة نخل؟ الإسلام يشكل تعاملاتهم مع كل شيء، حتى مع جذوع النخل، بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية.

غادر اليهود من بني النضير إلى الشام، وإلى غير رجعة. غادروا يبحثون عن نبي غير عربي يأتيهم حسب رغباتهم، ويأتيهم بما يشتهون، وبقي منهم في المدينة من اختار الله ورسوله، ودخل في الإسلام مكرماً بين حفاوة المؤمنين. غادر (النضير) فهدأت المدينة، وعاد إليها المؤمنون بنصر جديد، وفرح جديد، وعاد عثمان إلى بيته، فعاد الحنين إلى رقية. شعر ﷺ بشوق عثمان وحزنه.. لا بد أنه شعر. ونبي الله ﷺ لا يكتفي بحمل المشاعر لمواساة المحتاجين إلى المواساة.. إنه يشع كالحب في المكان والإنسان.

ها هو يواسي عثمان، وها هو يواسي عمر وعلياً أيضاً.. يجعل منهم نسيجاً وأوشاجاً بارعة الجمال. تعالوا معي إلى البداية.. إلى بيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم، فقد كان لابن الخطاب ابنة سماها (حفصة) زوَّجها من صحابي اسمه: (خنيس بن حذافة السهمي) وكان خنيس أحد المهاجرين إلى الله ورسوله. لم

---

(١) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٦- ٤٨٣: أخبرنا الحسن بن محمد بن عفان، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا حبيب بن أبي عمر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.. سعيد تابعي مجاهد ثقة وحبيب وحفص ثقتان من رجال الشيخين، والحسن الزعفراني ثقة من شيوخ النسائي. انظر التهذيب (٧-٢٣٠، ٢-٣١٨ و٤١٥) وشيخه أوثق منه.

يعش خنيس مع حفصة طويلاً، فلقد توفي في المدينة رضي الله عنه، وبعد فترة من الزمن حدثت هذه القصة، التي يرويها عبد الله بن عمر فيقول (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تأيمت حفصة[1] بنت عمر، من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر: أتيت عثمان فعرضت عليه حفصة بنت عمر، فقلت: إن شئت أنكحتك؟ فقال: سأنظر في أمري. فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكر الصديق فقلت: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر؟ فصمت أبو بكر، فلم يرجع إلي شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان.

فلبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك شيئاً؟ قال عمر: نعم. قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت علي، إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها)[2].

فرح عمر بمصاهرة رسول الله ﷺ، وفازت حفصة بنبي الأمة عليه السلام، وقبل عمر اعتذار أبي بكر، أما عثمان بن عفان فعذره لا يحتاج إلى بيان، وحزنه يملأ حياته، لكن الله ورسوله أرحم بقلب عثمان من أن تذهب به الهموم أبعد من هذا. لقد زوجه رسول الله ﷺ من ابنته أم كلثوم رضي الله عنها، فعاد النبض والحياة إلى النسب بين عثمان وبيت النبوة الكريم.

ابتهج عثمان، وابتهجت أم كلثوم، وابتهجت المدينة بهذا العرس الجميل، فشع في صدر أبي بكر طمع مباح، وطموح كالأماني. رغب أبو بكر بقرب أكثر من رسول الله ﷺ، وكانت عيناه وقلبه باتجاه آخر أمل في ذلك.. باتجاه فاطمة بنت محمد ﷺ (سيدة نساء العالمين)[3] وآخر ريحانة من رياحينه الأربع ﷺ وأصغر بناته، ولم يكن أبو بكر وحيداً في حلمه.. كان هناك من ينافسه، فمن سيفوز بفاطمة من بين هؤلاء الأفذاذ.

---

(١) يعني مات زوجها.

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٢٢) والبيهقي (١٥٨/٣) واللفظ له.

(٣) صحيح مسلم ٤-١٩٠٤.

أبو بكر وعمر وعلي يريدون فاطمة

تقـدم أبو بكر إلـى النبي ﷺ خاطباً فاطمة، فلم يرده النبي ﷺ، لكنه اعتذر منه بأسلوب نبوي مدهش، وكذلك فعل عمر، فاعتذر ﷺ بالأسلوب نفسه، فماذا قال ﷺ لصاحبيه وصهريه؟

الإجابة عند أحد الصحابة رضي الله عنه واسـمه: (بريدة) حيث يقول: (خطب أبو بكـر وعمر رضي الله عنهما فاطمة، فقال رسـول الله ﷺ: إنها صغيـرة)[1] إنه اعتذار مؤدب. لم يكذب ﷺ عندما قال: إنها صغيرة، ففاطمة صغيرة حقاً لكن ليس على الزواج، فعائشـة بنت أبي بكر أصغر منها بسـنوات، وهي الآن زوجة لرسـول الله ﷺ، والعرب يزوجون في أقل من سنها، فهي قد كانت مخطوبة في سن السادسة لرجل قبل النبي ﷺ، كما أن رسول الله أكبر وأسن من أبي بكر، ومن عمر أيضاً. إذاً فالأمر غير ذلك.

أمر آخر هو أن أبا بكر وعمر هما أفضل الأمة، وهما أفضل من عثمان رضي الله عنهم ومع ذلك اعتذر لهما وزوج عثمان ابنتيه: رقية وأم كلثوم، بل إن ابنته الكبرى زينب لا تزال متزوجة من رجل مشـرك حتى الآن[2]، وهـو أبو العاص بن الربيع. إذاً فالأمر لله من قبل ومن بعد، والزواج من الأمور الدنيوية التي تراعى فيها أشياء أخرى خارج الأفضلية والتقوى والكبر والصغر.

انصـرف أبـو بكر وانصرف عمر رضـي الله عنهما، وقد رضيـا بما رضيه الله ورسـوله ﷺ، وتسربت أخبارهما إلى مسـامع امرأة يهمها أمر زواج فاطمة، فأقلقها ما سـمعت، فهبت مسرعة إلى سيدها تحرضه، وتحرضه على الزواج من سيدة نساء العالم. فماذا فعل هذا السيد، وماذا قال عندما سمع الخبر؟

ها هو يحدثنا بنفسه عن ذلك فيقول: (خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا. قالت: فقد

---

(١) سنده صحيح. رواه النسائي (٦٢/٦) حدثنا الحسين بن حريث، حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه: وعبد الله تابعي وثقة معروف وتلميذه الحسـين ثقة من رجال مسلم (التقريب ١/١٨٠) والفضل ثقة ثبت من رجال البخاري ومسلم (التقريب ٢/١١١) وشيخ النسائي ثقة من رجال الشيخين (التقريب ١/١٧٥).

(٢) أقصد وقت خطبة أبي بكر وعمر لفاطمة رضي الله عنها وعنهم.

خطبت. فما يمنعك أن تأتي رســول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ زوجك.

فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ)[1].

لكن لماذا كل هذا التردد في خطبة فاطمة، والقلب ميال إليها؟

أســباب كثيرة جعلــت علي بن أبي طالب يتردد في خطبــة فاطمة، وهي بنت ابن عمه. لعل أحدها كونه معدماً.. لا يملك ما يقدمه مهراً لهذه الوردة الطاهرة، وهي التي تستحق الكثير الكثير. لكن كيف أصبح علي معدماً وهو يملك شارفين من غنائم بدر؟

لقد ذهب كل شيء، واختفت الناقتان.. ذهبتا مع الريح والخمر، وبقي علي وحيداً يملؤه الهم، وتفيض عيناه من الحزن. فقبل أيام رأى شيئاً مكدراً.. رأى ناقتيه قد سال دمهما، وبقرت بطونهما، واقتطعت أســنمتهما، وهو لم يرتكب خطأ في حق أحد، أما مــا زاد في حزن علي وكدره، فهو أن الذي فعل ذلك به وبمهر فاطمة كان عمه وعمها حمزة بن عبد المطلب!! ذلك الأسد الهصور، والفاتك الجسور. لقد شق بطني الناقتين، وقطع سناميها وانتزع كبديهما، فـ:

هل وقع شجار بين حمزة وعلي

هذا ما ســنعرفه من علي نفســه حيث يقول: (كانت لي شــارف من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رســول الله ﷺ أعطاني شارفاً من الخمس يومئذ، فلما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ وأعدت رجلاً صواغاً من بني «قينقاع» يرتحل معي، فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه من الصواغين[2] فأســتعين به في وليمة عرسي، فبينا أنا أجمع لشارفي متاعاً من الأقتاب والغرائر والحبال، وشارفاي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، وجمعت حين جمعت ما جمعت، فإذا شارفاي قد اجتبت أسنمتهما، وبقــرت خواصرهما، وأخــذت من أكبادهما، فلم أملك عينيَّ حــين رأيت ذلك المنظر

---

(١) سنده صحيح. رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣-١٦٠): حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن علي. ابن نجيح ثقة التقريب ٣٢٦ وهذا ليس من التفســير فهو لم يســمعه من مجاهد أما ما عداه فقد قال ابن أبي حاتم: قلت لأبي: ابن أبي نجيح عن مجاهد أو خصيف؟ قال: ابن أبي نجيح. التهذيب (٦-٥٤).

(٢) الذين يعملون في صياغة الذهب والفضة.

منهمـــا، قلت: من فعل هذا؟ قالوا: فعله حمزة بن عبد المطلب، وهو في هذا البيت في شَرْب[1] من الأنصار، غنته قينةٌ وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء

فقام حمزة بالسيف، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، فأخذ من أكبادهما.

قال علي: فانطلقت حتى أدخل على رســول الله ﷺ وعنده زيد بن حارثة، فعرف رسول الله ﷺ في وجهي الذي لقيت، فقال رسول الله ﷺ: ما لك؟ قلت: يا رسول الله، والله ما رأيت كاليوم قط، عدا حمزة على ناقتي، فاجتب أسنمتهما وبقر خواصرهما، وها هو ذا في بيتٍ معه شَرْب.

فدعا رسول الله ﷺ بردائه فارتداه، ثم انطلق يمشي، واتبعته أنا وزيد بن حارثة، حتى جاء الباب الذي فيه حمزة، فاستأذن، فأذنوا له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله ﷺ يلوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة محمرةٌ عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله ﷺ، ثم صعد النظر إلى ركبتيه، ثم صعد النظر فنظر إلى سرته، ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، فقال حمزة: وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟ فعرف رسول الله ﷺ أنه ثمل، فنكص رسول الله ﷺ على عقبيه القهقرى، وخرج وخرجنا معه)[2].

فلا فائدة من العتاب واللوم إن لم تذهب الخمرة من رأس شـــاربها، فالانســـحاب هو أفضل قرار في مثل هذا الظرف.

انسحب رســول الله ﷺ وزيد بن حارثة، وانسحب علي وسحب معه حزناً أفاض عينيـــه. إنها الخمر، وهي مـــا زالت حتى اليوم مباحة، ولعلي مع الخمر قصة أخرى لا تقل فداحة عن هذه.

يحدثنـــا عنها فيقول: (صنـــع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا، وســـقانا مـــن الخمر، فأخذت الخمر منـــا، وحضرت الصلاة، فقدمونـــي، فقرأت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ ونحن نعبد ما تعبدون.

---

(١) الشرب: هم الجماعة الذين اجتمعوا على شرب الخمر.
(٢) حديث صحيح. رواه البخاري ٤٠٠٣ ومسلم ٣-١٥٦٨.

فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾)[1] فالصلاة حضور كامل، والخمرة غياب كامل، لذلك بدأ الإسلام يفتح القلوب والعيون على قوائم الفواجع التي يحدثها ذلك الغياب، وترتكبها الخمرة باسم النشوة، لكن هذه الآية لم تشر إلى تحريم الخمر، إنما تنهى عن الصلاة في حالة السكر، مما جعل عمر بن الخطاب يبتهل إلى الله قائلاً: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)[2].

فأمسى بعض الصحابة من يشربها في الأوقات الطويلة، التي لا صلاة فيها، كالوقت بين العشاء والفجر، أو بين الفجر والظهر، لكن أثر الخمرة لم يقتصر على إفساد الصلاة.. إنها تنتهك العقل.. تغيبه، فينطلق الإنسان متحرراً من كل قيد.. من كل شيء.. تمحي أمامه الفواصل، وتنهار في طريقه الأخلاق والآداب. يذوب الخطأ بالصواب، والجريمة بالفضيلة. الخمرة تنطلق بالإنسان من الإنسان.. تمسخه حيواناً لا يفكر بشيء، ولا يعبأ بشيء.. جسداً.. كتلة من اللحم والدم تدوس كل شيء، حتى ولو كان هذا الشيء أباً، وينتهك كل شيء، حتى وإن كان هذا الشيء أماً.

عمر بن الخطاب يبحث عن بيان شاف، وعلي بن أبي طالب يبحث عن مهرٍ كاف لفاطمة، فهذا المهر قد ضاع.. يبحث عليٌّ فلا يجد سوى ما يسد به رمقه، ويواصل بحثه فلا يجد شيئاً، لكنه يجد مولاةً له تشعر بتجوال فاطمة بين أضلاعه، فتقول له: (هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك. فقلت: وعندي شيء أتزوج به! فقالت: إنك إذا جئت رسول الله ﷺ زوجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني، حتى دخلت على رسول الله ﷺ، وكان لرسول الله ﷺ جلالة وهيبة، فلما قعدت بين يديه أفحمت فوالله ما استطعت أن أتكلم، فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت. فقال: ما جاء بك، ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ فقلت: نعم. فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا، والله يا رسول الله. فقال: ما فعلت درع سلحتكها؟

---

(١) حديث صحيح. صححه الألباني (صحيح الترمذي ٣٩/٣).

(٢) حديث صحيح. رواه أبو داود وصححه الإمام الألباني (٦٩٩/٢).

-فوالذي نفس عليٍّ بيده إنها لحطمية ما ثمنها أربعة دراهم-

فقلت: عندي. فقال ﷺ: قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها به. فإن كانت لصداق فاطمة بنت رسول الله ﷺ)[1] وريحانة حبيب الله وزعيم الأمة.

وتغادر الفتاة بيت أبيها، إلى بيت ليس فيه شيء سوى الحب، وأحلام الشباب.. بيت لو تجولت فيه عيناك لفاضت بدموع كما فاضت عينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رأى بيتاً شبيهاً ببيت فاطمة وعلي.

يقول عمر رضي الله عنه: (دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير، فجلست، فإذا عليه إزار، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، وقرظ[2] في ناحيةٍ في الغرفة، وإذا إهاب[3] معلق، فابتدرت عيناي[4]، فقال ﷺ: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فقلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك، قال ﷺ: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى)[5].

الدنيا عند رسول الله ﷺ (سجن المؤمن وجنة الكافر)[6] سجن المؤمن عن الجنة.. الدنيا معاناة نحو الجنة، سيشعر بأنها سجن عند دخوله الجنة ورؤيته لأنهارها، وساحاتها وميادينها وقصورها، وشوارعها ومركباتها وسفنها الفارهة، ومدنها وسمائها وأرضها وأجساد أهلها، وعقولهم وقلوبهم، والحب والود والسلام الذي بينهم، والأمن والسعادة والاكتشاف لكل جميل ومثير دون توقف[7].

---

(١) سند قوي رواه ابن إسحاق بالسند السابق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد عن علي.
(٢) القرظ: شيء يدبغ به الجلد.
(٣) الإهاب: هو الجلد قبل دبغه، قال ﷺ: «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» رواه مسلم.
(٤) سالت الدموع.
(٥) حديث حسن. حسنه الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (٢-٤٠١).
(٦) حديث صحيح. رواه مسلم ٤-٢٢٧٣.
(٧) انظر كتاب (الجنة حين أتمنى) لمعرفة عمق هذا الحديث.

والدنيـــا جنة عند الكافر إذا حشـــر إلى النار يوم القيامـــة يتمنى الرجوع إليها.. الدنيا ســـجن المؤمن وإلا لما (كان فراش رســـول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً[1] حشوه ليف)[2].

الدنيا ســـجن المؤمن وإلا لما عاشت فاطمة في ذلك البيت المتواضع، ومهرها درع بأربعـــة دراهم، وبنات كســـرى وقيصر بين الوصيفات والخادمـــات في مروج وقصور مبحرة عبر الأنغام والأوتار.

أما أثاث بيت فاطمة، فكان يثير الشفقة.. قدمه ﷺ هدية إلى حبيبيه. لقد (جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل، وقربة، ووسادة أدم حشوها إذخر)[3] أثاثها رضي الله عنها: كســـاء من الصوف، وقربة للماء، ووســـادة من الجلد محشوة بحشيشة الإذخر. فقر تصعب معه الحياة، إلا إذا كان الحب والإيمان عميقاً وفســـيحاً، كما هو في قلبي فاطمة وعلي رضي الله عنهما.

فرح علي بفاطمة، وفرحت المدينة بعلي وفاطمة، وفي مثل هذا الفرح الغامر يقول ﷺ: (أعلنـــوا النكاح)[4] فإعلان الزواج ابتهاج بالجميل، وابتهاج بالاجتماع والمصاهرة والحلال، ولذلك يقول ﷺ لأمته: (فصل ما بين الحلال والحرام الدف، والصوت في النكاح)[5].

ها هو ﷺ يســـتمع إلى الدف والصوت، أي الغناء في مناسبة كهذه، فيعلن الحب لهؤلاء الذين يضربون الدف، ويحلف بالله على حبه لهؤلاء الذين يغنون.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (مر النبي ﷺ بحي من بني النجار، وإذا جوار يضربن بالدفوف يقلن:

(١) جلد.
(٢) حديث صحيح. رواه مسلم ٣-١٦٥٠.
(٣) سنده قوي. رواه ابن ماجة ٤١٥٢ بسند فيه عطاء بن السائب رحمه الله وقد اختلط، والراوي عنه محمد بن فضيل، قال أبو حاتم، وما روى عنه ابن فضيل ففيه غلط واضطراب، التهذيب ٧-٢٠٥ وقد توبع عند البيهقـــي (٣-١٦١) تابعـــة زائدة وقد قال الطبراني رحمه الله: مـــا رواه عنه المتقدمون فهو صحيح مثل: سفيان وشعبة وزهير وزائدة (التهذيب ٧-٢٠٧).
(٤) حديث حسن. (صحيح الجامع ١-٢٤٣).
(٥) حديث حسنه الإمام الألباني. (صحيح سنن النسائي ٢-٧٠٩).

نحـــن جَــوار مـــن بنـــي النجـــار　　يـــا حبـــذا محمـــد مـــن جـــار

فقال رسول الله ﷺ: يعلم الله أن قلبي يحبكم)[1].

وذات يوم (أبصر النبي ﷺ نســاءً وصبياناً مقبلين مــن عرس فقام ممتناً فقال: اللهم أنتم من أحب الناس إلي)[2].

ويحرض عليه السـلام أمته على الانشـراح في مناسباتها الاحتفالية.. في قصة شاركت عائشة في زفتها، وحفظتها لنا فقالت: (أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار، فقال نبي الله ﷺ: يا عائشة ما كان معكم لهو؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو)[3].

وها هو عامر بن سعد بن أبي وقاص وهو ليس بصحابي يستنكر جلوس اثنين من الصحابة من أبطال بدر عند الدف والغناء وهما من أهل بدر فماذا قالا له؟

يقــول عامر رحمه الله: (دخلت على قريظة بن كعب وأبي مســعود الأنصاري في عرس، وإذا جوار يغنين، فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ، ومن أهل بدر، يفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت، فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس)[4].

غمرت المدينة فرحة، وغمرت بيــت النبوة التهاني من المهاجرين والأنصار، وقدم المحبون للمشــاركة في أفراح الزهراء، وتسلسل بين القادمين رجال يبتسمون في وجه النبـــي ﷺ ووجوه أصحابه، بينما كانت قلوبهم مكشــرة جامحــة مولية.. تكاد تميز.. تتقطع حقداً وغيظاً كلما تهادى سرور إلى قلبه، أو بيته ﷺ.

كانت قلوب هؤلاء تتلمــظ كالحيات. أحد هؤلاء المزعجين المخيفين.. رجل يدعى (عبد الله بن أبي بن سلول).

---

(١) سنده قوي رواه البيهقي ٢-٥٠٨ والطبراني في الصغير ١- ٦٥ من طرق عن أبي خيثمة مصعب بن سعيد المصيصي، حدثنا سعيد بن يونس ، عن عوف الأعرابي، عن ثمامة بن عبد الله بن أنس ، عن أنس. وليس له علة سوى تدليس أبي خيثمة، وهو هنا لم يدلس بل صرح بالسماع من شيخه والبقية ثقات. وابن ماجة (الصحيح للألباني ١/٣٢٠).

(٢) حديث صحيح. رواه البخاري (٥١٨٠).

(٣) حديث صحيح. رواه البخاري (٤٨٦٧).

(٤) حديث حسن. (سنن النسائي ٢/٧١٢).

تحت عباءة هذا الرجل يختبئ عشرات المشركين، الذين يرون المدينة سجناً لا يطاق بمحمد وصحبه.. يرون المدينة غريبة دون أصنام.. دون شـرك.. دون سـحر وشعوذة، وبعد تفكير فرضه عليهم انتصار بدر قرر عبد الله بن أبي بن سـلول أن يحمل أقدامه إلى حيث محمد، ليبايعه، وخلفه تثاقل عشـرات الحاقدين، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، ومدوا أيديهم المسمومة إلى يده الطاهرة.. مصافحين معلنين الولاء، فقد أدرك ابـن أبي ومن معه أنـه لا مكان لهم في قلوب الناس، ولا بين حـرات المدينة، وهم على شـركهم. أدركوا ذلك بالتحديد، بعد انتصار المسلمين في بدر، فقد كبر محمد وصحبه في نظرهم وتعاظم في قلوبهم، وهو يطيح برؤوس زعماء أشهر قبيلة عربية، لذلك كونوا صفاً من الخفافيش.. تشرك في الظلام، وتتظاهر بالإيمان تحت الشمس.. كونوا صفاً خطيراً عرف فيما بعد باسم المنافقين:

مولد النفاق

يقول الطفل أسـامة بن زيد: (لما غزا رسـول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه. فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا)[1] بألسنتهم وخوفاً ممن حولهم من المؤمنين الذين شـكلوا أغلبية سـاحقة على المشركين، وإلا فهو ما زال على كفره.. هو ومـن معه. يتمنون القضاء على هذا النبي ومن معـه، وينتظرون يوماً تثأر فيه قريش لصرعاهـا في بدر، أو تنفجر يهـود، أو تثور هذه الجبال المحيطة بالمدينة، فتدك هذا الإسـلام وأهله. ومرت الأيام والمنافقون ينتظرون شـيئاً من هذا أو ذاك، وفي يوم من الأيـام لاح أمـل للمنافقين، وفركوا أيديهم فرحاً بخبر قـادم من مكة.. فرح المنافقون بخطر قادم من قريش، لعله يجسد أحلامهم.

سننتقل إلى مكة لنعرف ذلك الخبر. ها هو أبو سفيان بن حرب، وقد حصل على زعامة مكة بعد أبي جهل وأمية. ها هو وبعد مشاورات، وندوات واجتماعات يقرر الثأر لطواغيت قريش، ولأصنام قريش. إنه يحشـد الرجال والجمـال والأموال والنفوس، وبعد أن توافر له جيش ضخم يفوق جيش الشرك في بدر.. عزم على التحرك به نحو المدينة، للإجهاز على دولة الإسلام هناك، فتحركت قلوب المنافقين واليهود فرحاً.

أما في المدينة، فالوحي يهمي على العالم مزيداً من النظافة:

---

(١) حديث صحيح. رواه البخاري ومسلم.

النبي ﷺ يأمر بالانتفاع بالخمر

يأمر ببيعها بعد تلك الأحداث التي تسببت فيها الخمرة، وبعد ذلك النكد الذي أحدثته. قام ﷺ على منبره يخاطب أصحابه، وهو يتوجس أمراً سيحدث في المستقبل. فسمعه أحد شباب الأنصار هو (أبو سعيد الخدريّ) وقال: (سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة، قال: يا أيها الناس، إن الله تعالى يعرض بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده منها شيء فليبعه، ولينتفع به)[1].

كان للخمر تأثير على مهر فاطمة، وكان للخمر تأثير أشد على بيت الطفل (أنس بن مالك)، فلقد فرق بين أمه وأبيه، بل لقد فرق بين أبيه والمدينة، فبعد نزول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾[2]، وبعد خطبة النبي ﷺ تلك.. أحس (مالك بن النضر) والد أنس بضيق الإسلام ورسوله ﷺ من الخمر، وهو مدمن خمر لا يصبر عنها، ورغم أن الخمر لم تحرم حتى الآن، إلا أن مالكاً لا يشعر بالتفاؤل تجاه هذا الموضوع، ولذلك استدعى زوجته الرائعة «أم سليم بنت ملحان» وهي أم أنس، وصارحها بما في نفسه، وأنه يرفض تحريم الخمر إن حرم، وأن حبّه للمسكر أكثر من حبه لزوجته، بل وابنه الوحيد الصغير أنس، لكن الله لم يترك أم سليم ولا ابنها. فالله أرحم بالمؤمنين من أنفسهم.

فُجعت أم سليم بزوجها، ثم بابنها، في قصة من قصص عظماء النساء اللواتي تفاخر بهن أممهن.. قصة أم سليم مع الخمر ومع زوجها وابنها.. يقصّها ابنها أنس فيقول أن والده مالك قال لوالدته أم سليم: (إن هذا الرجل، يعني النبي ﷺ يحرم الخمر.

فانطلق حتى أتى الشام، فهلك هناك)[3] وبقيت أم سليم وابنها في المدينة صابرين مؤمنين، حتى علم رجل مشرك من أهل المدينة بما حدث، فمال قلبه إلى أم سليم، ورغب في الزواج منها، وكان هذا الرجل يدعى «أبو طلحة»، فهل لديه قدرة على تقديم أغلى مهر تطلبه امرأة؟

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٥٧٨) تحريم بيع الخمر.

(٢) سورة النساء: الآية ٤٣.

(٣) سنده صحيح رواه أبو داود الطيالسي (٢-١٥٩): من طرق قوية عن ثابت، عن أنس، وثابت البناني تابعي ثقة سمع أنس وللحديث بقية تأتي فيما بعده. وبعضه عند الشيخين.

أبو طلحة ومهر أم سليم الغالي

يقـــول أنس رضي اللـــه عنه: (جاء أبو طلحة فخطب أم ســـليم، فكلمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة.. ما مثلك يرد، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مســـلمة لا يصلح لي أن أتزوجك. فقال: ما ذاك مهرك! قالت: وما مهري؟ قال: الصفراء والبيضاء.

قالت: فإني لا أريد صفراء، ولا بيضاء.. أريد منك الإسلام، [أتزوجك وأنت تعبد خشبة نجرها عبدي فلان؟] «فإن تسلم فذاك مهري، ولا أسألك غيره». قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ.

فانطلق أبو طلحة يريد النبي ﷺ -ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه- فلمّا رآه قال: جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام بين عينيه.

فأخبر رســـول الله ﷺ بما قالت أم ســـليم، فتزوجها على ذلـــك[1]، وكانت امرأة مليحـــة العينـــين، فيها صغر، فكانت معه حتى ولد له بنـــي، وكان يحبه أبو طلحة حباً شـــديداً، ومرض الصبي «مرضاً شـــديداً» وتواضع أبو طلحـــة لمرضه أو تضعضع له، «فـــكان أبو طلحة يقوم صلاة الغداة يتوضأ، ويأتي النبي ﷺ فيصلي معه، ويكون معه إلـــى قريب من نصف النهار، ويجيء ويقيل ويـــأكل، فإذا صلى الظهر تهيّأ وذهب، فلم يجئ إلى صلاة العتمة».

فانطلق أبو طلحة عشـــية إلى النبي ﷺ، ومات الصبي، فقالت أم سليم: لا ينعينّ إلى أبي طلحة أحد ابنه حتى أكون أنا الذي أنعاه له. فهيأت الصبي «فســـجت عليه»، ووضعته «في جانب البيت»، وجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ حتى دخل عليها، «ومعه ناس من أهل المسجد من أصحابه»[2]. فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحة ما كان منذ اشتكى أسكن منه الساعة، «وأرجو أن يكون قد استراح».

فأتته بعشـــائه «فقربته إليهم فتعشـــوا، وخرج القوم»، «فقام إلى فراشـــه فوضع رأســـه»، ثم قامت فتطيبت «وتصنعت له أحســـن ما كانت تصنع قبل ذلك»، «ثم جاءت

---

(١) بعد هذه الكلمة قال ثابت البناني - مرت ترجمته في الحديث الســـابق - : (فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه أنها رضيت الإسلام مهراً، فتزوجها) وقد فصلت هذه العبارة لأنها من كلامه لا من كلام أنس.

(٢) هم أهل الصفة وهم أهل المسجد.. جاء بهم ليطعمهم.

حتـــى دخلت معه الفراش، فما هو إلا أن وجد ريح الطيب كان منه ما يكون من الرجل مـــع أهله»، «فلمـــا كان آخر الليل» قالت: يا أبا طلحة، أرأيت لـــو أن قوماً أعاروا قوماً عارية لهم، فســـألوهم إياها، أكان لهم أن يمنعوهم؟ فقال: لا. قالت: فإن الله عزّ وجلّ كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر.

فغضب ثم قال: تركتني حتى إذا وقعت بما وقعت به نعيت إليَّ ابني، «فاســـترجع وحمد الله»، «فلما أصبح اغتسل»، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ «فصلى معه» فأخبره.

فقال رســـول الله ﷺ: «بارك الله لكما في غابر ليلتكما»، فثقلت من ذلك الحمل، وكانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: إذا ولدت فأتوني بالصبي، فكان رسول الله ﷺ في سفر وهي معه)[1].

أم سليم الآن بصحبة رســـول الله ﷺ، ومعها زوجها، ومعهم رجال كثيرون ونساء أيضاً، ولكن إلى أين..؟

المكان الذي يقصدونه ليس ببعيد، لكنه خطير جداً، وســـبب الســـفر أخطر، وله قصة مثيرة. فهل لديكم وقت للسفر مع رسول الله ﷺ وأم سليم وأبي طلحة وأصحابهم رضي الله عنهم؟

هيـــا بنا، ولكن قبل ذلك أســـتأذنكم للّحاق بهذا الرجـــل المهموم بالإيمان والكفر، وأشياء ثقيلة تملأ رأسه وقلبه.. إنه

جبير بن مطعم والهموم

عاد جبير بن مطعم منكســـراً إلى مكة.. يحمل الحسرة والهزيمة.. تاركاً طواغيت قريـــش في تلك البئـــر المنتنة، وتاركاً عمـــه «طعيمة» مجندلاً علـــى أرض بدر تحرقه الســـوافع، بعد أن أحرقه حمزة بســـيفه الملتهب، ثم عاد جبيـــر إلى المدينة مرة أخرى يطلـــب إطلاق الأســـرى دون مقابل، لكن النبي ﷺ أجابه تلـــك الإجابة العظيمة التي

(١) هو حديث أبي داود الطيالســـي الســـابق وما بين المعقوفين عند البزار بســـند صحيح (زوائد - ٣/٢٤٦)، والزيادة الأولى للنســـائي والزيادة الرابعة لابن سعد (٨/٤٣٢) والسادسة والثامنة والثالثة عشر للبخاري ولتفصيل أكثر انظر كتاب الجنائز للشيخ الألباني حفظه الله (٢٤).

يعتـرف بها ﷺ بمعروف والـده (المطعم ابن عدي)، فقال له: (لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)[1]

فانكسر جبير بن المطعم بن عدي مرة أخرى، ومضى إلى مكة كالحيرة بين الاحترام لوالـده، والاحتـراق لعمه.. عاد يحمل إيمانـاً يرزح تحت أطنان من العـادات والتقاليد والأصنام، وكان أشدّ هذه الموروثات على نفسه شيطان كالجحيم.. شيطان اسمه: الثأر.

حوصر جبير بن مطعم بعد وصوله إلى مكة بالنواح على عمه.. بشقّ الجيوب، ولطم الخـدود.. حوصـر بالاسـتفزاز الجاهلي، حتى غلى الثأر في رأسه وعروقه بعدما جمع أبو سـفيان الكفر وأهله متجهاً بهم نحـو المدينة، فأحسّ جبير بوخز الثأر، فنادى عبداً مملوكاً له اسمه «وحشي»، وكان أمهر الناس برمي الحربة، فهو نادراً ما يخطئ هدفه.

نادى جبير «وحشـياً» ليفتح له باباً للعتق من الذل.. ناداه ليخلصه من هذا الرق، والحصار الكريه.. ناداه وأغراه بأحلام كل العبيد.. أغراه بـ:

حمزة باباً للحرية

يقول وحشـي: (كنت غلاماً لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أُحُد قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمد بعمي فأنت عتيق.

فخرجـت مع الناس، وكنت رجلاً «حبشـياً» أقذف بالحربة قذف الحبشـة، قلَّما أخطئ بها شيئاً)[2].

خرج وحشـي لا يبحث عن شـيء سوى الحرية.. لا يبحث سوى عن حمزة، فليس لديـه ثأر مع أحد.. كان يبحث عن ثأر من قيود العبودية والرقّ الذليل التي طوّقته بها قريش. كان وحشي مشركاً.. لا يفرّق بين الوسائل نحو الحرية، ولا يهمّه سواها، حتى ولو خاض في دماء طاهرة كدماء حمزة.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٣).

(٢) سـنده صحيح رواه ابن إسـحاق ابن هشـام٤-١٧: حدثني عبد الله بن الفضل بن عباس بن ربيعة. عن سـليمان بن يسـار، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشي. عبد الله تابعي ثقة التقريب ٣١٧ وشيخه وشيخ شيخه تابعيان ثقتان التقريب ٢٥٥ و١٤٠.

كان جيش الثأر المشـــرك يسير في اتجاه، وكان وحشي معهم لكنه يسير في اتجاه آخـــر.. اتجاه من الأحلام، والوعود المخضبة بالدماء، حتى وصلوا إلى مكان قريب من جبل أُحد حول المدينة، التي أفاقت على هول الخبر ومفاجأته، وأفاق رســـول الله ﷺ من نومه ورؤياه.

رؤيا النبي ﷺ

كان نائمـــاً، والنبي ﷺ يقول: (تنام عيناي ولا ينـــام قلبي)[1]، وفي نومه ذلك رأى رؤيـــا قال عنها: (إني رأيت أني في درع حصينة. فأوّلتها: المدينة، وأني مردف كبشـــاً. فأوّلتـــه كبش الكتيبة، ورأيت أن ســـيفي ذا الفقار فُلَّ. فأوّلتـــه: فلا فيكم، ورأيت بقراً تذبح. فبقرٌ والله خير، فبقرٌ والله خير)[2].

نهض ﷺ من نومه، وهبّ لجمع أصحابه.. لا ليقرّر، ولا ليأمر بل:

دعاهم ليستشيرهم

وبعدما اجتمعوا شاورهم جميعاً دون استثناء، وكان رأيه ﷺ ورأي بعض الصحابة أن يقاتلـــوا داخل المدينة، وقص عليهم ﷺ رؤياه، لكن أناســـاً منهم لم يحضروا غزوة بدر.. غمرهم الحماس وأصرّوا على الخروج، لتأديب أولئك الوثنيّين، لعل أحدهم عمّ أنس بن مالك واسمه (أنس بن النضر).

يتحدث أنس عن عمّه أنس رضي الله عنهما فيقول: (عمي الذي ســـميت به[3] لم يشـــهد مع رســـول الله ﷺ بدرا، فشق عليه. قال: أول مشـــهد شهده[4] رسول الله ﷺ

---

(١) ســـنده صحيح رواه عبد الرزاق ٢ - ٤٠٥ عن مالك عن ســـعيد بن أبي ســـعيد عن أبي سلمة عن عائشة. ورجاله أئمة ثقات وله طرق أخرى عن غير عائشة.

(٢) سنده قوي رواه أحمد ١-٢٧١ وغيره عن ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس. ابن أبي الزناد صدوق ووالده ثقة التقريب ٤٣٣ و٣٠٢ وعبيد الله تابعي ثقة ثبت - التقريب ٣٧٢.

(٣) أي سماني أبي أنساً على اسم عمي أنس.

(٤) يقصد رضي الله عنه غزوة بدر.

غيبت عنه، وإن أراني الله مشهدا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع)[1] قال أنس إن عمه (هاب أن يقول غيرها)[2].

إن رجالاً بهذه المعنويات لا يمكن أن يقنعوا بقتال الشـوارع والمدن.. إنهم يريدون ساحات ومساحات يعانقون فيها الخلود، وينتشون فيها ببريق الشهادة والسيوف. لكن الحماس لا يعني الانتصار، والمعنويات لا تكفي، فخارج هذه المدينة يربض عدو استعدّ وأعدّ وكشّـر.. عدو حمل كل ما يمكن حمله للانتقام والثأر، فالبقاء في المدينة أحكم، وأسـلم عسكرياً في ظلّ عدم الاسـتعداد والمفاجأة التي لم تكن في الحسبان، لدرجة أن رسـول الله ﷺ كان يحدّث أصحابه وهو في ثيابه العادية حتى الآن، قال رسـول الله ﷺ قولـه، وأبدى رأيه، وترك الاختيار لأصحابه رضي الله عنهم. (فقال له ناسٌ لم يكونوا شهدوا بدراً: يخرج بنا رسول الله ﷺ إليهم نقاتلهم - ورجوا أن يصيبوا من الفضيلـة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسـول الله ﷺ حتى لبس أداته[3]، ثم ندموا وقالوا: يا رسـول الله، أقم فالرأي رأيك. فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها، حتى يحكم الله بينه وبين عدوّه)[4].

وقبل أن ينطلق ﷺ إلى أرض المعركة أحب أن يستعرض جيشه، الذي تداعى من كل مكان في المدينة متلهفاً، فأجاز من يستطيع القتال، وردّ صغار السن.

هذا أحدهم: طفل اسمه (البراء بن عازب) رضي الله عنه يقول: (عرضت أنا وابن عمر يوم بدر فاستصغرنا وشهدنا أُحداً)[5].

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥١٢.

(٢) هو جزء السابق.

(٣) أي أداة الحرب.

(٤) سـنده قوي رواه الحاكم ٢ - ١٤١ وغيره بسـند أحمد السـابق عن ابن وهب عن ابن أبي الزناد عن أبيه وقد مر تخريجه.

(٥) سـنده حسـن، رواه الطبراني ٢-٨ حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثني عمي أبو بكر، حدثنا عبد الله بن إدريـس، عن مطرف، عن أبي إسـحاق عن البراء. شـيخ الطبراني ثقة من أوعيـة العلم قال عنه الإمام الألباني: فيه كلام، لا ينزل حديثه عن رتبة الحسـن (الصحيحة - (٤-١٥٦)) وشيخه إمام معروف، وابن إدريس ثقة فقيه، التقريب ٢٩٥ ومطرف بن طريف ثقة فاضل، التقريب ٥٣٤ وأبو إسحاق تابعي ثقة علم مر معنا كثيراً ٤٢٣.

لكن ابن عمر أرجع أيضاً لأنه لم يتجاوز الخامسة عشر.. إنه يقول: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أُحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه)[1] للخروج مع الجيش.

عاد ابن عمر مكسور الخاطر بعد أن ودّع والده الحبيب، لكنه لم يكن أكثر انكساراً ولا حماساً من ذلك الشيخ الكبير، الذي يحاصره أبناؤه الأربعة، وتحاصره الإعاقة.. إنه: (عمرو بن الجموح.. شيخ أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنون «مثل الأُسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد»، يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يتوجه إلى أُحد «أرادوا حبسه»، قال له بنوه: إن الله عزّ وجلّ قد جعل لك رخصة، فلو قعدت فنحن نكفيك، فقد وضع الله عنك الجهاد؟

فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال له: إن بني هؤلاء «يريدون أن يحبسوني» يمنعوني أن أخرج معك، ووالله إني لأرجو أن أستشهد معك، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد. وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعلّ الله عزّ وجلّ يرزقه الشهادة)[2].

كان رضي الله عنه يحلم بشوارع الجنّة تلامسها تلك العرجة وتتدلّى من شرفاتها وتخوض في مياهها العذبة.. لذلك توجّه بسؤال ينبض بالشوق إلى رسول الله ﷺ.. لقد (أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ -وكانت رجله عرجاء- فقال رسول الله ﷺ: نعم)[3].

إجابة ملأت صدر عمرو بن الجموح بالنهار.. إجابة ألجمت الأسود الأربعة، فخرجوا كالأشبال حول هذا الشيخ الجسور.. خرجوا دون أن يودعوا أمّهم فاطمة،

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٢٤٦ والزوائد عند ابن كثير: حدثني والدي عن أشياخ من بني سلمة: ووالد ابن إسحاق تابعي ثقة يروي عن الصحابة ولعل هؤلاء منهم - وهو الأرجح - لأنه يروي بهذه الصيغة عن الصحابة، وهؤلاء جمع ومن بني سلمة - وهم قوم جابر وعمرو بن الجموح، وإلا فالسند مرسل.

(٣) سنده حسن رواه أحمد ٥-٢٩٩ وغيره حدثنا أبو صخر ابن زياد حدثه يحيى بن النضر عن أبي قتادة. أبو صخر حسن الحديث التهذيب ٣-٤١ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٥٧٩.

لأنها تسـير مع رفيق دربها وحبيبها.. أخرجها الشـوق إلى الجنّة مثلما أخرجه، وكان لفاطمة العظيمة هذه أخ اسـمه: (عبد الله بن عمرو بـن حرام الأنصاري) وعبد الله هذا صديـق حميم لزوجها عمرو بن الجموح، لكن أحوال عبد الله بن عمرو بن حرام مختلفة عن أحوال صديقه ونسـيبه، فقد كان لعمـرو بن الجموح أربعة أبناء يحاولون إبقاءه في بيته. أما عبد الله فله ولد وحيد اسمه (جابر) وهو يمنعه الآن من الخروج.. إنـه يأمره بالبقاء في المدينة، فظروف بيت عبد الله تسـتدعي أن يبقى أحد الاثنين، ولابد للابن من أن يطيع والده.

لكن لماذا لا يخرج الاثنان إلى المعركة، كما خرج عمرو وأبناؤه وأمّهم جميعاً..؟

دعونـا نتوجّـه إلى بيت جابر بن عبد الله.. إنه ليـس ببعيد. ها هو البيت.. بيت جميل بالإيمان والأحلام والفتيات.. بيت يغرق بالمشـاعر والدموع والرجاء.. في عالم يحار بين:

البنات والمعركة

ومناشـدة وحديـث حزين يدور بين جابـر بن عبد الله ووالـده، الذي يصرّ على الخـروج، فيخاطـب رجولة ابنه وبرّه وإيمانه فيقول: (يا جابـر، لا عليك أن تكون في نظـاري المدينة، حتى تعلم إلاَمَ يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي، لأحببت أن تقتل بين يدي)(١) أجل تقتل بين يدي!!

جابر ووالده لهف على الموت في سـبيل الله، لكن الدموع التي تفيض من العيون البريئة، وتلك النظرات الخائفة التي تعصف بقلب هذا الشيخ الكبير.. تتعلّق به، وتريد الاحتفاظ به.. تتغلغل في قلبه كالجروح.. تسـع فتيات حزينات.. يتساءلن: هل سيعود والدنا من المعركة، أم أنه الوداع الأخير لهذا الشيخ الحبيب.

عناق ونظرات ودموع تحاصر هذا الشيخ، فيتفطر قلبه ويحسّ بدبيب الموت يسري في عروقه، ويشعر بخطوات اليتم المخيفة تتجه نحو حبيباته الصغيرات، اللواتي طالما انتظرنه فـي البيت وعلى عتبة الباب، فإذا ما رأينه مقبلاً تراكضن نحوه كالزهرات..

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

أيهنّ تحظى بقبلة قبل أخواتها.. يتزاحمن على ما يحمله بيديه.. كلهنّ يردن التخفيف عنه، ورؤية ما أحضر لهنّ.. كلهنّ يردن خدمته.. طالما أعددن شرابه وطعامه، وغسلن ثيابه، وغطّينه وهو نائم، ولطالما مرّضنه من حمى المدينة القاسية.

تسع زهرات.. كم حملهن على ظهره، ولاعبهن وضاحكهن، وقصّ عليهن.. كم ألححن عليه ليشتري لهن الملابس والحلي، فيستجيب مهزوماً بالحب..

ذكريات وهموم تثقل الشيخ العطوف وتملأ قلبه، فتخرج الكلمات منه بصوت متهدّج بالحزن، ويقول لابنه جابر: (ما أراني إلاّ مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعزّ عليّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، وإن عليّ ديناً فاقضِ، واستوصِ بأخواتك خيراً)[1]. لكن الكلمات لا تطفئ هذه النار المستعرّة بين أضلاع هذا الشيخ.. لا تكفي لمقاومة ألم الفراق واليتم القادم، فيتّجه به الحزن إلى شيء لا يزال حلالاً حتى الآن.. يتجه به الحزن إلى شيء قد ينسيه بعض الحزن.. قد ينسيه ذلك الشوق المنبعث من تلك العيون البريئة التي لا تُنسى.

والد جابر يشرب خمراً قبل المعركة

يتجه رضي الله عنه إلى الخمر، فيحتسي شيئاً منها علّها تخرجه مما هو فيه.. علّها تسليه حتى تحين ساعة العراك، حيث تذوب الخمر ويشتدّ الأمر، ويذهل عبد الله عن كل شيء سوى الشهادة.

يقول جابر رضي الله عنه: (اصطبح -والله- أبي يوم أحد الخمر ثم غدا فقاتل)[2]، ولم يكن والد جابر هو الوحيد الذي شرب خمراً ذلك الصباح، فلقد (صبح أناس غداة أحد الخمر)[3]، فهل كانت أحزانهم كأحزان عبد الله، الذي يغادر بيته وبناته، ويترك لابنه جابر من الهموم والمسؤوليات الشيء الكثير. لكن جابراً أهلٌ لتحمّلها، لأن الإسلام جعل من جابر بن عبد الله إحساساً مرهفاً.. غيمة تهمي حناناً وربيعاً على أخواته المسكينات.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٥١).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢: حدثني وهب بن كيسان عن جابر، ووهب تابعي ثقة سمع من جابر انظر: التهذيب ١١-١٦٦.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٦١٨).

يقول جابر رضي الله عنه: إن والده (ترك عليه ديناً)[1] و(ترك تسـع بنات كن لي تسـع أخوات)[2] مسـؤولية جسـيمة لا تنقضي لولا قول النبي ﷺ: (من عالَ جاريتين حتى تبلغا جاء أنا وهو يوم القيامة، وضم أصابعه)[3]. هذا إذا عال المرء فتاتين، فكيف إذا كان تحت رعايته تسع بنات..؟!

كم يحب الإسـلام البنات ويعتني بهن، ويطالب بحبهنّ والعناية بهنّ. هنيئاً لجابر، وهنيئاً له موقعه بين نظاري المدينة الذين يحرسـون ثغورها، ويسـهرون حمايةً لها.. بشّـرهم ﷺ، وبشّر غيرهم عندما قال: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)[4].

بقـي جابر على ثغور المدينـة، وغادر والده عبد الله بصحبة أخته فاطمة وزوجها ورفيقه عمرو بن الجموح وأبنائه.. غادروا المدينة صاخبة.. مزدحمة بالعناق والدموع. ها هو حذيفة بن اليمان ووالده «حسيل»، اللذان أرغمهما المشركون على أن يقسما ألا يشـاركا رسـول الله ﷺ في غزوة بدر.. ها هما اليوم على أُهبة الاستعداد والإعداد للفتك بالشـرك، لكن الأمر جاء على غير مـا يحبّان. إن حذيفة يودع والده الآن، لكن الذي سـيبقى هذه المرة هو الوالد، والذي سـيغادر هو حذيفة. فلقد أمر ﷺ حسيلاً بالبقاء لحراسة المدينة، كما أمر شيخاً آخر بالبقاء مع حسيل، واسم هذا الشيخ الآخر «ثابت بن وقش»، فبقيا كارهين أن تفوتهما الشهادة.

انظروا إلى هذا المنزل العظيم، ففيه تستعرّ نار الفراق والوجد.. إنه منزل الكريم.. الكريم سـعد بن الربيع، الذي عرض نصف ماله وإحدى زوجاته على عبد الرحمن بن عـوف.. تناثـرت الدموع.. دموع ابنتيه الوحيدتين، ودمـوع زوجته التي بقيت معه. إن حاله كحال والد جابر. لقد خرج سعد، وخرجنا بعده إلى ناحية أخرى.. ناحية انزوى فيها صحابيان عن الناس.. ماذا يفعلان؟ إنهما يدعوان.. يبوحان، فيبحر الدعاء بهما. دعونا نبحر معهما إلى جزيرة هذا، وجزيرة ذاك، ولكن قبل ذلك نودّ التعرف إليهما.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).

(٣) صحيح مسلم ٤-٢٠٢٧.

(٤) حديث حسن رواه الترمذي وغيره ٤-١٧٥ وفيه عطاء الخرساني مدلس، وله طريق آخر رجاله ثقات عند عبد بن حميد ٤٢٢ وغيره عن صالح بن كيسان قال قال أبو عبد الرحمن سمعت أبا هريرة مرفوعاً.

إنهما من الأوائل

أمّا الأول، فأوّل من رمى بسهم في سبيل الله، وهو سعد بن أبي وقاص، أمهر من رمى السهام. وأمّا الآخر، فأوّل من قاد سرية لرسول الله ﷺ ولدولة الإسلام الجديدة. إنه عبد الله بن جحش رضي الله عنهما. ها هو سعد يحدّثنا عما جرى في تلك الناحية، فيقول: (إن عبد الله بن جحش، قال له يوم أُحد: ألا تأتي ندعوا الله؟

فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا ربّ إذا لقيت العدو، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه.

فأمَّن عبد الله بن جحش ثم قال: اللّهمّ ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً قلت: يا عبد الله فِيمَ جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك. فتقول: صدقت)[1].

يا لهذه الجزر الحالمة الساحرة.. يا لهذه الأنفس ما أعظمها.. ترى هل سيجيب الله هذه الابتهالات؟ ستبوح بالإجابة أرض المعركة، وجبل عينين وجبل أُحد سيشهدان على ذلك.

لم كل هذه الحرقة على الموت؟ لم كل هذا الاحتفاء والعشق الذي يحرق الأكباد؟

إنها الجنّة، وهؤلاء الرجال يحتقرون أعمارهم وأعمالهم وفداءهم إذا ما قارنوها بثوابها عند الله.. إنهم مسافرون إلى الخلود، فلو ضرب المؤمن سنين عمره في عدد حبات الرمال المنثورة على وجه الأرض، لما حصل على عدد يقارب سنين عمره في الجنّة، فكيف يلام شيوخ كعمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، وحسيل.. كيف يلام هؤلاء الشيب، إذا ما نافسوا الشباب على ظهور الخيل والموت، وهم يسمعون رسول الله ﷺ يقول: (يدخل أهل الجنةِ الجنةَ جرداً، مرداً، كأنّهم مكحلون، أبناء ثلاثٍ وثلاثين)[2] (لا يسقمون ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون)[3].

---

(١) سنده قوي: رواه الحاكم (٨٦/٢) وأبو نعيم في الحلية (١٠٨/١) من طرق عن ابن وهب حدثني أبو صخر عن يزيد بن قسيط الليثي عن إسحاق بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه. أبو صخر هو حميد بن زياد حسن الحديث التهذيب ٣-٤١ وشيخه تابعي ثقة التقريب ٦٠٢ وإسحاق بن سعد وثقة العجلي لفظيا ٦٠ وابن حبان وللحديث شاهد عند ابن سعد ٣-٩٠ و٩١ ضعيف مرسلاً عن ابن المسيب، وابن حنطب.

(٢) حديث صحيح انظر: صحيح الجامع (٣٤١/٢).

(٣) حديث صحيح متفق عليه - المشكاة (١٥٦٤/٣).

قــال بعض الصحابة للنبي ﷺ: (فما بال الطعام؟ قال: جشــاء ورشــح كرشــح المســك)[١]، (ينــادي منادي: إن لكم أن تصحوا فلا تســقموا أبــداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشــبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأســوا أبداً)[٢].

إذا فهو الشــباب الدائــم، والصحة الخالدة، والأمن الــذي لا يعرف الخوف.. لا أمراض في الجنة ولا أوبئة ولا مستشــفيات، ولا لصوص ولا قطاع طرق ولا طغاة ولا قمع ولا سجون ولا معتقلات، ولا فقر ولا عوز ولا تسول، ولا شيء سوى الثراء والجمال والفتنة والحب والبذخ والنعيم والاكتشاف والسفر عبر الجديد والمثير والسعادة الغامرة التــي لا تعــرف التوقف أو الملل أو الكآابة. فـ (إذا دخــل أهل الجنة الجنّة، وأهل النارِ النــارَ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنّة والنار، فيقال: يا أهل الجنّة هل تعرفون هذا؟

فيشرئبون، فينظرون، ويقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه.

ثــم ينادي: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشــرئبون، فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلّهم قد رآه.

فيؤمــر به فيذبح، ويقــال: يا أهل الجنّة خلود ولا موت، ويــا أهل النار خلود ولا موت)[٣].

وقــد خطف ﷺ أرواحهم وعقولهم وقلوبهم عندما تحدّث عن الجهاد في ســبيل اللــه، فقال: (غدوة في ســبيل الله أو روحــة خير من الدنيا وما فيهــا، ولو أن امرأة من نســاء أهل الجنّة اطلعت إلى الأرض لأضاءت مــا بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأســها خير من الدنيا وما فيها)[٤] المؤمنة في الجنة أبهى وأكثر سحراً وفتنة من الحورية.. لا حمل ولا ولادة ولا أمراض للنساء ولا حيض ولا نفاس ولا ترهل ولا شيخوخة..

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٢) حديث صحيح رواه مسلم - المشكاة (١٥٦٤/٣).
(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع (١٥٢/١).
(٤) حديث صحيح: رواه البخاري (المشكاة - ١٥٦٢/٣).

كل هذا السـحر.. كل هذا الجمال.. كل هذه الفتنة لنسـاء الجنّة المؤمنات، فلا عجب أن نرى ضمن الجيش نسـاءً خرجن للمشـاركة في المعركة.. يداوين الجرحى، ويسـقين العطشى. في مقدمتهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وزوجته عائشة بنت أبي بكـر الصديق، وصفية بنت عبد المطلب عمة رسـول الله ﷺ وأخت حمزة رضي الله عنهم، وأم سـليم بنت ملحان المشـهورة بـ (الرميصاء) وهـي أم أنس بن مالك عليهما السـلام، وهي من الأنصار، كما شـاركت أنصاريات أُخر منهنّ: أم سـليط رضي الله عنهـا، وفاطمة[1] بنت عمرو بن حـرام أخت عبد الله، وعمّة جابـر وزوجة عمرو بن الجموح، ونساء أخريات من المهاجرين والأنصار.

ولئن اسـتطاع بعض النساء أن يخرجن مع رسول الله ﷺ في حروبه، فإن هناك من الرجال من لا يقدر على الخروج، والحرج يحاصرهم بعد نزول هذه الآيات:

﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾

يقـول أحد الصحابة: (﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر)[2].

وكانت الآيات قد نزلت كما يحدثنا أول من سـمعها وأوّل من كتبها: زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقـول: (إن النبي ﷺ أملى عليه ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها علي، قال: يا رسول الله، والله لو أسـتطيع الجهاد معك لجاهدت -وكان أعمى- فأنزل الله على رسـوله ﷺ -وفخـذه على فخـذي- فثقلت عليَّ حتى خفت أن تُرضَّ فخذي، ثم سُـرِّي عنه، فأنـزل الله: ﴿ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾)[3]، فصارت الآية تقـرأ هكذا: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

---

(١) سيأتي ذكرهن أثناء المعركة وبعدها في أحاديث صحيحة إن شاء الله.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٥).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٩٢).

﴿... بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾[1].

لكن ماذا عن أجر القاعدين المعذورين؟

يقول ﷺ: (لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه.

قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حبسهم العذر)[2] فلم يحبس عنهم الأجر، فالمسلم ليس بأعماله فقط، بل بنواياه أيضاً. وإذا كان ابن أم مكتوم قد حبسه العمى، فإن هناك رجالاً حبسهم عن الجهاد رسول الله ﷺ، رغم أنهم لا يشكون من شيء في أجسادهم، ولا يشكّ ﷺ في إيمانهم، وإنما حبسهم عليه الصّلاة والسّلام ليكلفهم بمهمة جهادية داخل المدينة.. هي الرباط، والدفاع عن المدينة.. سواءً من غدر يهودي أو منافق.

المرابطون

على الآطام[3] والحصون.. هم رجال شجعان أوكل إليهم ﷺ حراسة المدينة والرباط فيها، وبشّر المرابطين بأجر عظيم، فقال ﷺ: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن من الفتان)[4].

وكان من بين الذين حظوا بهذا الأجر والأمر والد حذيفة بن اليمان.. ذلك الرجل الذي منعه العهد والوعد من مشاركة النبي ﷺ في معركة بدر، وصحابي آخر اسمه (ثابت بن وقش بن زعوراء) رضي الله عنهما، فـ (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد وقع اليمان ابن جابر -أبو حذيفة-، وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام مع النساء والصبيان)[5].

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري ٤- ١٦١٠ وأحمد ٣-١٦٠.

(٣) الحصون.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٢٠.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم (٣-٢٠٢): حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود ابن لبيد، عاصم تابعي ثقة مر معنا ومحمود بن لبيد صحابي.

اســتعدّ الجميع، وتأهبوا للخروج إلاّ رجلين.. الأول لا حاجة به إلى الاســتعداد، فهو لا يملك من هذه الدنيا شيئاً يحتاج إلى وداع أو وصية، فأملاكه كلّها في صدره.. إنه (مصعب بن عمير بن هاشــم بن عبد مناف) ابن الأم الثرية.. الشــاب المنعم أيام شــركه.. لا يملك الآن إلاّ سيفه، وقرآناً يملأ صدره، ويملأ بيوت المدينة بعد أن سافر في قلوب الأنصار، وزرع فيها العلم، وثقفها بالإيمان.. هذا هو مصعب بن عمير الذي لقبه الأنصار بـ«المعلم».

أمّا الآخر فشــاب يتمتّع بأحلى أيام عرسه.. إنه الآن مع عروسه.. يتبادلان عذب الكلام والأحلام.. صفو المشاعر والغرام، وفجأة يدوي في المدينة داعي الجهاد، فينسل (حنظلة بن أبي عامر) من قرب حبيبته، ويتحول العاشــق إلى محارب يودع عروســه بحرارة المحبِّ الذي لن يعود، فتهمي دموعها وتستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه، فهو أغلــى ما تملكه. ويغيب حنظلة عن عينيها، فتغيب في همومها وأحزانها التي لا تدري متى تنتهي.. أحزانها التي لا يخفّفها سوى الإيمان.

خــرج ﷺ من المدينة متوجهــاً نحو أُحد.. حاملاً ســيفه «ذا الفقار» الذي غنمه مــن غــزوة بدر، ولم يكتف ﷺ بلبس درعه، بل لبس عليــه درعاً آخر حيث يقول أحد الصحابة: (إن رسول الله ﷺ ظاهر يوم أُحد بين درعين -أو لبس درعين-)[1].

وإذا كان النبي ﷺ الذي يحفظه الله من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن فوقه ومن تحته يحتاط كل هذا الاحتياط، فصحابته أولى. يقول الزبير رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ قد ظاهر بين درعين يومئذٍ)[2]. ثم انطلق ﷺ لملاقاة حشود الشرك المحتقنة.. كانت رايته ترفرف في الهواء (كانت سوداء من نمرة)[3] صوف، أما لواؤه ﷺ فكان لواؤه (أبيض)[4].

---

(١) ســنده صحيح رواه أبو داود ٢-٣٧ وغيره عن يزيد بن خصيفة عن الســائب بن يزيد عن أحد الصحابة، ويزيد ثقة والسائب صحابي أيضاً.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٣/٢٣٨) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده، عن الزبير . يحيى ثقة ووالده تابعي ثقة.

(٣) صحيح أبي داود ٢-٤٩١ وقد حذفت لفظاً ضعيفاً من الحديث هو «مربعة».

(٤) المصدر السابق ٢-٤٩١.

وكان كل شيء في هذا الجيش يرفرف للجنّة وعوالمها الساحرة.. كان الرجال يتجمّلون للشهادة، إلاّ أشباه رجال خرجوا بأجساد نخرة، ومعنويات يجرّونها خلفهم كالذلّ.. رجال يرتجفون من كل شيء حولهم، ويحسبون كل صيحة عليهم.. خوفاً خرجوا.. خوفاً صحبوه ﷺ، لكن هلعهم تفاقم عندما اقتربوا من الحقيقة -المعركة.. عندها تحركت الخيانة في دمائهم، ونهضت كالشيطان تشير بأصبعها إلى الوراء.. تأمرهم بالعودة إلى المدينة، وترك محمد ﷺ وأصحابه، فاستجابوا ورجعوا.

صدم الصحابة بما حدث، ولم يصدم ﷺ، لأنه يعرفهم. صعق الصحابة بما يجري.. هل هؤلاء مسلمون؟ هب أنهم غير مسلمين، هل هذا التصرّف- العار من شيم العرب، وأخلاق العروبة؟

أين الرجولة.. أين النخوة؟ هباء.. كل شيء داخل هؤلاء الخونة هباء، إلاّ الكفر والحقد. لكن الصحابة لم يسكتوا، ولم يتحمّلوا هذا الموقف المخزي. قرّر بعضهم أن يبدأوا بقتال هؤلاء الأنذال الجبناء قبل أن يقاتلوا جيش مكّة المشرك، لكن البعض فضّل عدم إهدار طاقتهم وتدنيس أيديهم بدمائهم القذرة، وهذا ما مال إليه ﷺ، فلا بدّ من التركيز على الخطر الداهم - العاجل.

يقول زيد بن ثابت ملخصاً ما حدث من خيانة: (إن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. فأنزل الله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: إنها طيبة وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة)[1].

تلألأت الفضّة ولمعت بعد أن تعرضت لنار الشدائد، فانسلخ خبث النفاق عنها، ورجع الخونة دون أخلاق إلى جحورهم في المدينة كالحيات.. كالعقارب، وأصبح جيش محمد ﷺ قليلاً.. ضعيفاً إلاّ بالإيمان، لكن قلّة العدد والخيانة واستعداد العدو خيّم للحظات على بعض الأنصار وهم (بنو حارثة، وبنو سلمة) فقد كاد الإحباط والفشل أن يستولي عليهم، لكن القرآن يفعل المعجزات.

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٨٩)، وأحمد (١٨٤/٥) واللفظ له وأكملتها للفائدة.

نزل يغســل ما بهم من هموم وإحباط، فثبتوا مع رسول الله ﷺ كالجبال، بل لقد صار ذلك الموقف مبعث فخر لهم إلى يوم القيامة. لقد فرحوا بما نزل من آيات تصف حالهم، وتثني عليهم.

هــذا أحد أبنائهم يفرح بنزول كلام الله على نبيه فيهم فيقول: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾،

قال: نحن الطائفتان: بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب -وما يسرّني- أنها لم تنزل لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾)[1].

إذاً فهم أولياء الله، وهم بشــر يتعرّضون لما يتعرض له البشــر، لكن القرآن زاحم ذلك الفشل حتى نفاه، وذكرهم بنصر لم يتوقعوه، فدبّ الحماس في عروقهم وأرواحهم. يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

صفــت النفوس من الضعف، وتخلّص الجيش مــن معظم الخونة، وتوجّه الجميع إلى منطقة:

بين عينين وأُحد

وعينــين جبل، وأُحد جبل آخر وبينهمــا وادٍ[3] حيث وصل الجيش المؤمن، فتوقف النبي ﷺ، وتوقف أصحابه، وعندما لامســت أقدامهم تلك الأرض.. تأمّلها ﷺ جيداً، وتأمل أصحابه فوجدهم قلّة، فأدار المعركة في مخيلته قبل أن تدور على الأرض، فرأى جبل أُحد، (طلع له أُحد فقال: هذا جبل يحبّنا ونحبه)[4].

تأمــل ﷺ أُحداً فوجــده حبيباً للمؤمنين يتمنى خدمتهم فــي مثل هذه الظروف القاســية، فوظفــه ﷺ توظيفاً يرجــح به كفة جيش صغير، علــى جيش كبير كجيش

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٥٨).
(٢) سورة البقرة: الآيتان ١٢١ - ١٢٣.
(٣) هذا ما جاء في البخاري في حديث طويل (٤٠٧٢).
(٤) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٤٠٨٤).

قريش. لقد قرر ﷺ أن يستخدم هذا الجبل كدرع خلفي للجيش، ليس هذا فحسب، بل جعل من هذا الجبل قاعدة جوية تنتشر من أعلاه مظلّة تساند الجيش أثناء المعركة، وتحميه من أي التفاف قد يقوم به المشركون من خلف الجبل.. لا سيما وأنّهم قد سبقوا المسلمين إلى موقع المعركة، وهذا ما أوجب دقّة التخطيط، وضرورة الدقّة في التنفيذ، وأهمية الانضباط في العمل.

أخرج ﷺ من الجيش مجموعة من الرماة، وحدّد لهم موقعاً على الجبل، وأمرهم بالبقاء فيه مهما كانت الظروف.. مهما كانت النتيجة.. و(جعل النبي ﷺ على الرماة يوم أُحد عبد الله بن جبير)[1] قائداً لا يجوز لهم أن يعصوه.

لقد كان ﷺ يدرك خطورة الموقف وشدّته.. كان واضحاً وصارماً في تعاليمه للرماة، لقد (أقامهم في موضع ثم قال: احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا غنمنا فلا تشركونا)[2]. لا مكان للتوقعات والظنون، ولا للحماس الزائد، ولا للاجتهادات الفردية.. البقاء على الجبل حتى تصدر الأوامر بعكس ذلك.. كان ﷺ يريد عزلهم عن كل هذه الأمور، كي يتفرغوا ويركزوا ويكرّسوا كل طاقاتهم واهتمامهم لوظيفتهم التي حدّدها ﷺ، وهي واضحة جداً.. جداً. وهل هناك أشدّ صرامة من قوله ﷺ للرماة (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[3].

سمع الرماة وأطاعوا، وصعدوا خلف قائدهم عبد الله بن جبير، وأخذ كل منهم موقعه على الجبل، أمّا على الأرض، فقد كان هذا النبي والقائد العبقري ﷺ ينظم صفوفه. سندعه يكمل تنظيم جيشه بينما نلقي نظرة على ذلك الجيش الوثني المحتقن

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام البخاري (٣٩٨٦).

(٢) ظاهر إسناده الضعف لكنه صحيح رواه أحمد ١-٨٧ و٢-٢٨١٨ حدثنا سليمان ابن داود، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله عن ابن عباس. عبيد الله تابعي ثقة ثبت وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا أيضاً، وابنه عبد الرحمن ثقة تغير حفظه عندما قدم بغداد. وسليمان بن داود سكن بغداد وهو ثقة فقيه جليل، لكن الناقد علي بن المديني رحمه الله له رأي في رواية سليمان عن عبد الرحمن يقول: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة وجعل علي يستحسنها، سمع ذلك من علي يعقوب ابن شيبة وذكره الإمام الترمذي في علله (٢-٦٠٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

بالثـأر وبهزيمـة بدر.. إنـه يقبع قرب جبل «عينـين» وهذا ما جعلهم يسـمونه «عام عينين»[1]، بينما كان المسلمون يسمّونه «عام أُحُد».

كان جيش قريش يفتقد إلى أشياء كثيرة.. أهمّها الهدف الموحد والبعيد للمعركة.. كانت المعركة بالنسبة لهم ذات أهداف شخصية بالدرجة الأولى، فعكرمة بن أبي جهل خرج للثأر لأبيه، وأبي بن خلف جاء ليقتل رسـول اللـه ﷺ ثأراً لمصرع أخيه أمية بن خلف، وجبير بن مطعم لا أدري هل كان ضمن الجيش أم لا، لكنه يحلم بالثأر لعمّه من حمـزة. وبما أنه لا أحـد يقدر على مواجهة حمزة، فقد فضّل أن يقدم إغراءً لمن يقوم بهذه المهمة، فعرض على عبده «وحشي» القيام بذلك مقابل حريّته، ووحشي لن يواجه حمزة، ولا يسـتطيع، لكنه يجيد الرماية بالحربة، وهو أمر ممكن لأن حمزة سـيكون بعيداً عندها، ولا تحتاج هذه المهمة سوى إلى الانتظار والترقّب.

قدم المطعم عرضه، فقبل وحشـي القيام بهذه المهمـة من أجل الحرية، والحرية فقط، فوحشـي ليس بينه وبين المسـلمين أي عداء.. عدوّه الوحيـد هو الرق، أمّا أبو سفيان فربما أخرجته للمعركة زعامته الجديدة لقريش، بعد هلاك الطواغيت السبعة ومصرعهم على سـاحة بدر، وربما حرضته على ذلك زوجته (هند) التي كانت تتحرق للثأر، بعد هـلاك أبيها وعمّها وأخيها، على يد حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم. ومن الأشياء التي يفتقدها الجيش الوثني: حب الموت، والاحتفاء بالشهادة، فهم يحرصون على الحياة كحرص المؤمنين على الشـهادة، وهذا الشيء هو سرّ تحطّم أعتى الجيوش على أيدي المؤمنين.

ومن الأشـياء التي يفتقدها جيش قريش: النظام، فمن الصعب جداً أن تسـيطر علـى جيش يبحث كل فـرد فيه عن فرد ضمن جيش آخر. هناك تشـتّت في الاتجاه والهدف، وهذا ما حرص ﷺ على إبعاده عندما قال للرماة:

(إن رأيتمونـا تخطفنـا الطير، فـلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسـل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[2].

واقتربت المعركة بين جيشين: جيش قوي، وجيش ذكي، فكانت:

---

(١) دليلي على ذلك تسـمية وحشـي لغزوة بـ«عام عينين» كما جاء ذلك عند البخاري (٤٠٧٢) وكان وحشـي ضمن جيش المشركين.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

البداية دعاء

بدأ ﷺ كعادته بالدعاء.. لقد (قال يوم أُحد: اللّهمّ إنك إن تشأ لا تعبد في الأرض)[1]، فمن أجل عبادة الله وحده لا شريك خرج ﷺ وأصحابه.. لا يريدون مالاً، ولا جاهاً.. خرجوا من ديارهم ينشرون دين الله، وخرجوا للقتال دفاعاً عن نشره، ومن أجل الأصنام خرج أولئك الوثنيون.

كان لهذا الدعاء بشائر بالإجابة و:

بشائر النصر

ها هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشخص ببصره إلى رسول الله ﷺ، ليرى منظراً أبيض لا يدري من هو، ولا ما هو؟ فيقول: (رأيت بشمال النبي ﷺ ويمينه رجلين عليهما ثياب بيض يوم أُحد، وما رأيتهما قبل ولا بعد)[2].

لا شكّ أنها الملائكة. لكن هل ستشارك كما شاركت في غزوة بدر؟ سنعرف الإجابة بعد قليل، فهل بقي من بشائر بالنصر على أرض أُحد؟

أجل.. كان ذلك بعدما صف النبي ﷺ المؤمنين صفاً خلف صف.. عندها غشيت البشارة بعض الصحابة، وكان صحابي يسمى (أبو طلق) أحدهم.. حيث يقول: (غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد)[3] و(كنت فيمن تَغَشَّاه النعاس يوم أُحد، حتى سقط سيفي من يدي مراراً، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه)[4].

رفع طلحة بن عبيد الله رأسه فرأى منظراً غريباً يترنح تحت الدروع والتروس، فقال رضي الله عنه: (رفعت رأسي يوم أُحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته[5] من النعاس)[6]، وكان بين صفوف المؤمنين بعض المنافقين الذين لم

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٤٣)

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥٨٢٦).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٦٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٨).

(٥) أي تحت ترسه.

(٦) سنده صحيح رواه الترمذي (٣٠٠٧) والحاكم (٢/٣٢٥) والنسائي في الكبرى (٦/٣٤٩) وأبو يعلى (٣/١٤) من طرق عن الثقة المعروف حماد بن سلمة عن التابعي الثقة ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه.. وثابت سمع من أنس.

يجرؤوا على الفرار.. إنهم الآن يرتجفون، وهم يرون هذا الجيش القليل العدد والعدّة، ويزيد من ارتجافهم وغيظهم هذا النعاس الذي يحرق الأعصاب.. كأني بالمنافقين ولسان حالهم يقول: انهضوا أيها... من نومكم.. أما ترون الموت يملأ المكان؟

لقد كان النعاس أمناً للمؤمنين، وخوفاً ورعباً للمنافقين، وفي ذروة الخوف والأمن، وخلال ذلك الصمت المخيم يشقّ الساحة صوت ينطلق من معسكر الأصنام بالتحدي.. فارس جاهلي شجاع اسمه (سباع بن عبد العزى) يصرخ ويقول:

هل من مبارز

من سيبارز هذا الشجاع؟ دعونا نطرح هذا السؤال على رجل يهمّه جداً ما حدث، وشاهد -جيداً- ما حدث.. إنه وحشي الذي جاء من أجل مهمة واحدة هي طعن حمزة فقط.

يقول وحشي: (خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحادّ الله ورسوله ﷺ؟ ثم شدّ عليه فكان كأمس الذاهب)[1].. لفظ غاية في تصوير الحدث وسهولة حدوثه (كأمس الذاهب) يعبّر عن سهولة هلاك الشجعان على يد حمزة.. سقط ذلك الفارس، وارتفع سيف حمزة يطلب المزيد، وارتفعت معنويات المؤمنين، وزاد حماسهم كما زاد حماسهم بعد مبارزة بدر، فأراد رسول الله ﷺ أن يؤجج ذلك الحماس ويوظفه فصرخ بجموع المؤمنين رافعاً سيفاً: (من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟

فبسطوا أيديهم، كل إنسان فيهم يقول: أنا.. أنا...

فقال ﷺ: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال له سماك «أبو دجانة»: أنا آخذه بحقه. فأخذه ففلق به هام المشركين)[2] الذين أذهلتهم هذه المعنويات. لقد أفنى حمزة مبادرتهم، ومزّق أبو دجانة من أمامه منهم، والتحم الجيشان، فبان الفرق بين جيش همجي غاشم، وبين جيش متحضر له هدف وتخطيط وأسلوب رفيع في التنفيذ.. جاء

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم فضائل الصحابة (٢٤٧٠) وابن أبي شيبة بسند صحيح.

أحد الصحابة يبحث عن سـبق، بعد أن تفوّق حمزة وأبو دجانة فقال لرسول الله ﷺ: (أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنّة، فألقى تمرات في يده ثم قاتل)[1].

وبـدأ الرماة بنشـر مظلتهم الجوية، ففوجئ المشـركون بجيـش يحصدهم على الأرض، ويمطرهـم من السـماء، فالرماة يؤدّون مهمّتهم بإتقان، وسـهامهم زخات من المـوت.. زخات من القبور.. فرّقت جمـوع الوثنيين، فصاروا يهربون في كل اتّجاه، ولم تكن السـهام تنطلق من قمة أحدٍ فقط. كان بقرب رسول الله ﷺ أمهر راميَيْن (سعد بن أبي وقاص) كان الأمهر. شـاهد علي بن أبي طالـب رضي الله عنه ما يحدث بين رسول الله ﷺ وبين سعد، وسمعه ورواه فقال: (ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد إلاّ لسعد بن مالك، فإني سمعته يقول يوم أُحد: «يا سعد ارم فداك أبي وأمي»)[2].

ويقول سـعد: (جمع لي رسـول الله ﷺ يوم أُحد أبويه كلاهما)[3]، لقد (نثل لي النبي ﷺ كنانته يوم أُحد، فقال: ارم فداك أبي وأمي)[4].

كان سـعد يمتع ناظري رسول الله ﷺ، بل ويضحكه فيقول رضي الله عنه: (كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبي ﷺ: ارم فداك أبي وأمي.

فنزعت له بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جنبه، فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله ﷺ حتى نظرت إلى نواجذه)[5].

ولم يكتف سعد بالرماية بين يدي رسول الله ﷺ.. لقد كان فارساً يفتك بمن أمامه، لقد اسـتجاب الله له فلقي كما تمنى: (رجلاً شديداً حرده أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وآخذ سلبه)[6] لكن ماذا عن رفيقه عبد الله بن جحش؟

هل اسـتجاب الله لدعائه؟ ليس بعد، فهو مازال يجالد بسيفه، ويجتثّ من يواجه من المشركين..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٦).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٩).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٧).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٥).
(٥) حديث صحيح مر معنا قبل قليل.
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).

لم ننس راميَ النبي ﷺ الآخر.. إنه أبو طلحة (كان رامياً شديد النزع، كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة.

ثم يشرف إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف، ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك)[1].

ماهــت الأرواح بالأرواح في جــلاد يزهق الأرواح.. نبي قائد يفــدي جنوده بأمّه وأبيه، وجنود يفدون نبيّهم بأمّهاتهم وآبائهم وأرواحهم.. كانت الصدور درعاً دونه ﷺ.. حتى الملائكة كانت درعاً دونه ﷺ.

يقول ســعد بن أبي وقاص: (رأيت رســول الله ﷺ يوم أُحد ومعه رجلان يقاتلان عنه -عليهما ثياب بيض- كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد)[2].

كان ﷺ مسروراً بما يرى من تنفيذ لتعليماته.. سعيداً بانتصار وحماس فرسانه.. مصعب بن عمير الذي لا يملك سوى سيفه وقرآناً يملأ صدره وأجواءه.. يلقن المشركين دروساً كما يلقن الأنصار الآيات والسور، وذلك الشيخ الأعرج عمرو بن الجموح، ورفيق دربه عبد الله بن عمرو بن حرام يقاتلان كالشــباب، لكن للسنّ أحكام قاسية.. سقط عبد الله والد جابر شــهيداً على أرض المعركة.. أوّل شهيد في سجلات أُحد، وها هي الملائكة من فوقه ومن حوله (الملائكة تظلّله بأجنحتها)[3] يا لها من شهادة.. يا لها من كرامة، وبعده بزمن يســقط رفيق دربه عمرو بــن الجموح، ليطأ بعرجته أرض الجنّة، ويدليها على أنهارها ومياهها ومن شرفات قصوره الفارهة..

وبينما كانت المعركة تتأجج بركاناً يقذف حمماً.. يقذف جثثاً ودماءً وصل:

ضيفان على المعركة

إنهما: حسيل والد حذيفة، وصحابي آخر هو (ثابت بن وقش) رضي الله عنهما.. لقد ضاقت بطموحهما أســوار المدينة وحصونها.. تلفتا فأحسا أن هذا المكان لا يليق

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٤١٢).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٤).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

بشجاعين مثلهما، ففرّا إلى حيث الوغى.. إلى حيث السيوف والشهادة، وعندما وصلا إلى أُحُد.. وجدا أن المعركة قد حمي وطيسها، فتسلّلا بين المؤمنين دون أن يعلموا بهم، فماذا كانت العاقبة؟

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد وقع اليمان ابن جابر أبو حذيفة، وثابت بن وقش بن زعوراء في الآطام[1] مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه -وهما شيخان كبيران-: لا أبا لك ما ننتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منّا من عمره إلا ظمأ حمار، إنما نحن هامة القوم. ألا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ؟! فدخلا في المسلمين -ولا يعلمون بهما-)[2]، وقاتلا المشركين، ولكنهما شيخان كبيران، وفي الشيخوخة ضعف (فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما أبو حذيفة)[3]، فله قصة عجيبة سنعرفها بعد قليل.

ضيف ثالث على المعركة

اسمه (عمرو بن أقيش) أراد أن يسلم في يوم من أيام السلام والسكون، لكنه كان يتعامل بالربا مع بعض المشركين، ولم يكن في عجلةٍ من أمره لكي يسلم، ففضل أن يذهب ليأخذ رباه بصفته مشركاً، ثم يعود لكي يعلن إسلامه.

سافر ابن أقيش إلى المكان المقصود قبل غزوة أحد، ثم عاد ليجد المدينة لا تضحى بأموالها فقط، بل بأرواحها طاعة لله ولرسوله ﷺ، فهانت أموال عمرو أمام عينيه، وهان رِبَاه، وهان كل شيء في نظره، وكشفت الشدائد عن معدنه، وكشف لنا أحد الصحابة عن خبره فقال: (إن عمرو بن أقيش كان له رِباً في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يوم أُحد، فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأُحُد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأُحد.

فلبس لأمته، وركب فرسه ثم توّجه قِبَلهم، فلما رآه المسلمون، قالوا: إليك عنا يا عمرو. قال: إني قد آمنت، فقاتل حتى جرح فحمل إلى أهله جريحاً.

---

(١) الحصون أو البيوت المرتفعة.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢: حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد. عاصم تابعي ثقة التقريب ٢٨٦ وشيخه صحابي وقد مر معنا.

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الحاكم ٣-٢٠٢ بالسند السابق.

فجاء ســعد بن معاذ، فقال لأخته: ســليه حمية لقومك، أو غضباً لهم، أم غضباً لله عزّ وجلّ؟ قال: بل غضباً لله عزّ وجلّ ورســوله، فمات، فدخل الجنّة وما صلّى لله صــلاة)[1]. دخــل الجنّة كما دخلها عمرو بن الجموح، وعبــد الله بن عمرو بن حرام.. دخل الجنّة وما صام لله يوماً.

يا لكرم الله.. الجنّة - خلودها وســحرها وعوالمها لهذا الفارس من أجل لحظات، لكنهــا لحظــات من التوحيد.. لحظات شــارك فيها عمرو بن أقيــش في الدفاع عن التوحيد وأهله، شارك فيها أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً.. شارك فيها طلحة وأبا عبيدة وسعيد بن زيد وسعد وعبد الرحمن بن عوف والزبير، وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأبــا دجانة، وأنس بن النضر.. أنس بن النضر الذي بهر من يراه بشــجاعته، لقد برّ بقسمه.. ها هو كالأسد بين الصفوف لا تزيده الجراح الكثيرة إلاّ شراسة وإقداماً في الفتــك بأعداء الله، ولا يتفوّق عليه إلاّ حمزة الذي كان يقاتل بطريقة جديدة، ويصرخ بمعنويات شهيد. شاهده سعد بن أبي وقاص ونقل ما شاهد فقال: (كان حمزة بن عبد المطلب يقاتل يوم أُحُد بين يدي رسول الله ﷺ بسيفين، ويقول: أنا أسد الله)[2].

كان حمزة يحزّ الرقاب، ويذل الطغاة، فهم يتساقطون أمامه.. لا شيء يصمد في وجهه.. لم يترك فرصة لأحد كي ينال من رسول الله ﷺ، ولم يترك فرصة لأحد لينال منه.. حتى ذلك البعيد عنه الذي لم يشــترك في القتال، ولم يحمل سيفاً للدفاع حتى عن نفسه.. ذلك الأسمر الذي يراقب حمزة وحربته بيده.. لم يجد -حتى الآن- فرصة

---

(١) ســنده لا بــأس به رواه أبــو داود ٢-٤٨٢ والبيهقي في الكبرى ٩-١٦٧ وغيرهم من طرق عن موســى بن إســماعيل، حدثنا حماد بن ســلمة، أنبأنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. موسى ثقة ثبت وشيخه مثله التقريب ٥٤٩ و١٧٨ ومحمد بن عمرو حسن الحديث إذا لم يخالف التهذيب ٩-٣٦٧ وشيخه تابعي ثقة وهو ابن عبد الرحمن بن عوف.

(٢) سنده صحيح رواه: البيهقي، حدثنا أبو عبد الله، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، حدثنا محمد بن شــاذان الجوهــري، حدثنا معاوية بن عمرو، عن أبي إســحاق الفزاري، عن ابــن عون، عن عمير بن إسحاق، عن سعد. أبو عبد الله هو الحاكم، وشيخه محمد بن بالويه هو أبو علي كما جاء في ترجمته في تاريخ بغداد ١-٢٨٢ والصواب أبو بكر، وقال فيه البرقاني: ثقة، وشــيخه ثقة التقريب ٤٨٣ وشــيخه ابن المهلب.. ثقة من شــيوخ البخاري التهذيــب ١٠-٢١٥ وإبراهيم بن محمد الفزاري ثقة حافظ التقريب ٩٢ وعمير بن إســحاق تابعي قال الحافظ: مقبول.. والصواب أنه: ثقة وقول ابن معين: ليس شــيء يعني أنه قليل الحديث، وابن معين قال عنه: ثقة (قواعد في علوم الجرح للتهانوي - ٢٦٣) وقال النسائي: ليس به بأس، ولم يورده العقيلي إلا أنه لم يرو عنه إلا واحد.

للإجهاز عليه، وهو لا يجسر على اقتحام أهوال حمزة وجحيمه. إنه يقول: إنني (أنظر حمـزة وأتبصّره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدّ الناس بسـيفه هدّاً ما يقوم له شـيء)[1]، وما يجرؤ أحـد من قريش على التصدّي لهذا الحتف الذي يصرخ: أنا أسد الله.

لقد فرّق حمزة والأسود معه جمع قريش ومزّقوهم.. إنهم يهربون.. ينهزمون خلف الصخور، ووراء الجبال.

هـا هو الزبير يلاحـق فلولهم المنهزمة المهرولة من هنا وهناك، تاركين نسـاءهم خلفهـم، حتى أن بإمكانه أخذ ماشـاء منهن.. الزبير يقول: (واللـه لقد رأيتني أنظر إلـى خدم[2] هند بنت عتبة وصواحباتها مشـمّرات هـوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير)[3].

ورأى منظر الهزيمة شاب صغير هو البراء بن عازب الذي يقول: (فأنا والله رأيت النساء يشددن، قد بدت خلاخلهنّ وأسوقهن رافعات ثيابهن)[4].

ويقول رضي الله عنه عن هزيمة المشـركين: (فهزموهم، فأنا والله رأيت النسـاء يشتددن على الخيل، قد بدت خلاخيلهن وأسوقهن رافعات ثيابهن)[5].

الساحة الآن للرسول ﷺ وأصحابه.. هرب الوثنيون تاركين نساءهم في متناول الزبير وأصحابه، أما نساء المسلمين فكنّ كرجالهم يمارسن التمريض والإسعاف بالماء والدواء.

يقول أنس بن مالك: (لقد رأيت عائشـة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمّرتان، أرى خدم سـوقهما تُنَقِزان القرب على متونهما، فتفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[6].

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (ابن كثير - ٣/٣٥) وقد مر معنا عند الكلام على وحشي.

(٢) الخدم: هي الخلاخيل.

(٣) سنده صحيح: رواه إسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد، عن عبد الله بن الزبير عن أبيه.. وشيخ ابن إسحاق ثقة - التقريب (٢/٣٥١) ووالده تابعي ثقة - التقريب (١/٣٩٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٣) والبيهقي (٣/٢٢٩) واللفظ له.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٣).

عائشة رضي الله عنها وهي في أوج نشاطها وحماسها.. تصف ما حدث بعبارة مختصرة، فتقول: (هزم المشركون يوم أُحد هزيمة بيّنة تعرف فيهم)[1].

وروى أحد الصحابة ما حدث لحملة الراية من المشركين شيئاً مذهلاً، لقد استبدلتهم سيوف حمزة ورفاقه سبع مرات أو أكثر.

يقول رضي الله عنه: (وقد كان لرسول الله ﷺ أوّل النهار، حتى قتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة)[2] يتساقطون كجدران الطين القديمة وقد داهمتها الرياح والأمطار، لتخلو الساحة من ثأر المشركين وأصنامهم.

خلت الساحة إلاّ من ركضهم بحثاً عن بقايا حياة، بعد أن خبا ثأرهم، وسافر بعضهم إلى الجحيم.. كانت الساحة مليئة بجثث الطواغيت المنتنة.. المتناثرة في كل مكان، وكان عدد الجثث حتى الآن قريباً من السبعين جثة.. أحد هذه الجثث كان حياً مصاباً.. يتظاهر بالموت خشية أن يجهز عليه أحد فرسان محمد ﷺ. لقد سقط هو وحلمه الذي حمله معه من مكة، فقد خرج ليقتل رسول الله ﷺ، لكن رفاق حمزة أسقطوهما معاً.. هذا الرجل يدعى (وهب بن عمير) ومازال لديه أمل بالحياة.

يقول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شهد أُحداً كافراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار فعرفه، فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره ثم تركه)[3].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨) والبيهقي (٣/ ٢٣٠) واللفظ له.

(٢) ظاهر سنده الضعف لكنه صحيح رواه أحمد ١-٨٧ و ٢-٢٨٨: حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن عباس، عبيد الله تابعي ثقة فقيه - أحد الفقهاء السبعة، وأبو الزناد تابعي ثقة مر معنا، وأما ابنه فمن أجله قلت ما قلت.. فهو ثقة لكنه تغير عندما قدم بغداد، فالنقاد يضعفون ما رواه في بغداد، وسليمان ابن داود ثقة فقيه جليل ممن سكن بغداد، لكن الناقد الكبير علي بن المديني رحمه الله قال - مستثنياً رواية هذه الثقة عن شيخه عبد الرحمن: (ما روى سليمان الهاشمي عنه فهي حسان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة، وجعل علي يستحسنها) ذكر ذلك الإمام الترمذي في علله: (٢/٦٠٦).

(٣) سنده قوي: رواه الطبراني (١٧/٦٢): حدثنا أحمد بن زهير التستري حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني لا أعلمه إلا عن أنس. أبو عمران اسمه عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة التقريب ٣٦٢ وقد صح سماعه من أنس التهذيب ٦-٣٨٩ وتلميذ صدوق من رجال مسل التقريب ١٤٠ وعبد الرزاق معروف. وابن سهل ثقة من رجال مسلم التقريب ٤٨٢ وشيخ الطبراني هو تاج المحدثين من أحفظ أهل عصره. انظر البلغة للعلامة حماد الأنصاري (٨٩).

ماذا حدث لوهب بعد ذلك هل مات.. أم مازال حياً؟ سنعرف الإجابة بعد نهاية المعركة، والتي انتهت حتى الآن إلى هزيمة كالجحيم.. سقط فيها أكثر من ستين مشركاً، أما الأسرى فقد بلغ عددهم سبعين أسيراً. إن الساحة الآن تذكر بانتصار بدر.. سبعون للأسر وسبعون للقبر، ومحمد ﷺ يكحل ناظريه بمشهد يسرّ النفس ويشرح الصدر.

لكن هذا المهرجان لم يدم طويلاً، لقد كانت الساحة جميلة.. مكتنزة بالغنائم والانتصار.. كأن كل شيء قد انتهى.. المشركون انتهوا، والمؤمنون انتهوا إلى القمة. لكن بعض الصحابة الذين كانوا على القمة ارتكبوا كارثة، لقد حوّلوا تلك القمة إلى قاع دموي.. خاض فيه المشركون وشربوا وانتشوا.

ماذا فعل الرماة

كان بعض الرماة يشاهدون الانتصار الهائل والغنائم، فتيقنوا أن كل شيء قد حسم، وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني أغرتهم الغنائم، فقرّروا النزول، عندما أنساهم الحماس قول نبيهم ﷺ: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم..)(1).

تأخر الأمر عليهم.. لم يرسل النبي ﷺ أحداً، فظنّوا أن كل شيء قد تمّ على ما يرام.. حكّموا رأيهم واجتهدوا، مع أن كلام رسول الله ﷺ لا يزال مدوياً في آذانهم، فخالفوا أمره وأمر أميرهم عبد الله بن جبير، وهتفوا ببعضهم (الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنظرون؟

فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة)(2) وانحدر الرماة وانحدرت الكارثة معهم.. شاهدهم المشركون المنهزمون، فلاح لهم بريق الانتصار، واستجمعوا قواهم من جديد في محاولة للانقضاض ما دام خطر الأسهم المربك والشائك قد زال عن سماء المعركة.

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).
(2) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٩).

عاد أبو سفيان والمشركون وهم يرون هذا الفراغ في السماء، والارتباك على الأرض.. الارتباك الذي أحدثه الرماة عندما زاحموا إخوانهم المكلفين بجمع الغنائم، وكأن أمر الغنائم لم تنزل به الآيات.. كان الرماة النازلون من الجبال يحسبون أن من سبق فهو أحق. حدثت فوضى عارمة داخل الصف المؤمن، وانفلت الزمام، وضاع النظام. وتحوّل الجيش الإسلامي إلى شبكة لا يعرف لها أوّل ولا آخر.

تلك الصفوف المنظمة التي تقاتل كبنيان مرصوص.. حولها الرماة -رضي الله عنهم- بمخالفتهم إلى شيء كالفوضى.. وصفه أحد الصحابة أدقّ الوصف، فقال: (لما غنم النبي ﷺ وأناخوا عسكر المشركين، أكبّ الرماة جميعاً فدخلوا في العسكر ينهبون. وقد التقت صفوف أصحاب النبي ﷺ، فهم: كذا -وشبك أصابع يديه- والتبسوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير)(١) بسبب واحدٍ فقط.. هو عدم الالتزام بتعليمات القيادة الصادرة منه ﷺ، وقد كلّف هذا الخطأ الكثير، والكثير. فالمعركة الآن...

المعركة بأيدي المشركين

والمبادرة بأيديهم، فالجيش المؤمن يقتل بعضهم بعضاً من الفوضى، والمشركون يعينوهم على ذلك، وفي قلب الظلمة والفوضى تعالى الصياح والضجيج، وصار المسلمون يصدقون كل شيء، ويستجيبون لكل صارخ، فقد دوت على أرض أُحد صرختان: حوّلت كل واحدة منها جيش الإسلام إلى زوبعة من الفوضى.

صرخة تقتل حسيلاً

فبينما كان حسيل والد حذيفة يتمتع بالنصر مع رسول الله ﷺ، بعد أن حرم منه هو وابنه حذيفة في غزوة بدر، إذ بصارخ يصيح بالمؤمنين ليتشفّى بمرأى الدماء.. كانت عائشة هناك.. تصبّ الماء للجرحى، وتداوي وتصغي لما حدث وتقول: (هزم المشركون يوم أُحُد هزيمة تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أي عباد الله.. أخراكم.

---

(١) سنده قوي وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد (١/٨٧ - ٢/٢٨٨).

فرجعت أولاهم فاجتلدت هـي وأخراهم، فنظر حذيفة بن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي، أبي.

قالت: فوالله ما انحجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: غفر الله لكم.

قال عروة بن الزبير بن العوام: فوالله مازالت في حذيفة منها بقية حتى لقي الله)[1].

يـا لإيمان حذيفة.. يا لعتاب حذيفة. والده المؤمن المجاهد تقطعه السـيوف، فلا يتلفظ بكلمة نابية، ولا حتى بعتاب مجروح.. تنهد قائلاً: غفر الله لكم.. ذرفها كالدموع وهو يرى حبيب قلبه، وصديقه ووالده الحنون يهوي بسيوف أحبابه خطأ.

إن لحذيفـة إيمانـاً صافياً كأنهار الجنّة.. رحم الله حسـيلاً ورحـم الله الرماة، ورضي الله عنهم جميعاً.

وفي غمار المعركة الثانية.. كانت سيوف المشركين تنهش لحوم الفرسان ودماءهم، بينما كان وحشـي ينتظـر دور الحربة والحرية، ليجهز على حمزة وليبشّـر جبير بن مطعم بـ:

استشهاد حمزة

كان حمزة يشـاهد مـا يحدث ويصمد لـه، حتى لاح فراغ كبير وسـط المعمعة، فانكشف حمزة لوحشي..

سأترك الكلام لوحشي ليحدثنا عما فعله بأسد الله ورسوله حيث سأترك الحديث لوحشي الذي يسـتتر من حمزة.. يلبس الأحجار والأشجار.. يتقنّع بها خشية أن يراه هذا الموت الهائل الذي يهدّ الناس بسيفين أحمرين.. يهدّ الناس بصوته.. رعداً يدوي: أنا أسـد الله ورسـوله.. كان حمزة فارساً يجوب الشـجاعة إلى أقصاها، بينما كان وحشي ينتظره كي يردفه إلى عالم الحرية.

كان حمـزة يجوب السـاحة بحثاً عن مُنازل، حتى كان آخـر ضحاياه قرب مخبأ وحشـي.. سقط آخر ضحايا حمزة فنهض وحشـي الذي يقول: (خرجت أنظر حمزة

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٦٦٨).

وأتبصره، حتى رأيته في عرض الناس كأنه الجمل الأورق يهدّ الناس بسـيفه هدّاً، ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيّأ له، أريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني)[1] (وهـزت حربتي حتى رضيت منها دفعتها إليه «رميته بحربتي»، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه)[2].

انفجـرت دماء حمزة.. تسـاقطت على الأرض ولم يسـقط.. التفت إلى طاعنه ولاحقه، وطاعنه خائف يقول: (وذهب لينوء نحوي، فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ثم رجعت إلى العسـكر، وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأعتق)[3].

ودّع حمزة الدنيا، وقدم وحشـي لسيده أغلى مبلغ في الدنيا يُدفع ثمناً لعبد. كان المسـلمون في تراجع وانكسار.. كانوا في غفلة عن جسـد حمزة الطاهر، الذي تقدم إليه شخص مجهول، فأخرج أداةً حادةً فجدع بها أنف حمزة، وشقّ بطنه وشوّه جسده الطاهر، ومثّل به، وهكذا يفعل الجبناء، وماذا لديهم سوى ذلك..؟

شـاهد أحد الصحابة ما فعل بأسـد الله - بحمزة عمّ رسول الله ﷺ، فانطلق إلى رسول الله ﷺ ليخبره بالفاجعة. لكن أين رسول الله ﷺ وسط هذا الغبار والفوضى..؟

إنه ليس على جبل أُحُد، فالرماة نزلوا، ولم يبقَ إلاّ قائدهم عبد الله بن جبير وقلّة معه من الصابرين، لكن المشركين باغتوهم بأعداد كثيرة، فاستشهدوا جميعاً على قمة الامتثال والجبل، أمّا على الأرض، فالأمر غامض جداً، بل هو مفجع.

ها هو أحد المشركين يدوي بالجموع المشتبكة.. صرخ كالشيطان وقال:

إن محمداً قد قتل

سـمعه الزبير وأذهله ما سـمع. يقول رضي الله عنه: (مالت الرماة إلى العسكر حين كشـفنا القوم عنه يريدون النهب، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من أدبارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا، وانكفأ علينا القوم)[4].

---

(١) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٢) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٣) حديث صحيح مر معنا وهو حديث وحشي السابق عند ابن إسحاق والزيادة للبخاري.
(٤) سنده صحيح وقد مر معنا وهو بقية حديث الزبير عند ابن إسحاق.

لكـــن أنس بن النضـــر عم أنس بن مالك لم ينكفـــئ.. كان يقاتل عن رجلين.. عن معركتين.. عن بدر، وعن أُحُد. يقول ابن أخيه أنس رضي الله عنه: إن عمّه (غاب عن بدر فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ. لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله «ما أصنـــع»، ما أجد، فلقي يوم أُحد.. فهُزم الناس فقال: اللّهمّ إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المســـلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشـــركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ)[١]، (فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس: يا أبا عمرو أين؟ واهاً لريح الجنّة «إني» أجده دون أحد..)[٢]. (فقال سعد: أنا معك -

قال سعد: فلم أستطع أصنع ما صنع)[٣].

وقال أنس بن مالك أنه عمه (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضعٌ وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية)[٤].. كان وجه أنس بن النضر مشـــوّهاً لا يعرف.. كان جسده ميدانـــاً لمعركة أخرى انتصر فيها الوفاء، وخرج منها أنس مزيناً بالطعنات والشـــهادة والوعد الصادق، فلئن مات رسول الله ﷺ شهيداً، فليلحق به أنس بن النضر.

أما بعض الصحابة فقد أذهلهم الخبر وأســـقط في أيديهـــم، وانهارت معنوياتهم فولّوا عن أرض المعركة لا يلوون على شيء بعد أن رأوا هذه الكارثة، وسمعوا بمقتله ﷺ، وكان أحد هؤلاء (عثمان بن عفان وسعد بن عثمان -رجل من الأنصار- حتى بلغوا الجلعب -جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص)[٥]، وكأنّهم يقولون لأنفسهم: وماذا نحن بعد رسول الله ﷺ؟

أمّا البقية ففضلوا الموت على ما مات عليه رسول الله ﷺ.. أحدهم هذا الفارس المجهول، الذي يقول عنه سهل بن سعد: (ما رأينا مثل ما أتى فلان، لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشـــركين سادة ولا قادة إلا أتبعها يضربها بسيفه)[٦]، وما زال يضربهم

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٤٨).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد.. وهو ثلاثي على شرط الشيخين كما قال ابن كثير.. حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس.. وشيخ أحمد ثقة وهو ابن هارون.. وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس وهو حميد الطويل.

(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الإمارة - ثبوت الجنة..) والزيادة عند البخاري.

(٥) ســـنده صحيح رواه ابن إســـحاق ومن طريقه الأموي (ابن كثير - ٣-٥٥) حدثني يحيى بن عباد، عن أبيه عن جده.. وهذا الإسناد مر معنا. يحيى ثقة، وعباد تابعي ثقة.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى - زوائد (١-٤٢٨) واللفظ له.

حتى الآن.. في الوقت الذي استشـــهد فيه صاحب التمرات، فقد (قاتل حتى قتل)[1]، كما سقط على أرض المعركة رجل فقير لكنه كان بحجم الدنيا.

استشهد مصعب

مصعـــب بن عمير، الذي خرج من ثروته وزينته ليلحق برســـول الله ﷺ.. مصعب الذي خـــرج من مكة وحيداً، ليثقف جيلاً من أجيـــال المدينة.. مصعب الذي خرج من المدينة نحو أُحُد.. لا يملك من الدنيا إلاّ سيفه ورداءه، وقرآناً يملأ صدره، ويغنيه عمّا يراه من حطام الدنيا.. سقط مصعب على أرض أُحُد.. تبكيه المدينة ومكّة، ويبكيه أحد الصحابـــة الصائمين عندما قدم له طعام إفطار شـــهي، فتذكر مصعباً وجوع مصعب فقال: (قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في برده، إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا -أعطينا من الدنيا ما أعطينا- وقد خشـــينا أن تكون حســـناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى تـــرك الطعام)[2]، وتذكره أيضـــاً رفيق دربه وعذابه خباب بن الأرتّ فقال: (هاجرنا مع رســـول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنّا من مضى بســـبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير.. قتل يوم أُحد، ولم يترك إلاّ نمرة، كنّا إذا غطّينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطّينا رجليه بدا رأسه)[3] رضي الله عن مصعب ما أعظمه.. ســـافر والدموع من حوله، بعد أن ملأ الصدور والنفوس علماً وحباً ونظافة وثقافة.. نالت منه ســـيوف الشـــرك وهو يدافـــع عن دينه وعن نبيـــه ﷺ، ولم تكتف الســـيوف من جسده.. السكاكين والمشـــارط حملها الحقد فتفننت في جسده الطاهر تقطيعا وتشويها، بقر بطنه، وجدع أنفه، وقطعت أذناه.. هنيئاً لك مصعب.

كما نالت الســـيوف من ذلك الشـــاب العروس، الذي ترك فتاته ليموت دون دينه ونبيّه ﷺ، ليكمل احتفالاته في الجنّة، وكان قبيل سقوطه في صراع مع رجل شجاع من صفوف المشركين هو (أبو سفيان) وهو ليس أبو سفيان زعيم قريش. لا، ولكنه (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب)

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري وقد مر معنا.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١-١٢٧٥).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وقد حذفت كلمات بين عمير... وقتل. وهو قوله رضي الله عنه: ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهد بها.

ابن عمّ رســول الله ﷺ الذي آذاه في مكة، وهو ما يزال حتى الآن مشــركاً، وقد تغلب عليه حنظلة وعلاه بسيفه وكاد أن يطيح برأسه ولكن ما الذي حدث؟

حنظلة بن أبي عامر وأبو سفيان بن الحارث

حنظلة (التقى هو وأبو سفيان بن الحارث، فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالســيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا ســفيان)[1]، لكنه نجا، وليس لحنظلة أكثر من ذراعين.. باغته شــداد وأرسله إلى الموت شهيداً. تتحدث عنه الدنيا، وعن شهادته.. سافر حنظلة وسافر معه شاب يحتفل بالشهادة على طريقته المحبّبة إلى نفسه.

شهادة هو اختارها

وانتقــى من المولى كيفيّتها.. إنه عبد الله بن جحــش، الذي دعا الله قبل المعركة فقال: (اللّهمّ ارزقني رجلاً شــديداً حرده، شــديداً بأسه، أقاتله ويقاتلني، ثم يأخذني فيجــدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رســولك ﷺ، فتقول: صدقت)[2]، فاستجاب الله لعبد الله بن جحش، فالتقى بمحارب عنيف وشديد فقتله، ولما هوى عبد الله على الأرض أخذه ذلك المشرك ومثّل به، فشقّ أنفه وأذنه، وعلّق أنفه وأذنه بخيط..

كل هؤلاء ســافروا.. كل هؤلاء الشــهداء كانوا في طريقنا ونحن نبحث عن رسول الله ﷺ.. تعالوا خلف هذا الفاتك المغوار، الذي يجول ويصول دون أن يصدق أن رسول الله ﷺ قد قتل، لكنه في الوقت نفســه لا يعتقد أن رســول الله ﷺ على ساحة أُحد، ولا خلف جبالها، ولا حتى على ساحة بدر أو في المدينة.

لقد عاد هذا الشجاع من جولة كالفجيعة.. كان يقلّب الجثث، فتؤلمه وجوه أصحابه وأحبابــه من الشــهداء وهو يبحث بمرارة عن حبيبه محمــد ﷺ، لكنه لم يجده فأين ذهب؟ وأين ذهبت الظنون بهذا الشاب المكسور الحزين؟

---

(١) سنده صحيح مر معنا كثيراً رواه ابن إسحاق، ومن طريقه السراج (الإصابة ١٢-٢٩٩) رواه الحاكم ٣-٢٠٤ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن جده.

(٢) سنده جيد وقد مر معنا.

تعالــوا نتعرف عليه وعلى حيرتــه.. إنه زوج فاطمة الزهــراء.. إنه علي ابن أبي طالب، وهو يظن أن:

رسول الله ﷺ في السماء

يقــول رضي الله عنه: (لما انجلى الناس عن رســول الله ﷺ يوم أُحد، نظرت في القتلى فلم أرَ رســول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرّ، ولا أراه في القتلى، ولكن أرى اللــه غضب علينا بما صنعنــا، فرفع نبيّه ﷺ، فما لي خير مــن أن أقاتل حتى أُقتل، فكســرت جفن ســيفي ثم حملت على القــوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برســول الله ﷺ بينهم)(١).

كان ﷺ غارقــاً في أحزانه ودمائه، حيث (جرح وجه رســول الله ﷺ، وكســرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه)(٢) هشمت البيضة التي كان يغطي بها رأسه فشجّ رأسه، (وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه)(٣).

رأى عليّ بن أبي طالب رســول الله ﷺ وتألم لما حدث، لكنه كان في أشدّ حالات الارتيــاح لأنه لم يــزل حياً على الأرض.. فكيف علم الآخرون بمكانه؟ وكيف أحاط كل هذا الجمع به؟ فقد كان حوله أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وسعد والحارث بن الصمة وأبو طلحة وابن مســعود وأكثر من اثني عشــر رجلاً من الأنصار؟ لن يحدّثنا أيّاً من هؤلاء فالكلمة لـ:

أول من عرفه ﷺ

الكلمة للشاعر المجاهد (كعب بن مالك) حيث: (كان كعب أوّل من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة، وقول الناس: قتل رســول الله ﷺ. قال كعب: عرفت عينيه تزهران من تحت

---

(١) سنده حسن رواه أبو يعلى زوائد ٢-٤٣٠ حدثنا أبو موسى، ثقة ثبت حافظ التهذيب ٩-٤٢٥ حدثنا محمد بن مروان العقيلي، حســن الحديث إذا لم يخالف قال الحافظ: صدوق له أوهام ٥٠٦، عن عمارة بن أبي حفصة ثقة من رجالهما التقريب ٤٠٨.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٣) سنده صحيح رواه أبي شيبة ٧-٣٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن الزبير. عفان ثقة ثبت إذا شــك في حرف من الحديث تركه، وشــيخه ثقة معروف وبقية السند لا يسأل عنها وقد مر معنا كثيراً.

المغفر، فناديت بأعلى صوتي: يا معشـــر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليّ أن انصت «اسكت»)[1]. ربما لكي لا يعلم المشركون بمكانه.

سمع هذا الصرخة سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وسبعة من الأنصار، فهبوا نحو صاحبها، وســمع الصرخة جمع من المشـــركين فلحقوا بهم، فماذا حدث يا أنس؟ أجب بالله عليك. يقول أنس رضي الله عنه: (إن رســول الله ﷺ أفرد يوم أُحد في ســبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه[2] قال ﷺ: من يردهم عنّا وله الجنّة، أو هو رفيقي في الجنّة؟

فتقـــدم رجــل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه، فقـــال: من يردّهم عنّا وله الجنّة أو هو رفيقي في الجنّة.

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل الســبعة، فقال رســول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنـــا)[3] يعني الأنصار. لكن الأنصار كانوا حضوراً غامراً.. مفعماً بالحب والفداء.. يصنعون الأحداث، فيتحدث التاريخ وفاءً.

لقد التحق بالأنصار الشهداء شــهداءٌ آخرون، فزاد مجد الأنصار وفخرهم على أرض أُحُد.

يقول أحدهم وكأنه يكمل حديث أنس الســابق: (لما كان يوم أُحد وولّى الناس، كان رسول الله ﷺ في ناحية «في اثني عشر رجلاً. منهم طلحة»، فأدركهم المشركون، فقال النبــي ﷺ: مــن للقوم؟ «قال طلحة: أنا. قال ﷺ: كما أنــت»، فقال رجل: أنا، قال ﷺ: أنت.

فقاتــل حتى قتل. ثم التفت فإذا المشـــركون، فقال ﷺ: من لهم؟ «قال طلحة: أنا، قال ﷺ: كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا، قال ﷺ: أنت.

---

(١) ســنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه الطبراني في الأوسط، مجمع البحرين، ٥-١٠٥ والبيهقي في الدلائل ٢-٤٨٢: حدثني الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك. الزهري إمام معروف وشــيخه له رؤية وتابعي ثقة له رؤية رواه عن والده.

(٢) أي اقتربوا منه.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة أحد).

فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله طلحة، «فقال ﷺ: من للقوم؟ قال طلحة: أنا» فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قطعت أصابعه، فقال حسّ، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: باسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، ثم ردّ الله المشركين)[1] الذين سمعوا بمكانه ﷺ ولم يبق معه ﷺ في هذا الوقت سوى اثنين من الصحابة.. يقول أحد الصحابة: (إنه لم يبق مع النبي ﷺ في تلك الأيام الذي يقاتل فيهن غير طلحة وسعد)[2]، وقد قاتل طلحة حتى قطعت أصابعه وشلّت يده.. رآها أحد الذين أدركوا الجاهلية والإسلام واسمه: قيس بن أبي حازم فقال: (رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شلّت)[3].

أثناء هذه الظروف العصيبة والجراح الدامية، دوت صرخة كبيرة نحو رسول الله، وذلك بعد أن انتشر الخبر أن رسول الله ﷺ لا يزال على قيد الحياة، فتداعى الصحابة من كل مكان (فلما عرفوا رسول الله ﷺ نهضوا به معهم نحو الشعب، ومعه أبو بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير والحارث بن الصمة في رهط من المسلمين، ولما أسند رسول الله ﷺ في الشعب، أدركه أُبيّ بن خلف وهو يقول: يا محمد.. لا نجوت إن نجوت.

فقال القوم: أيعطف عليه يا رسول الله رجلٌ منّا؟

فقال: دعوه.

فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة)[4] أخذ النبي ﷺ الحربة وهو في أشدّ حالات الإعياء والعطش، لدرجة أنه كان يمشي ويسقط، ولكنه استجمع قواه ليبعث بها مع حربة الحارث بن الصمة نحو جسد هذا الطاغوت النزق.

---

(١) حديث حسن بما قبله عدا ما بين الأقواس الصغيرة وسنده فيه ضعف، لأنه من رواية أبي الزبير عن جابر وهو مدلس ولم يصرح بالسماع من جابر هنا والرواية عند النسائي - ٦-٣٠ والطبراني ٨-٣٠٤ والحاكم ٤-٥٧٠ ولآخر الحديث شواهد تقويه عند المقدسي في المختارة ٣-٤٢ والطبراني في الشاميين بسند فيه تابعي مجهول عن أنس ٢-١٢٨.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري عن أبي عثمان النهدي (٤٠٦٠ - ٤٠٦١).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٤).

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه أبو نعيم (٤٨٢) وقد مر معنا وللحديث شواهد.. ولم أذكر بقية الحديث لأنه من بلاغات ابن إسحاق دون سند وهو قوله: يقول بعض القوم -فيما ذكر لي- : فلما أخذها رسول الله ﷺ -أي الحربة- انتفض بها انتفاضة تطايرنا عنه تطاير الشُّعْر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله فطعنه بها طعنة تدأد منها عن ظهر فرسه مراراً. والشُّعُر: ذباب أزرق يؤذي الإبل.

الرسول يستسقي دماءً

لا يستسقى مطراً، بل الساحة والصحابة بأشدّ الحاجة إلى دماء هذا الطاغوت الجرىء، الذي سفك هو وأخوه من الدماء ما يكفي.

سأترك الحديث للزبير ليكمل لنا القصة: يقول رضي الله عنه: (شجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد في وجهه، وكسرت رباعيته، وذلق من العطش حتى جعل يقع على ركبتيه، وتركه أصحابه. فجاء أبي بن خلف يطلبه بدم أخيه: أمية بن خلف، فقال: أين هذا الذي يزعم أنه نبيّ فليبرز لي، فإنه إن كان نبياً قتلني.

فقال رسول الله ﷺ: أعطوني الحربة. فقالوا: يا رسول الله، وبك حراك؟ فقال: إني قد استسقيت الله دمه.

فأخذ الحربة ثم مشى إليه، فطعنه، فصرعه عن دابّته، وحمله أصحابه فاستنقذوه، فقالوا له: ما نرى بك بأساً.

قال: إنه قد استسقى الله دمي، إني لأجد لها ما لو كانت على ربيعة ومضر لوسعتهم)[1]، ثم هلك مع من هلك من الطواغيت قبله، ولحق بأخيه إلى الجحيم - أعاذنا الله منها، وهرب أتباعه بعد أن رأوا تلك الضربة النبوية المميتة، وتراكضوا نحو أصحابهم يخبرونهم عن رمح رسول الله ﷺ، وعن قوّة رسول الله ﷺ ليكدر عليهم بقية نصرهم.

أمّا رسول الله ﷺ، فبعد أن زرع الرمح في جسد أبي بن خلف.. رجع إلى مكانه متعباً يشير إلى سنّه المكسورة، وجثّة ذلك الطاغوت فقال ﷺ: (اشتدّ غضب الله على قوم فعلوا بنبيّه -يشير إلى رباعيته- اشتدّ غضب الله على رجلٍ يقتله رسول الله في سبيل الله)[2] (اشتدّ غضب الله على قوم دموا وجه نبيّ الله)[3].

(اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[4].

---

(١) سنده صحيح مر معنا قبل قليل رواه ابن أبي شيبة ٣-٣٧١: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٣).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٤).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

رجع ﷺ بينما كان أبو طلحة وغيره كالقلعة حوله ﷺ.

يقول أنس رضي الله عنه: (لما كان يوم أُحد انهزم ناس عن رسول الله ﷺ، وأبو طلحة بين يديه مجوباً عليه بحجفة، وكان رامياً شديد النزع، كسر يومئذٍ قوسين، أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجعبة من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: انثرها لأبي طلحة، ثم يشرف على القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، لا تشرف، يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك)[1].

كان أبو طلحة قائمة من الخيارات الجميلة بين يديه عليه السلام، (وكان أبو طلحة يدفع صدر رسول الله ﷺ بيده ويقول: يا رسول الله هكذا لا يصيبك سهم، وكان أبو طلحة يسور نفسه بين يدي رسول الله ﷺ، يقول: يا رسول الله إني قوي جلد، فوجهني في حوائجك وابعثني حيث شئت)[2].

لم تصب السهام رسول الله ﷺ، لكنها نقشت الشهادة على صدر أحد شباب الصحابة.. كانت شهادة غريبة. غريبة لأن صاحبها لم يمت في أُحد، ولا بعد أُحد، ولا حتى في حياة النبي ﷺ. فما قصة هذا:

الشهيد الذي يمشي على الأرض

شاب اسمه (رافع بن خديج) شهيد، لكنه يعيش بين الناس.. يأكل معهم ويشرب ويصلّي ويصوم، بل ويجاهد في معارك أخرى في هذه الدنيا، مع أنه من شهداء أُحد! كيف ذلك..؟

تقول زوجته رضي الله عنها: (إن رافعاً رمى مع رسول الله ﷺ يوم أُحد بسهم، في ثندوته، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنزع السهم؟

قال ﷺ: يا رافع.. إن شئت نزعت السهم والقطبة جميعاً، وإن شئت نزعت السهم وتركت القطبة، وشهدت لك يوم القيامة أنك شهيد. فنزع رسول الله ﷺ السهم، وترك

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٦٤).

(٢) سنده كالذهب رواه عبد بن حميد (٣٩٩) حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس.. وسليمان ثقة إمام حافظ وبقية السند مر معنا.

القطبة فعاش بها)[1] حتى مات حاملاً شـهادته على ثندوته.. على صدره، بينما كانت ذقون المؤمنين على صدورهم، فأمن الصحابة من جديد بعد أن أنزل الله:

النعاس من جديد

يقول الزبير بن العوام رضي الله عنه: (لقد رأيتني مع رسـول الله ﷺ حين اشتدّ الخوف علينا، أرسـل الله علينا النوم، فما منّا من رجل إلاّ ذقنه في صدره، فوالله إني لأسـمع قول معتب بن قشـير -ما أسمعه إلاّ كالحلم- يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنـا،، لقول معتب)[2] والآيات التي نزلت في هذا المنافق المدعو: (معتب بن قشـير) وبقايا المنافقين الذين أبقاهـم الخوف، وأفصح عن نفاقهم الخوف.. هذه الآيات هي قولـه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾[3].

أمـا أولئك الذين لاذوا بالفرار بعـد نزول الرماة وحدوث الانتكاسـة، فقد تاب الله عليهم وعفـى عنهم وأنزل فيهم قوله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾[4].

---

(١) سـنده صحيح رواه الطبراني: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن المنهال (ح) وحدثنا محمد بن محمد التمار، حدثنا أبو الوليد ومحمد بن كثير.. قالوا: حدثنا عمرو بن مرزوق الواشـحي، حدثنا يحيى بـن عبد الحميد بـن رافع بن خديج عن جدته وهي امرأة رافع رضي الله عنه.. ويحيى تابعي ثقة الجرح والتعديـل ٩-١٦٨ وتلميذه صدوق التهذيب ٨-١٠١ وتلاميذ عمرو كلهم ثقات وأبو الوليد هو الطيالسـي وشيخ الطبراني وتلميذ الحجاج هو الثقة علي بن عبد العزيز بن المرزبان البغوي (البلغة - ٢٢٨).

(٢) سنده صحيح مر معنا كثيراً رواه ابن إسحاق (تفسير ابن كثير - ٢/١٢٦): حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

أمّا على أرض المعركة الآن فيقول أنس: (لقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشـمِّرتان، أرى خدم سـوقهما تنقزان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم)[1].

أمّا عمر بن الخطاب فيحدّثنا عن امرأة عظيمة أخرى هي «أم سـليط»، فيقول: (إنها كانت تزفر لنا القرب يوم أُحد)[2].

شـرب النبي ﷺ وشـرب العطشـى، وانحاز كل جيش إلى معسـكره إلاّ مسلماً مشغولاً بمطاردة فلول المشـركين، فيطارده الإعجاب في كل مكان يصول فيه ويجول. لقد كان هذا الفارس المتغلغل في جموع المشـركين وأجسادهم ملء السمع والبصر من الصحابـة.. كانوا يمدحونه.. يرون أنه أكثر من صـارع الكفار وصرعهم، وأنه لا أحد ممن بقي حياً من المسلمين قاتل مثل قتاله، فسمع الرسول ﷺ بأمره، فسأل عن اسمه ونسبه؟ فأخبروه. فلم يعرفه، ووصفوا له وجهه وجسده ولباسه فلم يعرفه، وبينما كان يطارد إحدى ضحاياه مرت ضحيته، ومرّ كالسـهم وراءها بين عيني رسـول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ كلمة آلمت الصحابة جداً:

هذا الفارس من أهل النار

الصحابي سـهل بن سعد رضي الله عنه كان حاضراً يسمع ويرى، ويروي فيقول: (إنـه قال: يا رسـول الله -يوم أُحد- ما رأينا مثل مـا أتى فلان - أتاه رجل - لقد فرّ الناس وما فرّ، وما ترك للمشركين شَاذَّة ولا فَاذَّةً إلا اتبعها يضربها بالسيف.

قال ﷺ: ومن هو؟ فنسـب لرسـول الله ﷺ نسبه فلم يعرفه، ثم وصف له بصفة فلم يعرفه، حتى طلع الرجل بعينه، فقال: ذا يا رسول الله الذي أخبرناك عنه.

فقال: هذا؟ فقالوا: نعم. فقال ﷺ: إنه من أهل النار.

فاشتدّ ذلك على المسلمين، قالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقـال رجـل من القوم: يا قوم، أنظروني فوالذي نفسـي بيده لا يموت على مثل الذي

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٨١١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧١).

أصبــح عليه، ولأكونــن صاحبه من بينكم. ثم راح على جده فــي العدو، فجعل الرجل يشــدّ معه إذا شــدّ، ويرجع معه إذا رجع، فينظر ما يصير إليه أمره، حتى أصابه جرح أذلقه[١]، فاســتعجل الموت، فوضع قائم ســيفه بالأرض، ثم وضــع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من ظهره.

وخرج الرجل يعدو ويقول: أشــهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله. حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: وذاك ماذا؟ فقال: يا رسول الله، الرجل الذي ذكر لك فقلت: من أهل النار، فاشتدّ ذلك على المسلمين وقالوا: أيّنا من أهل الجنّة إذا كان فلان من أهل النار؟ فقلت: يا قوم أنظروني، فوالذي نفسي بيده لا يموت على مثل الذي أصبح عليه، ولأكونن صاحبه من بينكم، فجعلت أشدّ معه إذا شد، وأرجع معه إذا رجع، أنظر إلى ما يصير أمره، حتى أصابه جرح أذلقه، فاســتعجل الموت، فوضع قائم سيفه بالأرض، ووضع ذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه حتى خرج من بين ظهره، فهو ذاك يا رسول الله يضطرب بين أضغاثه.

فقال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنّة فيما يبدو للناس، وإنه من أهــل النــار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل الجنّة)[٢] كما في قصة عمرو بن أقيش الذي لم يسلم إلاّ وسط المعركة، واستشهد فدخل الجنّة وهو لم يصلّ لله ركعة واحدة.

أمّا هذا البطل المجاهد فهو من أهل النار، ليس لأنه غير مسلم. بل هو مسلم، لكن هناك فرق بين الاستشهاد والانتحار، وهذا البطل المجاهد قد انتحر، فلم يصبر لتقتله جروحه، أو يشــفى منها. لم يقتله أحد، بل هو الذي قتل نفســه، ولو أدرك ما للجراح والآلام مــن منافع لطلــب المزيد، فقد قال ﷺ: (ما أحد مــن الناس يصاب ببلاء في جســده الا أمر الله عز وجل الملائكة الذين يحفظونه فقال اكتبوا لعبدي كل يوم وليلة ما كان يعمل من خير ما كان في وثاقي)[٣] ليبدأ من جديد مطهراً من كل ذنب.

---

(١) بلغ به الألم أشده.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٢٠٢) وأبو يعلى (زوائد - ٤٢٨/١) واللفظ له وسنده عنده، حسن: حدثنا يحيى بن أيوب، حدثنا ســعيد بن عبد الرحمن القاص عن أبي حازم، عن ســهل بن ســعد.. وهذا السند حسن من أجل سعيد...

ملاحظة: ورد في الزوائد أنه: سعيد القاص والصواب: القاضي، قاضي بغداد وليس في ترجمته ما يدل على انه قاص، وأبو حازم لم يسمع إلا من سهل جامع التحصيل ٢٢٧.

(٣) ســنده صحيح رواه أحمد ٢-١٥٩ وغيره من طريق علقمة بن مرثد عن القاســم بن مخيمرة عن عبد الله ابن عمرو. وعلقمة والقاسم ثقات من رجال مسلم.

ويقـول ﷺ عن الذين يكثر ابتلاؤهـم وامتحانهم في الدنيا: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحبّ قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط)[1].

أمّا عن مثل هذا المسلم الشجاع، فقد قال ﷺ: (من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم)[2].

مـات ذلك الفـارس ومضى إلى حيث مضى، ونهض ﷺ إلـى مكان عند صخرة ليستريح، وحوله من حوله من الصحابة. لكن النبي ﷺ وقبل أن يستريح أراد الإطلاع إلى ما آلت إليه المعركة، فحاول الصعود على الصخرة فلم يسـتطع، لأنه كان مرهقاً، ولأنّه كان يلبس درعين، فتأمّله طلحة رضي الله عنه، وتأمّل يده تشـخب دماً، فهانت عليه آلامه ومتاعبه ويده، فنثرها جميعاً تحت قدميه ﷺ.. حقاً لقد:

أوجب طلحة

يقول الزبير رضي الله عنه: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في أُحد «وكان على النبي ﷺ يوم أُحد درعان»، فذهب رسول الله ﷺ لينهض على صخرة، فلم يستطع، فبرك طلحة بن عبيد الله تحته، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره حتى جلس على الصخرة.

قال الزبير: فسمعت رسول الله ﷺ يقول: أوجب طلحة)[3].

أي فعل ما يوجب دخوله الجنّة.

نظـر ﷺ إلى ما أراد أن ينظر إليه (ثم أمر رسـول اللـه ﷺ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأتى بالمهراس[4]، فأتاه بماء في درقته، فأراد أن يشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه، فغسل به الدم الذي في وجهه وهو يقول: اشتدّ غضب الله على من دمى وجه رسول الله ﷺ)[5].

---

(١) سـنده قوي رواه الترمذي ٤ - ٦٠١ وغيره عن يزيد بن أبي حبيب عن سـعد بن سـنان عن أنس. وسعد تابعي صدوق ويزيد ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ١-١٠٣.

(٣) سنده صحيح مر معنا رواه ابن إسحاق ومن طريقه - ابن حبان (زوائد - ٥٤٦) واللفظ له والحاكم ٣-٣٧٤ وأحمـد ١-١٦٥: حدثنـي يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عـن عبد الله بن الزبير عن أبيه: ويحيى تابعي ثقة.. والزيادة للحاكم.

(٤) إناء صغير مصنوع من الحجارة.

(٥) سنده صحيح رواه ابن إسحاق من الطريق السابق.

لكن الله سبحانه وفي هذه الساعة المريرة يرسل جبريل عليه السلام إلى نبيه مصححاً .. شارحاً صدره، ليتسع لأكثر من هذه المعركة ومآسيها .. ليكون صدراً من تسامح وهداية لكل الأرض، فبعد أن (شج في وجهه، وكسرت رباعيته، ورمي رمية على كتفه، فجعل يسيل الدم على وجهه، وهو: يمسحه ويقول: كيف تفلح أمة فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1]).

امتثل ﷺ، فمسح قوله ودمه بدعاء كالمطر: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[2]، وجاءت ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها لتغسل الدم عن وجه أبيها، كما غسلته أيام مكة المضنية.

يقول أحد الصحابة عليهم السلام: (أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي.

كانت فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ بن أبي طالب يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلاّ كثرة، أخذت قطعة من حصير وأحرقتها، وألصقتها فاستمسك الدم)[3].

وبعد أن استمسك الدم، وهدأت الساحة، أُخبر ﷺ باستشهاد حمزة ورفاقه فتكدّر، وحزن حزناً شديداً، ثم قال: (من رأى مقتل حمزة؟ فقال رجل أعزل: أنا رأيت مقتله، قال ﷺ: فانطلق أرناه.

فخرج ﷺ)[4] في الوقت الذي يتحدث البعض عن مقتل النبي ﷺ لأنهم لم يروه حتى الآن، فهم هناك مهمومون في البحث عنه. يقول أحد الصحابة رضي الله عنه:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (١٧٩١) والترمذي (٣٠٠٣) واللفظ له وسنده صحيح.

(٢) سنده حسن رواه ابن حبان ٣-٢٥٤ والضحاك ٤-١٢٣ من طريق محمد بن فليح عن موسى بن عقبة عن الزهري عن أنس. ومحمد حسن الحديث من رجال البخاري، التقريب ٥٠٢ وموسى والزهري إمامان ثقتان ثبتان.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٥).

(٤) سنده حسن ورواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧٢: حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن عبد العزيز، حدثنا الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه - وهذا السند رجاله ثقات إلا أن في عبد الرحمن بن عبد العزيز كلاماً لا ينزل به عن رتبة الحسن، فهو ثقة كما قال يعقوب بن شيبة، وهو كثير الحديث عالم بالسيرة كما قال ابن سعد ووثقه ابن حبان وهو من رجال مسلم. أما جرحه فهو غير مفسر. قال الأزدي: ليس بالقوي عندهم.. وقال ابن أبي حاتم شيخ مضطرب الحديث (التهذيب ٦/٢٢٠) وقال الحافظ ملخصاً أقوال العلماء في التقريب (٤٨٩/١) صدوق يخطئ. وليس هناك من لا يخطئ.

(فما زلنا كذلك ما نشكّ أنه قتل، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتكفئه إذا مشى، ففرحنا كأنه لم يصبنا ما أصابنا.

فرقـي نحونا وهو يقول: اشـتدّ غضب الله على قوم دموا وجه رسـول الله ﷺ. ويقول مرة أخرى: اللّهم إنه ليس لهم أن يعلونا. حتى انتهى إلينا فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: أعل هبل، أعل هبل -يعني آلهته-)[1].

أطلق أبو سـفيان هذه الكلمات المنحطّة منتشـياً بنصر غير مؤكّد، فقد هزم هو وجيشه في أوّل المعركة، وكاد الزبير أن يسبي زوجته هند ورفيقاتها، وجُندل من جيشه سـبعون، ومازال المسـلمون يحتفظون بسبعين آخرين في الأسـر. أما المسلمون، فقد استشهد منهم سبعون، ولم يؤسر منهم أحد.

لو كان نصر أبي سـفيان وجيش الشـرك من خلفه حقيقياً لخلصوا رفاقهم من الأسـر، وطاردوا المؤمنين إلى المدينة، وهي قريبة من أُحد، لكن المشـركين لم يصدقوا أنهـم قتلوا حمزة.. لم يصدقوا أنهم نجوا مما حدث أوّل النهار، وكان أعلى ما حصلوا عليه هو إطلاق إشاعة موت الرسول ﷺ.. هم أطلقوها، وهم صدّقوها.

أمّا المسلمون، فيعتبرونها خسارة إذا ما قارنوها ببدر، أو قارنوا أوّل النهار بآخره، لكن المعركة في الميزان العسـكري نصر للمؤمنين، وهم الأعلون الآن فوق الجبل، وأبو سفيان في أسفل الجبل يزعج الجبال والفضاء ويقول: أعل هبل.

ولما لم يجد إجابة لهذا الاسـتفزاز.. ألحق به اسـتفزازاً آخر فقال: (أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟)[2].

فلم يجبه أحد، فأصبح أكثر تعقّلاً وتأدّباً، فقال: (أفي القوم محمد..؟ أفي القوم محمد..؟ أفي القوم محمد..؟

---

(١) حديث صحيح عند أحمد وقد مر تخريجه من طريق سليمان ابن داود أخبرنا بن أبي الزناد.

(٢) حديث صحيح وهو حديث ابن عباس السابق عند أحمد.

فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة..؟ أفي القوم ابن أبي قحافة..؟ أفي القوم ابن أبي قحافة؟

ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب..؟ أفي القوم ابن الخطاب..؟ أفي القوم ابن الخطاب..؟

ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك)[1] (هذا رسول الله ﷺ، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دول، وإن الحرب سجال. فقال عمر: لا سواء، قتلانا في الجنّة، وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خبنا إذاً وخسرنا. ثم قال أبو سفيان: أما إنكم ستجدون في قتلاكم مثلاً[2]، ولم يكن ذلك عن رأي سراتنا، ثم أدركته حمية الجاهلية، فقال: أما إنه قد كان ذلك فلم نكره) (ستجدون في القوم مثلة[3] لم آمر بها ولم تسؤني ثم أخذ يرتجز: أعل هبل.. أعل هبل،

قال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال: قولوا: الله أعلى وأجلّ

قال أبو سفيان: إن لنا العزى ولا عزّى لكم.

فقال النبي ﷺ: ألا تجيبوه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟

قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم)[4].

عندها خسئت ألفاظ الشرك، وتهاوى تمجيد الخرافة والأصنام أمام هذا التوحيد النقيّ، الذي لا تشوبه شائبة، لكن أحد المشركين أراد التطاول على هذا الإخلاص المتوهّج في صدر محمد وصحبه عليهم الصّلاة والسّلام.. أراد أن يحمل أصنامه إلى رحاب الله، فكيف كانت العاقبة..؟

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١) دون تكرار إنما قال الراوي: ثلاث مرات.

(٢) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.

(٣) أي ستجدون تشويهاً بجثث أصحابكم وتقطيعاً.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٤١).

يقول بريدة رضي الله عنه: (إن رجلاً قال يوم أُحد: اللّهمّ إن كان محمد على الحق فاخسف به. فخسف به)[1].

رأى المشـركون المعجزة بأعينهـم، فالتهمت بقية معنوياتهم كمـا التهمت الأرض ذلك المتطاول، فولّوا مدبرين إلى مكّة على عجل خشـية أن يهبّ المؤمنون مرة أخرى، فيخطفـوا بقايا الفرح التي التقطوها من أرض أُحد. وقد يتسـاءل بعض المشـركين وهـو في طريق عودته: إذا كان الله قد أعطى محمـداً المعجزات كقتل أبي بن خلف، والخسف بهذا الرجل، فلم لم ينصره علينا، وعلى الدنيا نصراً مؤزراً حتى الآن..؟!

وقد غاب عن ذهن هذا المتسـائل المسـطح أن الإسـلام لا ينتشر بالمعجزات، ولا بالخوارق، لأنها تأتي مع الأنبياء وتغادر معهم، أمّا الإسلام فقد جاء للبشر، وبجهدهم -بعد الله- ينتشـر وينـداح وينتصر، وبانحطاطهم وتخلّفهم وسـطحية فهمهم يتحوّل الإسلام إلى ضحية.. إلى خزانةٍ ضخمةٍ مليئة بالتهم.. يلقي فيها الناس عيوبهم.

هـا هم أفضل الناس.. أصحاب محمد ﷺ، عندمـا عصوه -مجتهدين- انقلبت المعركة على رؤوسـهم، ورؤوس أصحابهم الملتزمين بأوامره، ولم تسعفهم المعجزات ولا الدعوات لـ(إن الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[2].

أمّا رسـول اللـه ﷺ، فقد هبّ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد إدبار المشـركين، فبدأ بالدعاء لجبر ما انكسـر من الداخل.. دعاء الواثـق، لا دعاء ذلك الغارق بين طبقات الأرض، وذلك: (لما كان يوم أُحد وانكفأ المشـركون، قال رسـول الله ﷺ: استووا حتى أثني على ربّي، فصاروا خلفه صفوفاً.

فقـال: اللّهمّ لك الحمد كلّه، اللّهمّ لا قابض لما بسـطت، ولا باسـط لما قبضت، ولا هـادي لما أضللت، ولا مضلّ لمن هديـت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقـرّب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللّهمّ أبسـط علينـا من بركاتك، ورحمتك،

---

(١) سنده حسن رواه البزار (زوائد - ٢/٣٢٩) حدثنا عبدة بن عبد الله أنبأنا زيد بن الحباب، أنبأنا الحسين ابن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال الهيثمي رحمه الله: رجاله رجال الصحيح.. وهو كما قال إلا أن زيداً من رجال مسـلم فقط وحديثه حسـن إذا لم يخالف - التقريب (١/٢٧٣) وشيخ البزار من رجال البخاري فقط وهو الصغار - ثقة: التقريب (١/٥٣٠) والحسـين بن واقد ثقة من رجال مسـلم (السـابق - ١/١٨٠) وعبد الله تابعي ثقة من رجال الشيخين.

(٢) حديث صحيح انظر صحيح الجامع الصغير.

وفضلك، ورزقك، اللّهمّ إنّي أســألك النعيـم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، «اللّهمّ إني أســألك النعيم المقيم يوم القيامة»، اللّهمّ إني أســألك النعيم يــوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللّهمّ إني عائذ بك من شــرِّ ما أعطيتنا، وشــرِّ ما منعت منّا، اللّهمّ حبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفســوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهمّ توفّنا مســلمين، وأحينا مســلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللّهمّ قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، اللّهمّ اجعل عليهم رجزك وعذابك، اللّهمّ قاتل «كفرة أهل الكتاب» إله الحق)[1].

هــدأت الأنفس مع الله، واطمأنت الأرواح بهــذا الدعاء، فالأمر لله من قبل ومن بعد، ولا رادّ لقضائه.. لله خرجوا، وله قاتلوا، والحمد لله على كل حال.

تهادى ﷺ وأصحابه خلف ذلك الرجل الأعزل، الذي مشــى أمامهم ليدلّهم على مقتل حمزة.. مشــى الرجل (حتى وقف على حمزة، فــرآه قد بقر بطنه، وقد مُثّل به، فقال: يا رســول الله، مثّل به والله. فكره رســول الله ﷺ أن ينظر إليه)[2] (وقد جدع ومُثّل به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفســها تركته حتى تأكله العافية، فيحشــر من بطونها)[3] أي من بطون الوحوش.

وصفية هذه التي خاف عليها ﷺ هي عمّته.. صفية بنت عبد المطلب، وهي شــقيقة حمــزة، وأم الزبيــر بن العوام، وهــي المقصودة بقوله ﷺ: (لولا جزع النســاء لتركته حتى يحشر من حواصل الطير وبطون السباع)[4] (ثم دعا بنمرة، فكانت إذا مدت على رأسه بدت رجلاه، وإذا مدت على رجليه بدا رأســه، فقال رســول الله ﷺ: مدوها على رأسه واجعلوا علــى رجليه الحرمل)[5] وهو نبات صحراوي يســتعمل في الطب.. اســتعمله ﷺ لتكفين الراقد الذي كان قبل ســاعات يزرع الرعب في قلــوب المجرمين قبل، وينشر الاطمئنان

---

(١) ســنده قوي رواه البزار زوائد ٢-١٣٠ والحاكم ١-٦٨٦ والبخاري في الأدب ٦٩٩ وغيرهم من طريق عبد الواحــد بــن أيمن المكي. حدثني عبيــد بن رفاعة بن رافع عن أبيه. عبيد تابعــي ثقة ولد على عهده عليه السلام وثقه العجلي، وعبد الواحد تابعي صغير من رجال مسلم قال في التقريب: لا بأس به، وقد روي عنه هذا الحديث ثقتان هما خلاد بن يحيى وهو من كبار شيوخ البخاري ومروان بن معاوية وهو ثقة حافظ.

(٢) سنده جيد رواه ابن أبي شيبة (٣٧٢/٧) لكن يشهد لأوله ما بعده.

(٣) ســنده حســن رواه الحاكم ١-٥١٩ وأبو داود (٣١٣٦) وغيرهم من طرق عن أســامة بــن زيد الليثي عن الزهري عن أنس. أسامة حسن الحديث من رجال مسلم التقريب ٩٨.

(٤) سنده ضعيف لكنه حسن بما قبله.. رواه ابن أبي شيبة ٧-٣٧٢ والبيهقي سنن -٤-١٢ وغيرهم طريق يزيد ابن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس. ويزيد ضعيف.

(٥) سنده حسن وهو حديث أسامة بن زيد عن الزهري عن أنس.السابق وحسنه الألباني.

على صدور المؤمنين.. هذا الراقد الذي قال عنه ﷺ: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب)[1] ثم توجه ﷺ إلى راقد آخر.. راقد وقف عند قبره طويلاً، وتأمّله طويلاً.. مسافر جمع المجد من أطرافه.. جمع العلم والفروسية.. على يديه تعلمت المدينة كتاب الله، وأصغت إليه طرياً من فمه الطاهر.. إنه شاب ترك مال أمه وأبيه.. ترك الجاه والثراء، لا لأنه حرام، ولكنه كان مرهوناً بالشرك، فرفض الشرك ورفض كل شيء يقدمه الشرك وأهله ثمناً للتخلي عن الحق.. التحق بالنبي ﷺ وتعلّم منه، وتعلم القرآن وكتبه، ثم أرسله ﷺ وحيداً إلى المدينة شمساً يشع ويشرق في دورها وقلوب أهلها، ويفوح عبيره في أبياتها، وها هي قصة حياته وشقائه ومعاناته تمرّ في مخيلة النبي ﷺ وأصحابه.. ها هو مصعب راقد بسلام، والحزن من حوله أثقل من جبل أُحد.. ها هو أحد الذين كانوا يعانون الأمرّين مثل مصعب.. خباب بن الأرت رضي الله عنه يقول عن رفيق دربه مصعب: (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى لم يأكل من أجره شيئاً، منهم: مصعب بن عمير قتل يوم أحد، فلم يوجد له شيء يكفن فيه إلاّ نمرة، كانوا إذا وضعوها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعوها على رجليه خرج رأسه، قال رسول الله ﷺ: اجعلوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر)[2] وهو نبات طيّب الرائحة، لكن مصعباً أطيب منه.

ويقول أبو ذر رضي الله عنه: (لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أُحُد مرّ على مصعب مقتولاً على طريقه فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾)[3] ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[4].

هذه الآية التي نزلت قبل قليل، فتلاها ﷺ وهو يمر بجسد مصعب الطاهر، وكان

---

(١) انظر صحيح الجامع للشيخ ناصر.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٧٦) وابن أبي شيبة (٣٦٧/٧) واللفظ له.

(٣) إسناده حسن رواه الحاكم (٢٠٠/٣) حدثني محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى الشهيد، حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب الحجبي، حدثنا حاتم بن إسماعيل عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير عن أبي ذر.. وعبيد: وعمير ولد على عهد النبي، وذكر البخاري أنه رأى النبي عليه السلام وقد أجمع على توثيقه، التهذيب ٧-٧١ وجامع التحصيل ٢٨٥ وتلميذه صدوق أظن الحافظ قد أخطأ بجعله من السادسة، والأولى أن يكون من الخامسة أو الرابعة لأن ابن عمر توفي قبل عبيد.. وعبد الأعلى ثقة فقيه، التقريب ٣٣١ وحاتم حسن الحديث قال الحافظ: صحيح الكتاب صدوق يهم وهو من رجال الشيخين، والحجبي ثقة من رجال البخاري ويحيى هو الذهلي الثقة الحافظ، وتلميذه ثقة حافظ قال ابن الجوزي: كان له فهم وحفظ وكان من الثقات لا يأكل إلا من كسب يده. وقال عنه ابن يعقوب: صحبت محمد بن صالح ما رأيته أتى شيئاً لا يرضاه الله ولا سمعت منه شيئاً يسأل عنه (المنتظم - ٣٧٠/٦) وقد رواه البيهقي ٣-٢٨٤ من طريق الحاكم ٣-٢٤ بسند صحيح.

(٤) أكملت الآية للفائدة.

فـــي نزولها تكريم لهؤلاء الرجال الذين صدقوا مع الله في عهودهم، فمنهم من قضى نحبه، ووفى بعهده كمصعب وحمزة، وهناك من قضى نحبه وهو لا يزال حياً مثل طلحة ابن عبيد الله، الذي شلت يده، وارتقى ﷺ على ظهره ثم قال له: أوجب طلحة وأنجز عملاً أوجب له الجنّة.

وهنـــاك من ليس بين الأحياء ولا يتبين بين الأموات.. إنه أنس بن النضر عم أنس ابن مالك الذي يقول: (نرى هذه الآيات نزلت في أنس بن النضر: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾)(١).

لكن أين ابن النضر..؟

لا أحـــد يدري. كما أن المشـــركين لـــم يأخذوا معهم أســـرى، وإلاّ لقلنا إنه معهم. ســـنترك بعض الصحابة ليبحثوا عن أنس، بينما نتعقب هذه المرأة لنرى ما تفعل على أرض أُحُد.. إنها فاطمة بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو بن حرام، وزوجة عمرو بـــن الجموح، وعمّة جابر بن عبد الله، وهي تحمـــل حزناً كالجبال، فقد فقدت أخاهـــا وزوجها، فأذهلها الوجد عمّا يجري حولهـــا، فاتّجهت إلى زوجها فحملته على بعير، واتجهت إلى أخيها فحملته أيضاً، وعادلتها على ذلك البعير، ثم أمسكت بخطام البعيـــر والهموم ومضت ثقيلة نحو المدينة.. مهمومة، لكنها متماســـكة بالإيمان بقضاء الله وقدره.

لقد مضـــى عبد الله، ومضى عمرو، وربما استشـــهد أبناؤها الأربعة أو بعضهم، فأي حزن تحمله هذه المرأة المسكينة..؟ وماذا ستقول لجابر وأخواته..؟

تابعت هذه المسكينة سيرها وحزنها وصبرها نحو المدينة، بينما كان جابر لا يزال مرابطاً مع النظارين على مشـــارف المدينة، فإذا به يشـــاهدها ويشاهد فجيعتها على ظهر البعير. فيقول رضي الله عنه: (فبينا أنا في النظارين، إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح، فدخلت بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: ألا إن النبـــي ﷺ يأمركم أن ترجعـــوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت، فرجعنا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٣).

بهما)[1] إلى أُحد حيث كان ﷺ يشرف على تكفين الشهداء استعداداً لدفنهم.

عاد من حَمَل قتيله بقتيله من المدينة، وأعيد الشـهداء إلى سـاح الوغى، ووصل جابر وعمّته، وربما بعض أخواته المسـكينات، وترجّل الفارسـان عن البعير، فانهمرت دموع جابر على وجه والده الحنون، وتعالى نشيجه وحرقته عليه، فرآه الصحابة، فنهوه عن ذلك فلم يبال حزنه بقولهم، ولم تتوقف دموعه لرجاءاتهم.

كان ذلك يحدث والنبي ﷺ شـاخص إلى هذا الكرب.. كان عليه السـلام متألماً ومبشراً بشيء أفرح جابر الحزين وخفف من وجعه.

يقـول رضـي الله عنه: (لما قتل أبي يوم أُحُد، جعلت أكشـف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي فاطمة تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه، أو لا تبكيه، مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[2].

هذه هي البشـرى الأولى، أما الثانية فهي في طريقها من السماء إلى هذا الراقد بسـلام.. حيث كانت البشائر كالمطر على أجسـاد وأرواح الشهداء. ها هو النبي ﷺ يشاهد إحداها.. تحلّق فوق جثمان حنظلة بن أبي عامر، الذي انسلّ من فراش حبيبته ليسـلّ سـيفه وروحه دون رسـول الله ﷺ، حتى فقدهما على أرض أُحد.. إنه منظر مهيب.. الملائكة تقوم بتغسيله، فيتساءل النبي ﷺ عن سرّ هذه الكرامة.؟ سمع الزبير ذلك التسـاؤل فقال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول عند قتل حنظلة بن أبي عامر، بعد أن التقى هو وأبو سفيان بن الحارث «فلما استعلى حنظلة رآه شداد بن شعوب، فعلاه بالسيف حتى قتله، وقد كاد يقتل أبا سفيان».

فقال رسـول الله ﷺ: إن صاحبكم تغسـله الملائكة، «فاسألوا صاحبته». فسألوا

(١) سـنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٩٧ ورواه غيره مختصراً من طرق عن: الأسـود بن قيس عن نبيح العنزي عن جابر. الأسود تابعي ثقة من رجال الشيخين، وشيخه ثقة وقد أخطأ الحافظ رحمه الله في التقريب بقولـه: (مقبول) فهو ثقة وإن لم يعرفه ابن المديني رحمه اللـه فقد عرفة أبو زرعة والعجلي فقالا: ثقة. وصحح حديثه ابن خزيمة، والترمذي، وابن حبان، والحاكم الجرح والتعديل ٨-٥٠٨ والتهذيب ١٠-٤١٧.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

صاحبتـه فقالت: إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب، فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة)[1]، ومنذ ذلك اليوم صاروا يسمونه «غسيل الملائكة».

عُرف الشهداء كلّهم إلاّ واحداً.. الجميع يبحث عنه، والجميع يتحدّث عن بسالته، فأين هو..؟ أين أنس بن النضر..؟ أين عمّك يا أنس بن مالك..؟ إنه ليس بين الأحياء، ولم يتعرف إليه أحد بين الشهداء، وتأتي إجابة أنس ممزوجة بالحزن والإعجاب.. بالوفاء والبطولة النادرة.

لم يتعرف أحد على جثته حتى قدمت أخته (الربيع بنت النضر) كالوله من المدينة.. قدمت لهفة عليه.. طاف بها الحزن بين أجساد الشهداء العطرة، وبين قتلى المشركين، فلم ترَ وجه أخيها أنس، وبينما هي تطوف توقفت طويلا أمام جسد أثار انتباهها، ثم جلست وأخذت إحدى يديه تقلّبها ثم بكت.. هذه أنامل أخيها وحبيبها ورفيق طفولتها أنس.

يتحدث أنس بن مالك عن عمّه فيقول: (قاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربةٍ، وطعنة، ورمية، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر: فما عرفتُ أخي إلاّ ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾، فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه)[2].

وهكذا مضى أنس بن النضر بعد أن برّ بيمينه، وتلقّى السيوف والرماح والسهام بكل جسده، حتى تزيّن كله بها.. كان جسد أنس لوحة رائعة.. أرضاً ثانية للمعركة حتى أن وجهه لم يعرف من الجروح والشقوق، وتشويه المشركين له، فنزلت هذه الآيات العظيمة فيه وفي رفاقه، فقرأها ﷺ وبشّرهم وبشّر من بعدهم.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه السراج (الإصابة - ١٣-٢٩٩) ومن طريقهما الحاكم ٣-٢٠٤: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن جده.. وهذا السند مر معنا كثيراً وهو صحيح.. فيحيى ووالده تابعيان ثقتان.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٠٥) ومسلم (١٩٠٣) واللفظ له.

فرسول الله ﷺ (مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾.

ثم قال رسول الله ﷺ: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلاّ ردوا عليه)(١).

وقف ﷺ أمام هؤلاء الأبرار وبشّرهم.. هؤلاء العظماء الذين سافروا إلى جناتهم التي لا تعرف مللاً ولا شقاءً ولا رتابة.. جناتهم التي علت كل طموح وفاقت كل تصوّر، سافروا إلى مدنهم ومنتجعاتهم وأنهارهم وقصورهم ومراكبهم الفارهة، أمّا رسول الله ﷺ فمشغول بهم.. حزين عليهم، وسيبدأ بعد قليل بدفنهم، لكنه يشاهد امرأة مذهولة تركض كالفجيعة نحو الشهداء.. يحملها الحزن والوجد، وتحمل في يديها شيئاً. أشفق ﷺ عليها، وخاف على عقلها ومشاعرها، فأمر الصحابة أن يحولوا بينها وبين فضائع التشويه التي فعلها الوثنيون الهمج بأجساد الشهداء.

يقول الزبير رضي الله عنه: (إنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبي ﷺ أن تراهم، فقال: المرأة.. المرأة.

قال الزبير: فتوسمت أنها صفية، فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، فلدمت في صدري -وكانت امرأة جلدة- قالت: إليك عني لا أرض لك. فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

فوقفت، وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما.

---

(١) سنده صحيح رواه الحاكم (٣/٢٤) ومن طريقه البيهقي (٣/٢٨٤): أخبرنا أبو الحسين: عبيد الله بن محمد القطيعي ببغداد من أصل كتابه، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل، حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي، حدثنا سليمان بن بلال، عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبي فروة، عن قطن بن وهب، عن عبيد بن عمير، عن أبي هريرة. عبيد مجمع على ثقته، ولد على عهد النبي، وتلميذه صدوق التقريب ٤٥٦ وعبد الأعلى: ثقة فقيه (السابق - ٤٦٤) وسليمان التيمي ثقة من رجال الشيخين (السابق ٣٣١ والأويسي ثقة أيضاً السابق ٣٥٧ وتلميذه ثقة حافظ التهذيب ٩-٦٢.

قال الزبيـــر: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيـــل، فعـــل به كما فعل بحمـــزة، فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفـــن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن لـه، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما، فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنّا كل واحد منهما في الثوب الذي طار لـه)[1].

وحصل حمزة على كفن بعد أن كان ثوبه هو كفنه، واقتسم المهاجرون والأنصار الأشجان والأكفـــان، وفي مكان غير بعيد يتلألأ أمير الاقتســـام والكرام (ســـعد بن الربيع) مضرجاً بدمائـــه.. ينظر إليه عبـــد الرحمن بن عوف مودعاً أخاً لم تلده أمـــه، ومحتفظاً بجميله.. محتفظـــاً بجماله الأنصاري في ذلك اليوم الذي قـــدم فيه عبد الرحمن بن عوف من مكة معدماً لا يملك شيئاً.. في ذلك اليوم أشرق سعد بن الربيع بدراً في ليل ابن عوف وأحزانه، حين قدم المهاجرون من مكة و(لما قدموا المدينة آخى رســـول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وســـعد بن الربيع فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقســـم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمّها لي أطلقها فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها)[2].

ها هو الكريم راقد رقدة الموت وقد ترك خلفه زوجة واحدة وابنتين[3] يبكينه بحرقة، وها هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمام جسد والده الطاهر يبكي، وفي مكان آخر يذرف هشام بن عامر بن أمية الأنصاري.. يذرف دموعاً على والده الحبيب.

كانت الساحة تغصّ بالأحزان والدموع.. كثر البكاء، (وكثر القتلى، وقلّت الثياب)[4].

يقول هشام بن عامر رضي الله عنه: (شكي إلى رسول الله ﷺ شدّة الجراح يوم أُحد، فقال ﷺ: احفروا، وأوسعوا، وأحسنوا، وادفنوا في القبر الاثنين والثلاثة، وقدموا

---

(١) سنده قوي رواه أحمد ١-١٦٥ والبزار ٣-١٩٥ والحارث زوائد ٢-٧٠١ وأبو يعلى ٢-٤٥ من طريق سليمان بن داود الهاشمي أخبرني ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن عروة أخبرني أبي (الزبير) علته هو عبد الرحمن بن أبي الزناد وهو صدوق لكنه تغير عند قدومه بغداد وكون ســـليمان بغدادي يعكر صفوه (لكن الناقد علي بن المديني يقول: ما روى ســـليمان الهاشـــمي عنه فهي حســـان، نظرت فيها فإذا هي مقاربة وجعل علي يستحســـنها علل الترمذي ٢-٦٠٦. كما أنه لم ينفرد فقد تابعه في ســـنن ٣-٤٠١ يحيى بن زكريا بن أبي زائدة وهو ثقة متقن والراوي عنه ثقة إلا إذا روى عن علي بن مسهر، وهذه ليست منها وقد وثقه أبو حاتم وابن قانع ومدحه ابن معين التهذيب ١-١٦٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٨٠).

(٣) سيمر معنا الدليل لاحقاً.

(٤) سنده حسن وقد مر معنا وهو حديث أنس السابق وقد حسنه الشيخ ناصر حفظه الله.

أكثرهم قرآناً، فقدموا أبي بين يدي رجلين)[1] (وكان يكفن الرجل أو يكفن الرجلين والثلاثة في الثوب الواحد، وكان رسول الله ﷺ يسأل عن أكثرهم قرآناً، فيقدمه إلى القبلة، فدفنهم رسول الله ﷺ)[2] دون أن يغسلهم.. دفنهم بجراحهم الطاهرة، ودمائهم العبقة (أمر بدفنهم في دمائهم ولم يغسلوا)[3].

وقال ﷺ: (أنا شهيد على هؤلاء، لفّوهم في دمائهم فإنه ليس جريح يجرح في الله إلاّ جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك)[4].

هذا ما جرى حول الدفن والكفن، لكن ماذا عن:

الصلاة على الشهداء

هل صلّى النبي ﷺ على شهداء أُحد، أم أنه لم يفعل كما حدث لشهداء بدر رضي الله عنهم جميعاً؟

يحدّثنا عن ذلك أحد الذين لم يحضروا المعركة، لكنه حضر إلى أرضها بعد انتهائها، وشاهد عمليات التكفين والدفن.. يحدثنا ذلك الشاب الذي كانت دموعه تتساقط كالمطر على وجه أبيه - الشهيد، إنه جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما، وهو يقول: (لما قتل أبي يوم أُحد، جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمّتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: تبكيه أو لا تبكيه مازالت الملائكة تظلّله بأجنحتها حتى رفعتموه)[5]، ثم (إن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثم يقول: أيّهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال ﷺ: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-١٩ وأصحاب السنن وغيرهم من طرق عن حميد بن هلال عن هشام بن عامر. حميد تابعي ثقة سمع الحديث من التابعي الثقة: سعد بن هشام ومن أبي الدهماء وهو ثقة أيضاً واللفظ لابن شيبة ٣-٣٧٢ وانظر الجنائز للإمام الألباني ١٤٢.

(٢) هو الحديث قبل السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٣).

(٤) حديث حسن مر معنا من حديث الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك وله شواهد قوية.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٢٤٤).

وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلهم)[1].

هكذا أمر الله سبحانه وهكذا فعل ﷺ وامتثل، فسينهض هؤلاء الفرسان يوماً من مراقدهم مزينين بالشهادة والطعنات، ولون الدم ورائحة العطر تفوح من جراحهم، وتعطر المكان من حولهم. كان الجو مشحوناً بالحزن، فليس هناك أقسى، ولا أكثر دموعاً وانتحاباً من لحظات الدفن، ومغادرة القبر بعد وضع الأحباب تحت التراب.. لحظات كان فيها جابر حزناً ودموعاً، لكن الله أنزل ما يخفف حزنه.

التفت ﷺ إلى جابر المجروح وقال له: (يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟ قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً.

قال ﷺ: أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟ قال: بلى يا رسول الله. قال ﷺ: [ما كلم الله أحداً قطّ إلاّ من رواء حجاب، وكلّم أباك كفاحاً]، «يا جابر أما علمت أن الله أحيا أباك» فقال: يا عبدي، تمنّ علي أعطك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية.

فقال الرب سبحانه: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون [قال: يا رب، فأبلغ من ورائي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (١٣٤٧). ملاحظة:
ورد أنه ﷺ صلى على حمزة وحده، وورد أنه صلى على حمزة وعلى بقية الشهداء كمجموعات معه رضي الله عنهم، والذي جعلني لا أذكر هذا في المتن هو إشكال في أسانيد ومتون تلك الروايات وهذا الإشكال يتلخص في النقاط التالية:

١- حديث ابن إسحاق عن ابن الزبير وهو جيد الإسناد وابن إسحاق قوي الحديث إذا لم يخالف من هو أوثق منه وقد خالف هنا وابن الزبير كان عمره عامان.

٢- حديث أنس بن مالك اضطرب فيه أسامة الليثي -وهو صدوق يهم- فمرة قال: لم يصل عليهم، ومرة قال: لم يصل على أحد من الشهداء غير حمزة.. والصواب القول الأول ثم وجدت ما يؤيد قولي هذا: وهو نقد للإمام البخاري رحمه الله حيث قال إن القول الثاني غير محفوظ غلط فيه أسامة فالحمد لله.

٣- حديث ابن عباس جيد السند لكنه مخالف لحديث أنس ولحديث جابر أيضاً لأنه ذكر أنه صلى على جميع الشهداء.

٤- إن مما يرجح حديث جابر هو حضوره ومشاهدته للأحداث في الوقت الذي كان فيه ابن الزبير يبلغ الثانية من عمره.. بينما كان ابن عباس في الثانية أيضا ومع والده في مكة. ولتفصيل أكثر راجع صحيح موسوعة السيرة.

رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾])[1] ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

فرح جابر بهذه البشـــرى، فرح بحفاوة الرب الكريم بأبيه، فخفّفت البشرى كثيراً من أحزانه، لكن:

ما سر حفاوة الله بوالد جابر؟

ما ســرّ هذا الشـــيخ المحلّق في النعيم.. إنه لم يقاتل كما قاتل حمزة، ولم تمزقه الطعنات كما مزقت أنس بن النضر.. لقد شرب الخمر، ثم انصرف إلى المعركة، فكان أول من سقط من الشهداء، ومع ذلك يلقى كل هذا الفيض الغامر من النعيم..؟!

ليـس هكذا يُنْظَر إلى والد جابر رضي الله عنه.. دعونا نتأمل عالم هذا الشـــيخ من كل زواياه.. دعونا نجعل أنفسنا مكانه.

إن هذا الشـــيخ الكبيــر لم يحارب عن اثنين كما فعل ســـعد في بدر، ولم يحارب بسيفين كحمزة، لكنه كان يحارب في معركتين شرستين.. أحدهما على أرض أُحُد، أمّا الثانية فكانت ســـاحتها داخل أعماقه وبين حناياه، وهي معركة أشـــد ضراوة وقسوة.. إنها معركة مع الذات.. مع الدنيا، ومع عواطف الأبوة الجياشة التي تتغلغل في أعماقها تســع بنات مســـكينات، والدنيا.. كل الدنيا تعلم أن الشيخ أكثر حناناً وعطفاً على بنيه منه وهو شاب، والدنيا.. كل الدنيا تعرف للبنات رحمة لا تعادل في قلوب الآباء، فكيف إذا كنّ تســـع بنات يترصّـــد لهن اليتم والفقر؟! إن عبد الله بـــن عمرو بن حرام ينتزع

---

(١) حســـنه الإمام الألباني في ابن ماجه ١٩٠ ويبدو لي أن الحديث ليس حســـناً كله، لذلك وضعت المعقوفين حول الألفاظ التي لم أجد لها شـــاهداً، فقد تفرد بها حســـب علمي موسى بن إبراهيم ابن كثير وهو وإن روى عنـــه جمع من الثقات إلا أنه لـــم يوثق، بل جرحه ابن حبان في ثقاته وقال: كان ممن يخطئ ٧-٤٤٩ ولعـــل هذه الزيادة من أوهامه، قال الحافظ: صدوق يخطئ وســـكت عنه ابـــن أبي حاتم ٨-١٣٣. ولبقية الحديث شـــاهد حسن عند أحمد ٣-٣٦٠ عن جابر والزيادة له. حدثني ابن المديني عن سفيان بن عيينة عـــن محمـــد بن علي بن ربيعة عن ابن عقيل عن جابر، ومحمد بن علي ثقة (ذيل الكاشـــف - ٢٥٤) وابن عقيل حسن الحديث.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١٦٩ - ١٧١.

نفســـه من بين بناته.. من بين أبوّته وأحزانه، ليتّجه بها نحو الجنّة.. نحو الله.. فحب الله متشعب في كل خلاياه ومشاعره، وهو بحاجة إلى الله أكثر من حاجة بناته إليه.. هكذا نتأمل هذا الشيخ، وبهذه الطريقة نتحسّس بعض سرّه وسر حفاوة الله به.

والد جابر ورفاقه الآن أحياء عند ربّهم يرزقون، فقد قال خالقهم سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[1].

ســـأل الصحابة رســـول الله ﷺ عن معنى هذه الآية.. عن تلك الحياة الفسيحة التي ينعم بها الشـــهداء، وعن ذلك الكرم الإلهي المدهش، فقال عبد الله بن مســـعود رضي الله عنه ســـألنا عن ذلك فقال ﷺ: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تســـرح من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟

ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهـــم حاجة تركـــوا)[2]، وقال أحد الصحابة رضي الله عنهم: (قال رســـول الله ﷺ: لما أصيـــب إخوانكم بأُحُد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيـــر خضر، ترد أنهار الجنّة، وتـــأكل مـــن ثمارها، وتأوي إلـــى قناديل من ذهب في ظل العـــرش. فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحســـن منقلبهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب.

فقـــال الله عزّ وجلّ: أنا أبلّغهم عنكم، فأنـــزل الله عزّ وجلّ هؤلاء الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ ومـــا بعدهـــا)[3]..

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم ٣-١٥٠٢ باب: بيان أرواح الشهداء في الجنة.

(٣) سنده صحيح بما قبله: رواه ابن إسحاق ومن طريقه أحمد ١-٢٦٥ و٢٦٦ وغيره: حدثنا إسماعيل بن أبي أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس لولا عنعنة أبي الزبير، وقد دلس اسم شيخه الذي صرح به في رواية ابن إســـحاق عند أبي داود ٢٥٢٠ والحاكم ٢-٨٨ وهو الإمام المجاهد ســـعيد ابن جبير. وللحديث شاهد سنده حسن عند ابن جرير ٣-٥١٣.

زخّات من النعيـــم أمطرتها تلك الكلمات على قلوب أصحاب النبي ﷺ، فحفرت فيها الأخاديد والشـــقوق.. حســـرة على ما فاتهم في هذا اليوم من لذّة الحديث إلى أحبّ حبيب.. لذّة الاستماع إلى الله.

إن الإنســـان ليعرف من حال العاشـــق حالةً من الذهول عن كل ما يحيط به عند لقاء المحبوب، فليت شـــعري من يصف مشـــاعر من يتحدث إلـــى أحب حبيب وأعظم محبوب..؟

تمنى فرســـان أُحد الأحياء وهم يغادرون تلك المقابر الطيبة.. تمنوا لو كانوا فيها بين أولئك المسافرين في النعيم، وتمنى ﷺ لو كان مجندلاً على أرض أُحد لينعم بلقاء اليوم..

تحدث ﷺ بذلك وباح به لأصحابه، فازداد شـــوقهم وحنينهم إلى الله وإلى الجنّة بكلمات هذا الحبيب الذي يبوح بمشـــاعره ويقول: (أمـــا والله لوددت أني غودرت مع أصحابي بحضن الجبل، يعني ســـفح الجبل)[1]، ويقول جابر رضي الله عنه أنه قصد: ليتني (قتلت معهم)[2].

تلك هي مشـــاعر النبي ﷺ ومشاعر من حوله من المؤمنين، لكن ماذا عن مشاعر جيش المشركين الذي يرجع الآن إلى مكة..؟ إنهم الآن في أرض تسمّى: (الروحاء) وأبو سفيان يتحدّث إليهم.

أبو سفيان وجيشه نادمون

ليـــس على قتالهم للمؤمنين، بل على أشـــياء فاتتهم في المعركة.. أشـــياء عجزوا عن تحقيقها فـ (لما انصرف أبو ســـفيان والمشـــركون عن أُحد وبلغوا الروحاء، قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شـــرّ مـــا صنعتم)[3]. ماذا تعني هذه الكلمات وهي

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه: أحمد ٣-٣٧٥ وغيره حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر بن عبد الله عن أبيه. عاصم ثقة وعبد الرحمن تابعي ثقة.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) ســـنده صحيـــح رواه الطبرانـــي ١١-٢٤٧: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمـــد بن منصور الجواز، حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس وهذا السند صحيح، عكرمة وعمرو وســـفيان أئمة ثقات ومحمد بن منصور ثقة من رجال التقريب ٥٠٨ وشـــيخ الطبراني ثقة مأمون انظر: البلغة (٢٢٨).

تتحسّر على بقاء محمد ﷺ في سجلات الأحياء، وتتحسّر على عدم التمكن من سبي فتيات المسـلمين..؟ ربما كانت تعني أن هناك نية للعودة إلى أرض المعركة من جديد، ومحاولة أخرى للإجهاز على ما تبقى من المؤمنين وهم يدفنون شهداءهم، وربما كانت مجرد زفرات وأماني. لكن كل ذلك لم يكن خارج نطاق تفكير النبي ﷺ العسـكري.. كان ﷺ يقـرأ أفكار القـوم، ويتصفح أحلامهم، لذلك قرّر أن يقوم بحركة عسـكرية لتغطية أسوأ الاحتمالات.

تحدّثنا عن ذلك فتاة شـاركت في المعركة.. عائشـة رضي الله عنها تتحدّث إلى أحـد أبناء أختها - أحد أبنـاء الزبير بن العوام وتخبره عن سـبب نزول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾..

فتقول: (يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أُحُد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا. قال ﷺ: من يذهب في إثرهم؟ فانتدب سبعون رجلاً - كان فيهم أبو بكر والزبير)[1].

وامتثل أبو بكر والزبير وامتثل معهم ثمان وستون فارساً.. نهضوا تحملهم جراحهم، وتحملهم تلك الأحاديث المعطرة عن أولئك الشـهداء الذين سـبقوهم قبل قليل.. نهض سبعون محارباً نحو باب من أبواب الجنّة مازال مشرعا في الأفق، لكن يبدو أنهم ظفروا ببعض المعلومات الخطيرة عن أبي سفيان وجيشه، وتوصّلوا إلى معرفة ما جرى من حوار دار بين المشركين حول التحسّر على عدم قتل محمد ﷺ وسبي المؤمنات، فعادوا ليخبروا النبي ﷺ حتى يتّخذ إجراءً مناسباً.. إنه الآن يأمر الجيش كلّه بالنهوض والتحرك نحو جيش الوثنين، وبسرعة. فكانت غزوة على هامش أُحد، وسميت فيما بعد بـ:

غزوة حمراء الأسد

فعندما (انصرف أبو سفيان والمشركون عن أُحد، وبلغوا الروحاء قالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم، شرّ ما صنعتم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٧٧).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب الناس، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، أو بئر أبي عيينة، فأنزل الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1] مـن بعد ما أصابهم مـا أصابهم من فقد الأحباب والأصحاب، لكن قريشـاً لاذت بالفرار خشـية أن يصيبها ما أصابها في أوّل المعركة. أو يحدث لها ما حدث في غزوة بدر، فجيش محمد ﷺ كالأسـود الجريحة.. الرماة يريـدون التكفير عـن معصيتهم لأوامر قائدهم ﷺ، وبقيـة الصحابة يريدون اللحاق بحمزة وعبد الله بن حرام وأصحابهم، لعل الله أن يخاطبهم هذا المسـاء، لكن قريشـاً لاذت بالفـرار، فمكث ﷺ وأصحابه رضي الله عنه بعض الوقت، ثم عادوا مثقلين إلى المدينة الحزينة.. المشتاقة إلى نبيّها وفرسانها.

سأستأذنكم قليلاً لأسبق رسول الله ﷺ وصحابته، لا إلى المدينة، بل سأعود إلى أرض أُحد، فقد خيّم اللّيل على جبالها وشـعابها، وهناك حركة غريبة تحدث بين تلك الشعاب.. هناك شبح ينهض ثقيلا من بين الأموات.

شبح على أرض أُحد

دعونا نقترب منه فهو يقف على قدميه.. يترنّح من الألم والبرد يزيد من آلامه.. هـا هو.. إنه ليس من الجنّ.. إنه أحد أفراد جيش أبي سـفيان، وقد كان طوال اليوم يتظاهر بالموت والدم ينزف منه.

يقـول أنس بن مالك: (كان وهب بن عمير شـهد أُحداً كافـراً، فأصابته جراحة، فكان في القتلى، فمرّ به رجل من الأنصار، فعرفه فوضع سيفه في بطنه حتى خرج من ظهره، ثـم تركه، فلما دخل الليل وأصابه البرد لحق بمكة، فبرأ، فاجتمع هو وصفوان بن أمية في الحجر، فقال وهب: لولا عيالي ودين عليّ لأحببت أن أكون أنا الذي أقتل محمداً؟ فقال له صفوان: كيف تصنع؟

فقـال: أنا رجل جواد لا ألحق، آتيه فأغترّه، ثم أضربه بالسـيف، فألحق بالخيل ولا يلحقني أحد.

---

(١) سنده صحيح وهو جزء من حديث الطبراني قبل السابق.

فقال له صفوان: فعيالك مع عيالي، ودينك علي)[1].

لن أكمــل هذا الحوار.. ســأترك الرجلين وما يكيدان لألحــق بحبيبي ﷺ.. ها هو يســير نحو المدينة الحزينة.. دون حمزة.. دون مصعب.. دون ســبعين من الشهداء الأبــرار، والبيــوت تضجّ بالحزن والنــواح.. يدخل ﷺ المدينة، ويمشــي بين جدرانها الحزينة وأبياتها المفجوعة، فيحاصره النواح والبكاء في كل الطرقات والدروب.

لــم يتوقف النواح في المدينة، ولم تتوقف الدمــوع ولا الأحزان.. إنها تتقاطر من قلوب المؤمنين، كما يتقاطر ســيف هذا المحارب المخيف، الذي يســلم لحبيبته ســيفاً أحمر يتقاطر موتاً.. سيفاً حنته المعركة لكنها لم تَحّنِ حامله..

إنه عليّ بن أبي طالب، وهو الآن برفقة رسول الله ﷺ، ولا أعلم هل هما في بيت النبي ﷺ، أم في بيت فاطمة..؟

يبدو أنهما في بيت فاطمة رضي الله عنها، فقد (جاء علي رضي الله عنه بسيفه يــوم أُحد قــد انحنى، فقال لفاطمة رضي الله عنها: هاكي الســيف حميداً، فإنها قد شفتني.

فقال رسول الله ﷺ: لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت الأقلح، والحارث بن الصمة)[2].

---

(١) ســنده قوي رواه الطبراني (٦٢/١٧) وابن منده – ذكره في الإصابة.. وســند الطبراني: حدثنا أحمد بن زهير التســتري، حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرواق، أخبرنا جعفر بن سليمان، عن أبي عمران الجوني – لا أعلمه إلا عن أنس بن مالك: ... وقد توبع ابن عسكر عند ابن منده تابعه أبو الأزهر.. وأبو الأزهر حسن الحديث إذا لم يخالف، ومحمد بن سهل ثقة، انظر التقريب ٤٨٢ وعبد الرزاق معروف، وجعفر بن سليمان صدوق من رجال مسلم – التقريب ١٤٠ وأبو عمران الجوني اسمه: عبد الملك بن حبيب الأزدي تابعي ثقة من رجال الشيخين، تقريب التهذيب ٣٦٢. وابن منده من شيوخ الطبراني.

(٢) ســنده صحيح رواه الحاكم ٣-٢٤ واللفظ له والطبراني ٧-١٢٢ ١١-٢٥١ وسند الحاكم هو حدثنا محمد ابن عبد الله الصفار، حدثنا أبو الحســن علي بن محمد الثقفي حدثنا منجاب بن الحارث التميمي قال: وزعم سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس. سفيان وعمرو وعكرمة أئمة ثقات ومنجاب ثقة التقريب ٥٤٥ فقول الحاكم رحمه الله إن الحديث على شرط البخاري فيه نظر، بل العكس فمنجاب من رجال مســلم فقط فالحديث على شرط مسلم، وأبو الحسن ثقة انظر: تاريخ بغداد ١٢-٦٣ وشيخ الحاكم عالم ثقة قال عنه تلميذه الحاكم: أنه محدث عصره، سير أعلام النبلاء ١٥-٤٣٧ وقد توبع الثقفي عند الطبراني وفيه تصريح بسماع سفيان من عمرو.

توجّه ﷺ إلى بيته خلال النواح والبكاء.. إنه يستمع إلى النائحات والوجد يحرق أكبادهن، فيتذكر عمّه حمزة رضي الله عنه، فتعاوده الأحزان من جديد، فيستجيب لها بكلمات تفيض وجداً ووفاءً لذلك الفقيد الحميم، فقد (مرّ ﷺ بنساء عبد الأشهل)[1] عندما (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد، فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهنّ، فقال: لكن حمزة لا بواكي له!

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ، فاستيقظ وهن يبكين، فقال: ويلهنّ، إنهن لهاهنا حتى الآن)[2] (ويحهن ما انقلبن بعد)[3] ولا انصرفن إلى بيوتهن حتى الآن..؟

إنها بعض عادات الجاهلية التي لازال التمسك بها مباحاً حتى الآن، لكنها عادة لا تعبّر عن الحزن العميق فقط.. إنها تتجاوز الحزن إلى شيء خطير جداً.. شيء جاء الإسلام ليمحوه من أعماق كل مؤمن ومؤمنة، وهذا الشيء هو الجزع من أقدار الله، والاحتجاج على قضائه، وهو ما قد يؤدي إلى هدم أحد أركان الإيمان الستّة التي جاء بها الإسلام.. أي الركن السادس، فأركان الإيمان هي:

١) الإيمان بالله.

٢) وملائكته.

٣) وكتبه.

٤) ورسله صلّى الله وسلم عليهم جميعاً.

٥) والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور.

٦) الإيمان بقضاء الله وقدره.

ولهذا نزل الأمر من الله بـ:

---

(١) سنده حسن رواه ابن ماجه ١-٥٠٧ والحاكم ٣-١٩٥. عن ابن وهب وعبيد الله ابن موسى أخبرنا أسامة ابن زيد عن نافع عن ابن عمر. أسامة حسن الحديث التقريب ٩٨ وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه ١-٢٦٥ وبقية السند كالذهب.

(٢) هو الحديث السابق.

(٣) هو الحديث السابق.

تحريم النياحة على الميت

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما: (رجع رسول الله ﷺ يوم أُحد فسمع نساء بني الأشهل يبكين على هلكاهن، فقال: لكن حمزة لا بواكي له.

فجئن نساء الأنصار فبكين على حمزة عنده، ورقد ﷺ فاستيقظ وهنّ يبكين، فقال: ويلهن إنهن لهاهنا حتى الآن؟! مروهن فليرجعن، ولا يبكين على هالك بعد اليوم)[1].

ولم يقف الأمر عند النهي الخفيف فقط، فبعد فترة من الزمن نزل الوحي يشدّد تحريم النياحة على الميت، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين والمؤمنات.. يتتبّع آثار الجاهلية، يمحوها ويغرس مزيداً من الإيمان مكانها.

يقول ﷺ: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة. وقال النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)[2]، وسربال القطران يعني ثوباً والقطران دهان يدهن به البعير الأجرب..

النياحة من أمر الجاهلية، وهي ليست -أبداً- مقياساً لمدى الشعور بالحزن وفقدان الحبيب.. إنها نوع من التطرّف والغلوّ في إظهار المشاعر، ولذلك نزل الوحي مرّة أخرى مذكراً، وواصفاً تلك الممارسات بشيء خطير جداً يؤثر على عقيدة المسلم، فقد قال ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)[3] لأن في الأمرين احتجاج على الله.

توقف النواح، ولم تتوقف الدموع، وكذلك الحياة لم تتوقف، ففي المدينة كانت الرسالة هي الحياة، وعلى الأحياء أن يؤدّوها كما أدّاها أولئك الشهداء.

---

(١) سنده حسن ورواه ابن ماجه (الصحيح ١/٢٦٥) والحاكم (٣/١٩٥) ابن وهب وعبيد الله بن موسى أخبرنا أسامة بن زيد عن نافع عن ابن عمر وأسامة بن زيد حسن الحديث إذا لم يخالف (التقريب ٩٨) وصحح الحديث الإمام الألباني في صحيح ابن ماجه (١/٢٦٥) وبقية السند كالذهب.

(٢) صحيح مسلم ٢- ٦٤٤.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم ١-٨٢.

وتمــرّ الأيام ويتبقى لأُحدٍ وشــهدائها ذكريــات، وعطر يفوح في أجــواء المدينة وأحاديث أهلها، وتمرّ الأيام فيولد لأحد الأنصار غلام، فيحتار في تسميته، فتتجه به الحيرة إلى أحب الناس إليه.. إلى رســول الله ﷺ، فيبحر به ﷺ إلى أبهج الذكريات وأقساها.. يبحر به إلى

أحب الأسماء إلى رسول الله ﷺ

يقول جابر بن عبد الله: (ولد لرجل منّا غلام، فقالوا: ما نسمّيه؟ فقال النبي ﷺ: ســمّوه بأحب الأســماء إليّ (حمزة))[١]، فحمزة مازال عالقاً في الذاكرة.. متجذراً في القلب النبوي الكريم، لكن الله سبحانه ينزل على نبيه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: (إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن)[٢].

ولما رزق أحد الأنصار بغلام.. ســماه محمداً، فاحتجّ الأنصار على هذا الاســم، وبخلوا به عليه إكراماً لرســول الله ﷺ..؟ فكان جواب رسول الله ﷺ على ما حدث، ما نقله جابر بن عبد الله الأنصاري عندما قال: (ولد لرجل منّا غلام، فسماه محمداً، فقال له قومه: لا ندعك باسم رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي، ولا تكتنوا بكنيتي)[٣].

إذاً فاسم محمد اسم محبّب إلى رسول الله ﷺ، ومحبب إلى الله سبحانه، ولذلك قال ﷺ لرجل: (من الأنصار ولد له غلام، فأراد أن يسمّيه محمداً، فأتى به النبي ﷺ، فقال: أحسنت الأنصار.

سمّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي)[٤]، فما هي هذه الكنية التي نهاهم ﷺ عن التكنّي بها..؟

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ٣-٢١٦ حدثنا أبو علي الحسين بن علي الحافظ، أنا عبد الله بن صالح البخاري، حدثنا يعقوب بن حميد بن كاســب، حدثنا ســفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار، عن جابر. شيخ الحاكم واحــد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكره، والتصنيف التذكرة - ٩٠٢) وشــيخه ثقة ثبت انظر: المنتظم (١٤٥/٦) وســفيان وعمرو بن دينار ثقتان ثبتان معروفان وعمرو ســمع من جابر، فيتبقى يعقوب وهو حسن الحديث فهو كما لخص الحافظ أقوال العلماء: صدوق ربما وهم فحديثه حسن ٦٠٧.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - الأدب (٢١٣٢).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم كتاب الأدب (٢١٣٣).

(٤) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) .

جابـــر بن عبد الله أيضــاً.. يحدّثنا أيضاً فيقول: (ولد لرجل منّا غلام، فسـمّاه القاســم، فقلنا: لا نكنيك أبا القاســم ولا ننعمك عيناً. فأتى النبي ﷺ فذكر له فقال: اسم ابنك عبد الرحمن)[1].

وعندمــا (نادى رجلٌ رجلاً بالبقيع: يا أبا القاســم، فالتفت إليه رســول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني لم أعنك، إنما دعوت فلاناً.

فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي ولا تكنوا بكنيتي)[2].

حدثنــا جابر رضي الله عنه عن أشــياء كثيرة حدثت بعد غــزوة أُحد، فماذا عن جابر نفســه..؟ ومــاذا عن أخواته الصغيرات.. ماذا عن ديــن والده الذي رحل وتركه أمانةً يثقل كاهله..؟

الدَّيْن لصاحبه همٌّ بالليل وذلّ في النهار، فإلى أي شيء تحولت أحوال جابر، الذي وجد نفســه وحيداً.. مسؤولاً عن تسع بنات.. مسؤولاً عن دين ضخم لا يستطيع أداءه وهو شــاب صغير لم يتعرض من قبل لمثل هذه المســؤوليات..؟ إنه شاب صغير أعزب أفاق على أمانة كالجبال تحاصره.. فإلى أين يتجه و:

إلى أين تتجه الهموم بجابر

ليــس هناك أرحب من رحمــة الله لجابر، والنبي ﷺ مســاحة من هذه الرحابة والرحمــة فهو (رحمة مهداة)[3] من الله لهذه الأمة، ولكل فرد منها.. لم يكن بينه وبين أصحابه حواجز ولا حرس (كان ﷺ لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه)[4].

جــاءه رجل فشــعر ذلك الرجل بخوف ورعدة من لقائــه ﷺ، فقال له النبي ﷺ: (هون عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد)[5].. القديد،

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣٣) .

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - كتاب الأدب (٢١٣١).

(٣) حديــث صحيــح صحيح الجامع. وقد رواه بســند جيد كل مــن الحاكــم (١/٩١) الطبراني في الصغير (١/١٦٨).

(٤) حديث صحيح صحيح الجامع (٢/٨٧٦).

(٥) حديث صحيح صحيح الجامع (٢/١١٨٥).

ذلـــك اللحم المملح المجفّف في الهواء والشـــمس. إذاً فلا داعـــي للخوف، ولا للرعدة والانتفـــاض، وعلى عكـــس هذا الرجل.. كان هناك من الناس من يملك جرأة أكثر مما هو مطلوب مع هذا النبي المتواضع عليه السّـــلام، فقد (كان لرجل على النبي ﷺ سن مـــن الإبل فجاء يتقاضاه)[1] (فأغلظ[2]، فهمَّ به أصحابه، فقال رســـول الله ﷺ: دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً. ثم قال ﷺ: أعطوه سناً مثل سنه)[3] (فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سناً فوقها[4]، فقال: أعطوه.

فقال: أوفيتني أوفى الله بك. قال النبي ﷺ: إن خياركم أحسنكم قضاءً)[5] رضي الرجل وذهب مســـروراً بما حصل عليه، وتعلّم الصحابة منه ﷺ حسن الوفاء، وحسن الأخـــلاق، لكن جابـــر بن عبد الله لا يملك ما يقضي به كل دينـــه، فاتّجه إلى الرحمة المهـــداة يســـأله العون وتفريج هذا الكرب الشـــديد، فكان ﷺ له فـــي المكان المطلوب والزمان المناسب، و

على باب رسول الله ﷺ كان جابر يتعلم أدباً

يقول جابر رضي الله عنه: (إن أبي قتل يوم أُحُد وترك تســـع بنات كنّ لي تســـع أخـــوات)[6] (وتـــرك عليه ثلاثين وســـقاً[7] لرجل من اليهود فاســـتنظره جابر فأبى أن ينظره)[8].

لـــم يكن هذا اليهودي الوحيد الذي له حق على جابـــر، فوالده ترك عليه ديناً غير هـــذا. حيـــث يقول (إن أبي ترك عليه ديناً، وليس عندي إلاّ مـــا يخرج نخلهُ، ولا يبلغ ما يُخرج سنين ما عليه)[9] من دين (فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضاً؟ فأبَوْا)[10]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).يعنى أن النبي استلف بعيراً.
(٢) تكلم مع النبي ﷺ بأسلوب غليظ.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٦).
(٤) أي أكبر منها في السن وأغلى في الثمن.
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٥).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٢).
(٧) الوسق يساوي ستين صاعاً.
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٩٦) أي لم يمهله ويؤجل سداده.
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).

ورفضوا التنازل عن أي شـــيء (فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه؟ فأبوا، ولـــم يروا أن فيه وفاءً، فأتيـــت النبي ﷺ)[1] (فدققت الباب، فقال: من ذا؟ فقلت: أنا. فقال ﷺ: أنا! أنا!، كأنّه كرهها)[2] لأن كلمة: (أنا) ليســـت إجابة، ولا تعريفاً بالطارق، بل هي اســـتدعاء لمزيد من الاستفسار والتساؤل، ولو قال جابر: (أنا جابر) لما كره ﷺ ذلك، ولكان أفضل.

تعلّم جابر أدباً رفيعاً من نبيه ﷺ، ثم بثّ للنبي ﷺ شكواه وديونه، وتعنّت الدائنين، فوجده رحيماً معيناً على النوائب والشدائد.

قال جابر للنبي ﷺ: (قد علمت أن والدي قد استشـــهد يوم أُحُد وترك ديناً كثيراً، وإنـــي أحب أن يراك الغرماء)[3] (فانطلق معي لكي لا يفحـــش عليّ الغرماء)[4] ثم يقول: (فاستشـــفعت به عليهم فأبوا)[5]و(اســـتعنت النبي ﷺ على غرمائه أن يضعوا من دينه، فطلب النبي ﷺ إليهم فلم يفعلوا)[6] (فاشتد الغرماء في حقوقهم، فأتيت رسول الله ﷺ فكلّمته فســـألهم أن يقبلوا ثمر حائطي ويحللوا أبي..؟ فأبوا. فلم يعطهم رسول الله ﷺ، ولم يكسره لهم، ولكن قال: سأغدو عليك إن شاء الله تعالى.

فغدا علينا حين أصبح، فطاف في النخل، فدعا في ثمره بالبركة فجددته)[7] فقال ﷺ: (إذا جددتـــه فوضعته في المربد)[8] (فبيدر كل تمر علـــى ناحية)[9] (فصنّف تمرك أصنافاً: العجوة على حدة، وعذق ابن زيد على حدة، ثم أرسل إليّ. ففعلت، ثم أرسلت إلى النبي ﷺ فجاء)[10]، و

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦٢٥٠).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٥٣).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٥).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧) والمربد هو مكان يجفف فيه الثمر.
(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٢١٢٧).

(ثم قال: ادع غرماءك)[1] (فلما نظروا إليه أغروا بي[2] تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه)[3] (ثم دعا)[4] (ثم قال: ادع أصحابك.

فما زال يكيل لهم حتى أدّى الله أمانة والدي، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ولا أرجع إلى أخوتي تمرة، فسلّم والله البيادر كلّها، حتى أني أنظر إلى البيدر الذي عليه رسول الله ﷺ كأنه لم ينقص تمرة واحدة)[5] (فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم)[6] (فما تركت أحداً له على أبي دين إلاّ قضيته، وفضّل ثلاثة عشر وسقاً، وسبعةً عجوة وستةً لون، أو ستةٌ عجوةً وسبعةٌ لون، فوافيت رسول الله ﷺ المغرب فذكرت له ذلك، فضحك، فقال: ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما. فقالا: لقد علمنا إذ صنع رسول الله ﷺ ما صنع أن سيكون ذلك)[7] (ثم جئت رسول الله ﷺ وهو جالس فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ لعمر: اسمع -وهو جالس- يا عمر: فقال عمر: ألا يكون قد علمنا أنه رسول الله، والله إنك لرسول الله)[8].

وانصرف جابر إلى أخواته مبشّراً بكرامة الله لوالدهن في حياته وبعد مماته، فقضاء الدين بهذه الطريقة لا يمكن إلاّ أن يكون إكراماً من الله لذاك الشيخ الراحل.. ذلك الشيخ الذي عانى الكثير.. الكثير من أجل لقاء الله، وهو إكرام لهذا الشاب الذي رضي بقضاء الله وقدره، وحمل وهو صغير أمانة ضخمة وثقيلة، وهل هناك أثقل من إعالة أسرة كبيرة كهذه! وهل هناك أثقل من دين يطالبك به يهودي..؟!

أجل هناك، وفي بيت سعد بن الربيع الشهيد الكريم، الذي ناصف عبد الرحمن ابن عوف ماله وأهله.. في بيت هذا الربيع الممتد كالبصر حلّ الجفاف والفقر، لقد

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٢) هيجوا بي.. أي أثاروا.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٨١).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٨٠).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٠٩).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٠١).

ذهب مال سعد بن الربيع وثروته مع الريح والجشع.. سعد بن الربيع رضي الله عنه لم يترك ســوى زوجته وابنتيه وثروته، ولا أدري هل طلّق زوجته الثانية أم توفّيت..؟ لكن الذي أعرفه أن ماله قد ذهب، فـ:

من أخذ مال سعد بن الربيع؟

ها هي أم الفتاتين.. زوجة ســعد بن الربيع، وبعد مرور أيام وشهور تخرج حزينة على زوجها وبناتها.. تتجه نحو النبي ﷺ تسأله حلاً.. تسأل الله فرجاً، فلا سعد ولا بناته يستحقون كل هذه المعاناة. تقف تلك الحزينة أمام الرحمة المهداة.. (جاءت امرأة سعد بن الربيع بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد قتل أبوهما يوم أُحد «معك» شهيداً وإن عمّهما أخذ مالهما، فاستفاءه[1]، فلم يعد لهما مالاً، والله لا تنكحان إلاّ ولهما مال[2].

فقال رسول الله ﷺ: يقضي الله في ذلك.

فأنزل الله عليــه آية الميراث)[3]، وهي ضمن قوله ســبحانه وتعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾[4].

---

(١) أخذه غنيمة له مثل المال الذي يؤخذ دون حرب ولا جهد.

(٢) أي انه لن يرغب أحد فيهما وهما معدمتان.

(٣) حديث حسن انظر: ما بعده فهو جزء منه.

(٤) سورة النساء: الآيات ٩ - ١١.

(فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمّهما، فقال: أعطِ ابنتي سعد الثلثين، وأمّهما الثمن، وما بقي فهو لك)[1].

إنها قسمة الله، لا قسمة الجاهلية والعادات والتقاليد.. آية تغسل قلب سامعها من الجشع.. تغسله بأنهار العطف والرأفة.. تجعله في مكان المفجوع بنفسه.. تجعله يشعر بمرارة اليتم.. بليل اليتم يخيّم على أبنائه، فإذا لم يكن صاحب قلب رقيق ومرهف، فالآية التي بعدها تصدع قلبه المتحجر، وتملأ بطنه الجشع بالجمر والنار، وتقذف به في الجحيم والسعير الذي لا ينطفئ، أما الآية الثالثة، فرحمة الله بالأولاد أكثر من رحمة آبائهم بهم. إن الله يوصي الآباء بأبنائهم، والموصي أرحم من الموصى.

وقد جعل الله نصيب الذكر أكثر من نصيب الأنثى في الميراث مرتين، لأن على الذكر مسؤوليات تجاه الأنثى عديدة، فالرجل يجب عليه الإنفاق على أمه وأخته وزوجته وابنته، وهو الذي يدفع المهر لزوجته، بل يجب عليه أن يكسو زوجته، وأن يقدم لها الطعام جاهزاً للأكل، كما قال ﷺ: (حق المرأة على الزوج أن يطعمها إذا طعم، ويكسوها إذا اكتسى)[2] إنها فريضة من الله، وهو الذي خلق هذا الإنسان، وهو أعلم به وأحكم، وأدرى بما يجعل حياته سعيدة مشرقةً دائماً.

وقد بيَّن ﷺ أن الفتاتين لهما حكم ما فوق الاثنتين عندما خاطب شقيق سعد بن الربيع. أخبرنا بذلك جابر بن عبد الله الذي تراكمت عليه المسؤوليات، وربما كانت هي سبب مرضه الآن.. إنه يعاني من وعكةٍ ألزمته الفراش بين أخواته يمرضنه، ويخشين أن يغادرهن كما غادر والدهن.. لقد اشتدّ به المرض فلم يعد يعقل شيئاً، وانتقل خبر مرضه إلى رسول الله ﷺ، فاتجه هو وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى حي بني سلمة لزيارة جابر ذلك الشاب الصغير الذي احتفى به عليه السلام كثيراً.

---

(١) سنده حسن رواه ابن سعد ٣-٥٢٤ واللفظ له عدا «معك» وأحمد ٣-٣٥٢ من طرق عن عبد الله بن محمد بن عقيل وهو تابعي حسن الحديث عن جابر. والراوي عن ابن عقيل هو عبيد الله بن عمرو الرقي: ثقة. التقريب ٣٧٣.

(٢) حديث صحيح -صحيح الجامع (٦٠٢/١).

يقـول رضي الله عنه: (مرضت فجاءني رسـول اللـه ﷺ يعودني وأبو بكر وهما ماشيان)[1] (في بني سلمة)[2] (فأتاني وقد أغمي علي)[3] (فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعـا بماء، فتوضأ منه ثم رشّ علي، فأفقت. فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟)[4] (يا رسول الله إنما لي أخوات)[5] (يا رسول الله لا يرثني إلاّ كلالة فكيف الميراث)[6] (كيف أقضي في مالي، كيف أصنع في مالي؟ فما أجابني بشيء حتى نزلت آية الميراث)[7]، وهي الآية التي بعد الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[8].

فهو أعلم بخلقه، وأدرى بما يجعلهم سعداء في الدنيا والآخرة.. إنه يكرمهم بآيات الميراث، ويحفظ حقوق الأيتام والورثة، وفي ذلك تكريم للكريم سعد بن الربيع، وتكريم لعبد الله بن حرام.

وتمـرّ أيام فينهض جابر من مرضه الذي ألمّ به، ولئن كان المرض قد غادر جابر، فإن هناك من تغلغل المرض في جسـده ولم يغادره حتى الآن.. في المدينة رجل هاجر إلـى النبي ﷺ وحيداً بعد أن أرغم علـى مفارقة زوجته وهو في الطريق، فقد أرغمه

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٥٧٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٧٤٣).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥٦٧٦).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٧٣٠٩).
(٨) سورة النساء: الآية ١٢.

أهلهـا على تركهـا والرحيل دونها ودون ابنها.. إنه الصحابي الجليل أبو سـلمة الذي يهاجمه المرض بضراوة الآن، وتنقض على جسـده جراحات أُحُد، وحوله أبنه وزوجته المجاهـدة الصابرة، ذات الهجرة العسـيرة والذكريات المريـرة.. إنها تبكي الآن، وهي تعانـي وداع زوجهـا الحبيب.. إنه لن يرى هذا الجنين الذي يسـكن أحشـاءها.. لن يداعبه، ولن يتمتع بطفولته.

مات أبو سلمة رضي الله عنه، فبكت أم سلمة وبكى أحبابه، لكن مرارة الحزن لم تنس هذه المؤمنة الصابرة نفسها.. لقد صبرت في السابق، وها هي الآن تتحامل على جراحها.. تنهض من بين آلامها.. تتوجه نحو النبي ﷺ تسـأله ماذا تقول في مصابها الأليم هذا.. تسأله حتى لا تقع في ذنب النواح والاعتراض على قضاء الله وقدره.

تقول رضي الله عنها: (سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: إذا حضرتم الميت فقولوا خيراً، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون. فلما مات أبو سـلمة قلت: يا رسـول الله، كيف أقول؟

قال ﷺ: قولي: اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة)(١).

فدعت أم سلمة بتلك الدعوة، وارتفعت دعوتها إلى الباري فاستجاب لها. ف

ما هي عقبى أم سلمة

سـنعرف ذلك لاحقاً، أما الآن فسـنترك «هند» أم سـلمة وأحزانها ودعاءها إلى أحـزان أخرى.. أحزان تراكمـت على صدر صحابي كريم، وملأت بيته حتى ضاق به.. عثمان بن عفان الذي فقد حبيبته رقية بعد غزوة بدر، وفقد قوته في غزوة أحد، فهرب من المعركة بعد هزيمة المسلمين ونزول الرماة من الجبال.. عثمان يعيش حالة من الحزن والأسـف لا يحسد عليها. لا أدري ما مبرّرات هروبه من المعركة، وهو الذي شارك في صناعة الانتصار وإلحاق الهزيمة بالمشـركين في أوّل النهار؟ مهما كانت المبرّرات، لقد حدث ما حدث لهذا الصحابي العظيم، وهو بشر غير معصوم، والله أرحم من أن يدعه للأحزان تفتك به وتغتاله. لقد ضاقت به الدنيا ففرجها الله مرتين:

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٣٣.

أما الأولى فقد أنزل الله فيه قرآناً يتلى إلى يوم القيامة.. أنزل الله عفوه ورحمته به، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾[1].

وفـــي ذلك يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب عـــن عثمان: (أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له)[2]..

فرح عثمان بهذه الآية، وانزاح همّه الثقيل.

وأما الثانية: فقد أقبل عليه النبي ﷺ يبشـــره بهذه الآيات، ويبشّـــره بعودة الصهر بينهما، فقد وافق ﷺ على تزويجه من ابنته أم كلثوم، فأي سعادة يعيشها عثمان الآن؟ لقد عرف الناس بعد هذا من هو عثمان، وما منزلته عند الله وعند رسوله، فلقبوه بلقب يشع من بيت النبوة.. لقبوه بـ: (ذي النورين) وهو أسعد الناس بعرسه ونسبه وحبّ الله ورســـوله، وأم كلثوم تشـــاطره كل ذلك وتتعطّر به، أما أختها فاطمة فسعيدة بأختها أم كلثوم، وسعيدة بهدية جميلة تقدمها لأبيها ولزوجها عليّ رضي الله عنهم جميعاً.

وبينمـــا كان الجميع يترقّبون الهدية بفـــرح.. كانت هناك امرأة مهمومة.. يتملكها الفزع مما قد يحدث للنبي ﷺ أو لفاطمة.

الرؤيا من جديد تخيم كالخوف على عالم امرأة صالحة تدعى (أم الفضل) وهي زوجة عم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب، التي تركت مكة والعباس إلى الله ورسوله ﷺ، فما هي:

رؤيا أم الفضل

تقـــول رضي الله عنهـــا: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رســـول الله ﷺ، فجزعت من ذلك، فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت ذلك له؟

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٥.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٦٩٨).

فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.

فولدت)[1] فاطمة.. ولدت حباً جديداً للنبي ﷺ ملك عليه قلبه.

فاطمة تلد حرباً

سماه والده: (حرباً).. إنه يملأ بيت النبوة برائحة الأحفاد االبريئة المنعشة.. (حرب) يزاحم أمه وأباه في قلب جده ﷺ، وقد بُشّر بمولد هذا الطفل الجميل، فجاء ﷺ والسعادة تملأ صدره، فوجد الابتسام والفرح يغمران المكان، عليٌّ سعيدٌ، وفاطمة أكثر سعادة.

يقول عليّ رضي الله عنه: (لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حرباً.

قال ﷺ: بل هو حسن)[2].

غيّر ﷺ ذلك الاسم الحاد باسم جميل.. يدخل البهجة على النفوس، فحمل المولود الطاهر اسمه الجميل، وحمله ﷺ بين يديه وقبّله، وفعل شيئاً رآه أحد موالي النبي ﷺ الذي كان يشارك بيت النبي ﷺ فرحتهم بهذا القادم الحسن، فسألناه: أخبرنا يا أبا رافع.. ماذا رأيت..؟

أبو رافع رضي الله عنه يصف ذلك المشهد المفرح الذي لم يدخل السرور على بيت النبي ﷺ فقط، بل امتدت بهجته وبركته إلى أحوج الناس إلى البهجة، فيقول: (لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعقّ عن ابني بدم «بكبشين»؟.

---

(١) سنده حسن رواه أحمد (٦/٣٣٩) واللفظ له، والطبراني (٣/٥-٩) وروى آخره من الطريق نفسها ابن خزيمة (١/١٤٣) وحسنه أستاذنا الشيخ محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله، ووافقه الإمام الألباني فلم يعلق عليه، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١/٨٥) وصحيح أبي داود (١/٧٥).. وسند أحمد هو: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا إسرائيل عن سماك عن قابوس بن المخارق عن أم الفضل. وقابوس تابعي لا بأس به - التقريب (٤٤٩) ولا يضره أن يكون قد جاء - عند الطبراني أنه رواه عن أبيه عن أم الفضل فأبوه صحابي. وسماك بن حرب تابعي صدوق وروايته هذه ليست عن عكرمة - التقريب (٢٥٥) وإسرائيل ثقة معروف مر معنا كثيراً - التقريب (١٠٤) وقد توبع.. وتلميذه ثقة من رجال البخاري ومسلم (السابق -٥٩٢).

(٢) سنده قوي رواه أحمد ١-٩٨ و١١٨ واللفظ له والبخاري في الأدب (٢٨٦) وغيرهم من طرق عن أبي إسحاق السبيعي عن هاني بن هاني عن علي. أبو هاني تابعي وثقه االعجلي والنسائي. التهذيب ١١-٢٢ وله شاهد عند الطبراني بسند منقطع.

قال ﷺ: لا، ولكن احلقي رأسه وتصدّقي بوزن شعره من فضّة على المساكين والأوفاض (وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في المسجد أو الصفة) ففعلت ذلك)[1] وتصدّقت على الفقراء والمحتاجين، لكن ماذا عن:

عقيقة الحسن

ماذا عنها والنبي ﷺ يقول: (كل غلام رهينة بعقيقته، يذبح عنه يوم سابعه، ويحلق رأسه، ويسمى)[2]..؟

لقد أحب ﷺ أن يقدم بنفسه عقيقة الحسن، حيث يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ عقّ عن الحسن)[3] (كبشين)[4]، ووقت العقيقة الأفضل هو قوله ﷺ: (العقيقة تذبح لسبع، أو لأربع عشرة، أو لإحدى وعشرين)[5].

وفي يوم جميل بالحَسَن أكل الفقراء وأهل الصفة من العقيقة، وشاركوا النبي وأهل بيته الاحتفاء بالحسن، أما هذا الطفل الحسن رضي الله عنه فقد أرضعته أمّه فاطمة، ثم بعث به ﷺ إلى تلك المرأة الصالحة، التي رأت في منامها بشرى ولادة الحسن.. بعث ﷺ بالحسن إلى أم الفضل، وها هي تحدّثنا عن رضاعته، وعن ضربه وعن حبه.

أم الفضل تضرب الحسن

تقول رضي الله عنها: (رأيت كأن في بيتي عضواً من أعضاء رسول الله ﷺ، فجزعت من ذلك فأتيت رسول الله ﷺ، فذكرت له ذلك. فقال ﷺ: خيراً، تلد فاطمة غلاماً، فتكفلينه بلبن ابنك قثم.

---

(١) سنده حسن رواه الطبراني ٣-٣٠ وابن الجعد ٣٣٤ وأحمد ٦-٣٩٠ من طريق شريك عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن علي بن الحسين عن أبي رافع. وروى أحمد متابعة أبي النضر لشريك، وهو حسن من أجل ابن عقيل. التقريب ٣٢١.

(٢) صحيح الجامع (٢-٨٣٥).

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود ١-٢٨ عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس، وهذا سند صحيح والنسائي ٧-١٦٤ عن حسين بن واقد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه والحاكم ٤-٢٦٥ عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأبو يعلى ٥-٣٢٣ عن أبي الزبير عن جابر وعن جرير عن قتادة عن أنس ٣-٤٤١ وغيرهم.

(٤) حديث صحيح عند الحاكم وأبي يعلى كما مر في التخريج السابق.

(٥) صحيح الجامع (٢/٧٥٩).

قالت رضي الله عنها: فولدت حسناً فأعطيته، فأرضعته حتى تحرك أو فطمته، ثم جئت به إلى الرسول ﷺ، فأجلسته في حجره فبال، فضربت بين كتفيه. فقال ﷺ: ارفقي بابني رحمك الله (أو أصلحك الله) أوجعت ابني. قلت: يا رسول الله اخلع إزارك والبس ثوباً غيره حتى أغسله.

قال ﷺ: إنما يغسل بول الجارية، وينضح بول الغلام)[١] أي يرشّ بول الصبي إلاّ إذا صار يأكل الطعام، فعند ذلك يغسل بوله، والحسن ما زال رضيعاً.. ينعم بقلب جده ﷺ وقبلاته وأحضانه.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (رأيت رسول الله ﷺ يمصّ لسانه أو شفته (يعني الحسن بن علي صلوات لله عليه) وإنه لن يعذب لسان أو شفتان مصّهما رسول الله ﷺ)[٢].

ذلك الطفل البريء.. ذلك البرد الطهور.. الحسن بن علي رضي الله عنه يملأ قلب النبي ﷺ ويملكه، وتمرّ الأيام فيكبر، ويزداد شبهه بالنبي ﷺ، فيقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي)[٣].

يكبر الحسن ويكبر حبّه بين حناياه ﷺ، فيقول البراء رضي الله عنه: (رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه يقول: اللّهمّ إني أحبه فأحبه)[٤]، ويبدأ الحسن يلثغ بالكلمات.. يتعثّر في نطقها.. يقلّبها.. يعبث لسانه الصغير بأحرفها، فيزداد حسناً وبهاءً، ويبدأ الخطو واللعب، ويخرج إلى الطريق ليلعب مع الأطفال، فيراه والده وأبو بكر رضي الله عنهما وهما يمشيان، فيسرع إليه أبو بكر ويأخذه من فوق الأرض ليجعله فوق عنقه، ويدلي قدميه الناعمتين على كتفيه، ويفديه بأبيه ويردّد كلمات تضحك والده علياً.

---

(١) سنده حسن وهو حديث أم الفضل السابق. وقد ثبت علمياً أن هناك فرقا بين بول الغلام والبنت الرضيعين، راجع لمعرفة ذلك موقع (موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة)

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٩٢ حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا حريز عن عبد الرحمن ابن أبي عوف الجرشي عن معاوية: هاشم ثقة ثبت، التقريب ٥٧٠ وحريز أوثق منه التهذيب ٢-٢٣٧ وعبد الرحمن تابعي كبير ثقة، التقريب ٣٤٨. ولك أن تتصور مدى الأمانة العلمية لدى رجال هذا السند رغم سلوكيات بعضهم تجاه علي رضي الله عنه. فمعاوية حاربه، وحريز ناصبي ومع ذلك يأبى عليهم إيمانهم وصدقهم أن يخفوا مثل هذا الخبر، وهي شهادة لعلم الجرح والتعديل ونقاده رحمهم الله، ومدى دقتهم في ذلك.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٥٢).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٤٩).

يقــول أحد الصحابة الذين شــاهدوا حب أبي بكر للحســن: (صلّــى بنا أبو بكر العصر، ثم قام وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان، فأخذه أبو بكر، فحمله على عنقه، وقال:

بــأبــي شــبــيــه الــنــبــي ـــلــيــس شــبــيــهــاً بــعــلــي

وعليّ يبتسم)[1] (ويضحك)[2].

ولا يــلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذلك.. إنه ابن حبيبه وصاحبه ونبيّه، وحبّه من الإيمان، وأبو بكر متضلع بالإيمان وحب آل بيته وحب هذا الطفل الجميل. أبو بكر يفعل ما كان ﷺ يفعله بالحسن، حين يقول البراء بن عازب: (رأيت النبي ﷺ واضعاً الحســن على عاتقــه «وهو يقول: اللهم إني أحبه فأحبه»، وقــال: من أحبني فليحبه)[3] لم يكن الحســن فوق عاتق النبي ﷺ فقط.. كان يتمشــى في قلبه ويتجول في غرفاته وممراته.. كان يحتل قلبه وجســده ومشــاعره.. ها هو رجل من الأزد يبلغ الدنيا وصية نبيّه ﷺ وهو يحتضن الحســن داخل حبوته، فيقول: (أشــهد لقد رأيت رسول الله ﷺ واضعه في حبوته وهو يقول: من أحبّني فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب)[4].

ولــم يكتف هذا الطفل البــريء باقتحام قلبه ﷺ، بل تجاوزت براءته كل الحدود، فصار يقتحم على جده ﷺ صلاته.

ها هو الحســن يدخل على جدّه وهو يصلّــي بأبي بكر وعمر وعثمان ووالده علي وبقية الصحابة رضي الله عنهم.. يركض الحســن.. يلهو داخل المســجد، ويتّجه نحو جده ﷺ، فيقفز على ظهره الشــريف، ويمتطيه كفارس مغوار.. فماذا فعل ﷺ ؟ وما موقف والده وبقية الصحابة من فرح ذلك الطفل واقتحامه عالم النبي ﷺ وهو خاشع مع ربه..؟

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/٢٤٩) بسند البخاري وهو عند البخاري (٣٥٤٢).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٥٤٢).

(٣) سنده صحيح رواه أبو الطياسي ٧٣٢ واللفظ له والترمذي ٣٧٨٣ والزيادة له عن شعبة عن عدي بن ثابت سمعت البراء.. وعدي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٨٨.

(٤) ســنده صحيح رواه البخاري خلق أفعال العباد (٩١) والحاكم ٣-١٩٠ وأحمد ٥-٦٦ من طريق شــعبة عن عمرو بن مرة ســمعت عبد الله بن الحارث يحدث عن زهيــر ابن الأقمر عن الرجل الأزدي. زهير تابعي ثقــة وليــس كما قال الحافظ: مقبول ٦٦٨ وتلميذه ثقة التهذيــب ٥-١٨٢ وعمرو بن مرة أوثق من الاثنين ويشهد للحديث ما قبله.

يقول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (إن رسول الله ﷺ كان يصلّي، فإذا سجد وثب الحسن على ظهره وعلى عنقه، فيرفع رسول الله ﷺ رفعاً رفيقاً لئلا يصرع (فعل ذلك غير مرة) فلما قضّى صلاته، قالوا: يا رسول الله رأيناك صنعت بالحسن شيئاً ما رأيناك صنعته. قال ﷺ: إنه ريحانتي من الدنيا)(١).

نبي لا يقاوم عطر الطفولة المنعش.. وبراءتها التي تهزم القلوب.. طفولة منحها الإسلام مساحة من الحب والرحمة والتسامح.. مساحة فسيحة.. فسيحة تمتّع بها الحسن، ونعم فيها بطفولته وعفويّته، وتمتع بها أطفال المسلمين من بعده و..

تتمادى البراءة فيتمادى الحب

وتتّسع الرحمة، فرسول الله ﷺ هذه المرة لا يذهب إلى المسجد وحده، بل يحمل حفيده وريحانته الفواحة معه، وهو يعلم ما قد يفعل الطفل أثناء الصلاة.. أحد الذين رأوا ورووا تلك القصة المفعمة بالطفولة والعبادة يتحدّث إلينا.

صحابي اسمه شداد يقول: (خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً(٢)، فتقدم رسول الله ﷺ فوضعه، ثم كبّر للصلاة، فسجد بين ظهراني صلاته سجدةً أطالها، فرفعت رأسي، وإذا بالصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال الناس: يا رسول الله إنك سجدت بين ظهراني صلاتك سجدةً أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك..؟!

قال ﷺ: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)(٣).

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٥١ وابن حبان ١٥-٤١٨ والطبراني ٣-٣٤ من طريق مبارك بن فضالة عن الحسن أخبرني أبو بكرة. وفي هذا السند مدلسان الحسن ومبارك رحمهما الله، أما الأول فصرح بالسماع من شيخه، وأما مبارك فقد توبع عند الطبراني ٣-٣٤ تابعه إسماعيل بن مسلم، فإن كان العبدي فهو ثقة، وإن كان المكي فهو ضعيف.

(٢) أو حسيناً كما جاء في النص وفعلت ذلك من أجل السياق.

(٣) حديث صحيح رواه أحمد ٣-٤٩٣ والنسائي صحيح الألباني - ١-٢٤٦.

إنها رحمة يشعر بها ﷺ ويحرض أصحابه على الشعور بها.. تقول عائشة رضي الله عنها: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تقبّلون الصبيان؟ فما نقبلهم.!

فقال النبي ﷺ: أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[1].

و(قبّل رسـول الله ﷺ الحسـن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم)[2].

ورسـول الله ﷺ يقول عن نفسـه: (إنما أنا رحمة مُهداة)[3]، فهل هناك ألذ من الرحمـة وأجمل من الهدية.. لقد كان بين أضلاعه قلب كالنسـيم البارد خلال القيظ والهجير.. كان سلوكه مطراً لذيذاً على شفتي صحراء تتلمظ عطشاً.

ذات يوم وبينما كان ﷺ يخطب أصحابه على منبره، إذ به يذهل عن خطبته وعن الناس من حوله، بل وعن نفسه.

الرحمة تذهله ﷺ

عبـد الله بن عمر بن الخطاب رأى وسـمع ما حدث، وأدهشـته تلك الرحمة فقال رضي الله عنه: (رأيت رسـول الله ﷺ على المنبر يخطب الناس، فخرج الحسـن بن علي رضي الله عنه في عنقه خرقة يجرّها، فعثر فيها، فسقط على وجهه فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر يريده، فلما رآه الناس أخذوا الصبي فأتوه به، فحمله فقال: قاتل الله الشيطان، إن الولد فتنة، والله ما علمت أني نزلت عن المنبر حتى أوتيت به)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٨).

(٢) حديث صحيح، رواه البخاري (٥٩٩٧).

(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير (١/٤٦٣).

(٤) سـنده قوي، رواه الطبرانـي ٣-٣٥ حدثنا عبد الله بن علي الجـارودي، حدثنا أحمد بن حفص، حدثني أبـي، حدثنا إبراهيم بن طهمان، عن عباد بن إسـحاق، عن زيد بن أبـي العتاب، عن عبيد بن جريج عن ابن عمر.. وعبيد وزيد تابعيان ثقتان من رجال التقريب، وعباد بن إسـحاق صدوق واسمه عبد الرحمن. التهذيب ٦-١٣٧ وإبراهيم ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٩٠ وأحمد ووالده صدوقان من رجال البخاري وشـيخ الطبرانـي حافظ من أئمة الأثر أثنى عليه الحاكم والناس انظـر: البلغة لحماد الأنصاري حفظه الله (١٩٤).

لم تكن الرحمة للحسـن وحده.. فهناك طفلة تنافسه.. وردة اسمها «أمامة» بنت زينب رضي الله عنها.. كانت أمامة ملء سـمعه وبصـره.. تتعلق به عيناها البريئتان، وتمد يداها الصغيرتان وهو يهم بالخروج للمسجد، فيستسلم قلبه لتلك البراءة العذبة، فيحملها ويضمها ويقبلها، ويأخذها معه إلى المسجد وهو يريد الصلاة بصحابته رضي اللـه عنهم. فيراه أحدهم وهو «أبو قتـادة» فيقول: (خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلّى، فإذا ركع وضع، وإذا رفع رأسـه رفعها)[1]، (فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)[2].. يفعل ذلك أثناء صلاته بالمؤمنين.

ولـم تكن تلك الرحمـة والملاطفة منـه ﷺ لأولاده فقط، بل كان يشـمل بها أبناء المسلمين.. ها هو يزور دار أحد الأنصار.. دار (الربيع بن سراقة الخزرجي)، فيجد طفلاً صغيراً اسمه محمود، فيبدأ بملاطفته وملاعبته، ثم يتناول ﷺ دلواً على حافة البئر، ثم يملأ فمه الطاهر بالماء، ثم يقترب من الصغير ويلاحقه فيطشّ الماء في وجهه.

حركة تثير الضحك والركض والاختباء البريء لدى الأطفال.. حركة تجلب السعادة.. مازال محمود يذكرها، ويذكر الناس بها، وهو يقول: (عقلت من النبي ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين)[3] (مجها رسول الله ﷺ من دلو في دارنا)[4].

قد يفعل الرجل هذا مع أبنائه وبناته، فهل يفعلها حاكم أو عالم أو وجيه مع أطفال غيره.. ماذا سيقول الناس عن ذلك..؟ ماذا سيقول الجهل عن ذلك..؟ لكن محمداً ﷺ فعل ذلك مع ذلك الطفل (من بئر في دارهم)[5]، بل لقد بلغ به التواضع والرحمة أعماقاً وآفاقـاً بعيدةً.. بعيدة.. تعال معي إلى هذا المشـهد المضحك المبكي في طرقات مدينة النبي ﷺ.. مشهد لـ:

النبي ﷺ والإماء والمعاقين

حيث نرى النبي ﷺ يمشـي في الطرقات تقوده أمةٌ أو امرأة في عقلها شـيء.. دون أن ينهرها، أو يطالبها بالتوقف، أو يطالب أهلها بردعها عن مجلسـه.. كان يجعل

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٩٦).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٦).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٧٧).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٦٤٢٢).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١١٨٥). حديث صحيح رواه البخاري (مشكاة المصابيح - ٣/١٦١٧).

لهـــا من قلبه ووقته نصيباً كالآخرين.. يقوم مـــن مجلس قد يجلس فيه أبو بكر وعمر وعثمـــان وعلـــي إلى امرأة في عقلها اضطراب.. يســـتمع إليهـــا، وينصت حتى تنتهي وتقضي حاجتها..

يقول أنس رضي الله عنه: (كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت)[1]، ويقول: (إن امرأة كان في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله، إن لي إليك حاجة؟ فقال: يا أم فلان، انظري أي السكك شئت حتى أقضي لك حاجتك.

فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها)[2].

كان ﷺ جنّة من المشاعر.. ينعم بها الجميع، حتى ضعاف العقول.. حتى العصافير والطيور.. كان ﷺ جدول حب يشرب منه الجميع فيرتوون.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجتـــه، فرأينا حمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولده؟ ردوا ولدها إليها.

ورأى قريـــة نمل قد أحرقناهـــا، فقال ﷺ: إنه لا ينبغي أن يعـــذب بالنار إلاّ رب النار)[3].

كان ﷺ يتغيّـــر وجهـــه ويتألم لمنظر الفقراء، فلا يقرّ له قرار حتى يذهب ما بهم، فإذا لم يجد سوى الكلمات بذلها يريح بها نفوسهم ويقوّيهم بها.

يقـــول أحد الصحابة رضي الله عنهم: (كنّا عند رســـول الله ﷺ في صدر النهار، فجاء قوم عراة، حفاة، متقلّدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلّهم من مضر، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلّى ثـــم خطب فقـــال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾)[4].

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٧٢).

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢٣٢٦).

(٣) حديث صحيح: انظر: صحيح سنن أبي داود (١٦١٨/٣).

(٤) سورة النساء: الآية ١.

و﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾[1].

تصـدّق رجل من دينـاره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشقّ تمرة.

فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفّه تعجز عنها، بل لقد عجزت، ثم تتابع الناس حتـى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسـول الله ﷺ يتهلّل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ: من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شـيئاً)[2]، أي من أحيى سـنة من سنن الإسلام، ودلّ عليها فله ذلك الأجر، ومن ابتدع في الإسلام سنة لم يأت بها النبي ﷺ فعليه ذلك الـوزر المخيف، ويقول ﷺ: (مـن دلّ على خير فله مثل أجره فاعله)[3]، و(من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد)[4]. كانت تلك الصدقات سـنة حسـنة.. تهلّل وجه النبي ﷺ عندما رآها، لأنه رأى الجوع والعري ينزاح عن أولئك المسـاكين، الذين أحسّـوا بالحياة تسـري في عروقهم من جديد، لكن الرحمة أحياناً تسـتغل.. يسـتغلها الأوغاد واللئام، وذلـك لا يعني أن يتوقـف تدفقها للتوقعات والظنون.. رحمتـه وكرمه ﷺ متدفق دون توقف، حتى مع الخونة إلى أن يظهروا الخيانة ويمارسوها جهاراً كما في هذه القصة:

قصة أولها رحمة وآخرها جحيم

مجموعة من اللصوص من عكل وعرينة.. مجموعة من الأوغاد سـمعوا برحمته ﷺ، وبشفقته على أصحابه وعلى الناس جميعاً، فظنّوا أن بإمكانهم استدرار رحمته، واستدراج طيبتـه، ثم الضحك عليه بعد نـوال عطائه. جاء هؤلاء إلى المدينة وتظاهروا بالإسـلام (وبايعوه ﷺ)[5] لكن حمى المدينة أصابتهم، فأشفق عليهم ﷺ عندما قالوا: (يا نبي الله،

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٨.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٠١٧) الزكاة والنسائي (الصحيح ٢-٥٣٩).

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (١٨٩٣).

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٦٩٧).

(٥) حديث صحيح - رواه مسلم - القسامة.

إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة)[1] (فقال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة، فتشربوا من ألبانها وأبوالها)[2] (فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ[3]، وراعٍ، أمرهم فيه، فيشربوا من ألبانها وأبوالها)[4].

أجل أمرهم بشـــرب أبوال الإبل، وهي معجزة طبية ثبتت علمياً في ألفيتنا الثالثة كدليـــل على نبوته[5] (فانطلقوا، فشـــربوا من أبوالها وألبانها حتى صحوا وســـمنوا)[6] (فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ، واســـتاقوا النعم)[7] و(ســـملوا أعين الرعاء)[8] أي فقأوا عينيه بالحديد. (فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة كفروا بعد إســـلامهم)[9] (فجـــاء الخبر في أوّل النهار، فبعث ﷺ في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر بقطع أيديهم، وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وألقوا في الحرّة، يستسقون فلا يسقون)[10] (ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا)[11].

مـــا ذنب ذلك الراعي المســـكين الذي اعتنى بهم وبصحتهم..؟ ســـقاهم ومرّضهم وأطعمهـــم، فكان جزاؤه أن فقأوا عينيه ثم قتلـــوه!! إن فقأهم لعيني الراعي قبل قتله دليـــل على توغّل الإجرام والحقد في نفوس هؤلاء الأنـــذال، الذين جمعوا كل صفات الخسّة والدناءة.. كفروا، وقتلوا، ومثّلوا، وخانوا، وسرقوا، فكان عقابهم شديداً بحجم جريمتهم. إن أمثال هؤلاء الرعاع والجهلة وقطاع الطرق يشكلون خطراً على كل أرض يطأونها، ولا يمكن أن يوقف نزيف الخوف والدم الذي يســـفكونه سوى السيف البتّار. أمثال هؤلاء يغريهم ضعف الضعيف، وحلم الحليم وتسامح الكريم، فينشرون من خلال ذلك الرعب في قلوب الحجاج والتجار والمسافرين.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢) ومعنى استوخموا أي لم يوافق مناخها أجسادهم.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (١٦٧١) القسامة.

(٣) الذود هو القطيع من الإبل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(٥) للدكتورة فاتن خورشيد براءة اختراع حول هذا الموضوع وللدكتورة أحلام العوضي وزميلاتها أبحاث أخرى مبهرة حول بول الإبل كما نشرت جريدة الرياض الجمعة ٢٤ - شوال خبراً عن براءة اختراع أخرى.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٣).

(٨) حديث صحيح رواه مسلم -القسامة (١٦٧١).

(٩) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٩٢).

(١٠) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠١٨).

(١١) حديث صحيح رواه مسلم -القسامة (١٦٧١).

ربما أغرى هؤلاء الأجلاف ذلك الإنكسار الذي حدث للمؤمنين في غزوة أحد، وربما كانوا طلائع خيانة واستكشاف لمجرم قابع في عرنه.. يجمع جيشاً لاقتحام المدينة ونهبها.. مجرم يثير القشعريرة.. اسمه (خالد بن سفيان بن نبيح) يقود بني لحيان.

علم ﷺ بذلك المخطط، لكنه فكّر بطريقة آمنة يتخلّص فيها من حرب ضروس بطعنة واحدة.. يحقن فيها دماء جيوش تحتاج إلى دمائها ورجالها. فكّر ﷺ بـ:

اغتيال خالد بن سفيان

وقع اختيار رسول الله ﷺ على فارس مغوار يختصر المسافات والأحداث.. يجمع الجيوش والآلام والنواح بطعنة واحدة.

وقع اختياره ﷺ على فارس يدعى (عبد الله بن أنيس) فتعالوا إلى الأحداث والحديث، وفارسنا الذي يقول: (دعاني رسول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة، فأته فاقتله. قلت: يا رسول الله، انعته[1] لي حتى أعرفه. قال ﷺ: إذا رأيته وجدت له قشعريرة [قلت: والذي أكرمك ما هبت شيئاً قط].

فخرجت متوشحاً سيفي، حتى وقعت عليه بعرنة «مع ظعن[2] يرتاد لهن منزلاً»، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت له ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصلّيت وأنا أمشي نحوه، أومئ برأسي الركوع والسجود.

فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا. قال: أجل، أنا في ذلك [قلت: باغي حاجة فهل من مبيت؟ قال: نعم فالحق بي] فمشيت معه شيئاً، حتى إذا أمكنني حملت عليه السيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركته ظعائنه مكبّات عليه، [ثم غشيت الجبال ولجمته حتى إذا ذهب الناس خرجت حتى] قدمت على رسول الله ﷺ، فرآني، فقال: أفلح الوجه. قلت: قتلته يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «صدقت».

---

(١) أي صفه لي.

(٢) نساء.

ثم قام معي رسـول الله ﷺ، فدخل في بيته فأعطاني عصا، فقال: أمسـك هذه عنـدك يا عبد الله بن أنيس. فخرجت بهـا على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسـول الله ﷺ وأمرني أن امسـكها. قالوا: أوّلا ترجع إلى رسـول الله ﷺ فتسـأله عن ذلك؟ فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقلّ الناس المتخصرون يومئذٍ يوم القيامة، فقرنها عبد الله بسيفه)[1] الذي حطم صنماً وخطراً في دروب المؤمنين.. إن هذا النوع من الاغتيال لم يكن باجتهاد فردي.. لم يقم به أحد من أصحابه حماساً وتطوعاً، وهم قـادرون علـى أكثر من ذلك.. إنها دماء لا يجوز الخـوض فيها دون الرجوع إلى النبي الإمام- النص، وإلا فإنها ضرب من التهور غير المبرر.

لـم يكن عبد الله بن أنيـس وحده الذي يبعث في سـرية مكوّنة من فرد واحد.. كان هناك من ينافسه.. رجل شديد البأس قويّ البنية.. جسور لا يهاب الموت.. يعشق الشهادة.. كان ﷺ يبعثه إلى أعماق قريش.. يتغلغل فيها، لا ليقتل، بل لينقذ، ليخلص بعض أولئك المستضعفين في مكة الذي أبقاهم ذووهم في مكة، وقهروهم ومنعوهم من الهجرة، فكانت تلك المهمات:

---

(١) حديث صحيح عدا ما بين الأقواس الصغيرة، وقد حسن الحافظان ابن حجر وابن كثير سند أحمد وأبي داود وهو سند ضعيف، وبقية الحديث هو: فلم تزل معه حتى إذا مات أمر بها، فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعاً، والحديث عند أحمد ٣-٤٩٦ والطبراني (مسند العبادله - ٧٦) وأبي داود (١٢٤٩) مختصراً. وقد ضعفه الإمام الألباني في ضعيف أبي داود (١٢٣) وسـنده عند أحمد وأبي داود محمد بن إسـحاق عن محمد بن جعفر عن ابن عبد الله بن أنيس عن أبيه. لكن ابن إسحاق صرح بالسماع من شيخه الثقة عند أحمد ٣-٤٩٦ فتبقى مشـكلة ابن عبد الله بن أنيس، وعنـد الرجوع للتقريب نجد أن الحافظ قال: إن اسمه: ضمرة أو عمرو، أو دون اسم.. ولكن عندما نرجع إلى سنن البيهقي ٣-٢٥٦ نجد أنه قد سماه بـ عبيد الله، وهو الأصوب والأصح للتصريح من تلميذه باسـمه.. لكن معرفتنا باسـمه لا تفي بالغرض، فالرجل تابعي لم يوثق فيحتاج إلى شـاهد أو متابعة، وقد وجدت هذه المتابعة والشـاهد عند الطبراني. حدثنـا مصعب بـن إبراهيم، حدثني أبي، حدثنا عبد العزيز الدراوردي، عـن يزيد بن عبد الله بن الهاد عن محمد بن كعب القرظي، قال، قال عبد الله بن أنيس.. وفي هذا السند خطأ فالصواب يزيد بن عبد الملك بن الهاد وهوتابعي ثقة وكذلك محمد بن كعب القرظي وسائر رجال السند ثقات وهو متصل انظر: التقريـب (١/٣٤ - ٥١٢) (٢/٢٠٣-٣٦٧) وشـيخ الطبراني ثقة انظر: مجمـع البحرين (٣/١٥٥) ورواية الدراوردي ليست عن عبيد الله العمري.
فالسند حسن والحديث صحيح بالسندين والزيادات بين المعقوفين من رواية الطبراني.

سرايا لمرثد بن أبي مرثد

وكان لمرثد رضي الله عنه صديقة في مكة.. ينزل عليها ســـرّاً، وكان يحبها وتحبه وتحفظ ســـره وعلاقته بها.. اســـمها: (عناق)، لكن أمراً حدث في المدينة أثار غضب تلك الحســـناء، فخانت مرثد ونادت قريشاً لكي يحاصروه ويقبضوا عليه، فماذا حدث لمرثد بن أبي مرثد..؟

يقول أحد الصحابة: إن (مرثد بن أبي مرثد، كان رجلاً «شـــديداً» يحمل الأسرى من مكة، حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأة بغيٌّ بمكة يقال لها (عناق)، وكانت صديقة له، وأنه كان وعد رجلاً من أسارى مكة يحتمله،

قـــال مرثد: فجئت حتى انتهيـــت إلى ظل حائط، من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق، فأبصرت ســـواد ظلي بجنب الحائـــط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: «مـــن هذا» مرثد؟ فقلـــت: مرثد. قالت: مرحباً وأهلاً، هلم فبِـــتْ عندنا الليلة «انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل».

قلت: يا عناق..

حرم الله الزنا

«إن رســـول الله ﷺ حرم الزنا». قالت: يا أهـــل الخيام، «هذا الدلدل، هذا الذي يحمل أسراءكم من مكة إلى المدينة».

فتبعني ثمانية، وســـلكت الخندمة[1]، فانتهيـــت إلى غارٍ أو كهفٍ، فدخلت، فجاءوا حتى قاموا على رأســـي، فبالوا «فطار بولهم علي»، فظلّ بولهم على رأســـي، وعمَّاهم الله عني. ثم رجعوا ورجعت إلى صاحبي، فحملته، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيت إلى الإذخر، «فلما انتهيت به إلـــى الأراك» ففككت عنه أكبله، فجعلت أحمله ويعينني، حتى قدمت المدينة، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناقاً؟

«فســـكت عني»، فأمسك رسول الله ﷺ ولم يرد عليّ شيئاً حتى نزلت: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

---

(١) جبل عند أحد مداخل مكة.

فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد الزاني لا ينكح إلاّ زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلاّ زان أو مشرك، فلا تنكحها)[1].

لأنها تحترف الزّنا وتصرّ عليه، أما إذا تابت الزانية، وتاب الزاني وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، فيجوز عند ذلك، أمّا إذا لم يتوبوا فهم أمراض متنقلة.. تنخر الأجساد والمجتمعات.

إذاً فهناك رجال يمكن الاعتماد عليهم للقيام بمهام خطيرة ودقيقة، والنبي ﷺ لم يتردّد في بثّهم هنا وهناك، فالمدينة في خطر، والدعوة إلى التوحيد تحتاج إلى دولة قوية وذكية لنشرها، فكان لمرثد دور، وكان لعبد الله بن أنيس دور آخر، وللذين داخل المدينة أدوار يؤدّونها تحت قيادة هذا النبي الحكيم.

في إحدى هذه المهمات أراح النبي ﷺ دولته وأصحابه من فتنة عمياء، ومن حرب قد تكون فادحة الخسائر، وأراح بني لحيان من كارثة قد تحلّ بهم على يد قائدهم المتهور خالد بن نبيح، لكن النبي ﷺ لم يكتف بهذه السرية ذات الفارس الفذ، فقريش وبنو لحيان وبعض القبائل أغراهم ذلك الانكسار الذي حدث للمسلمين في أُحُد، لذلك لابدّ من الحذر واليقظة.. لابدّ من دراسة المنطقة والتعامل معها بحرص، فقد يكون فيها أكثر من خالد بن نبيح.

هناك مناطق توتّر مخيفة بين مكة والمدينة.. أشدّها تلك التي تسكنها هذيل قبيلة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، تلك القبيلة التي ينتمي لها بنو لحيان، ويسكنها بجوارهم بنو سليم، وإليها ينتمي بطون (رعل وذكوان وعصية) وهؤلاء جميعاً يسكنون قريباً من مكّة، وقد تمّ القضاء على إحدى بؤر التوتّر وهو خالد بن نبيح، لكن بقي من هو أشدّ خطورة منه.. بقي طاغوت من غطفان اسمه (عامر بن الطفيل) هذا الطاغوت كان وقحاً لدرجة أنه جاء إلى المدينة يهدد النبي ﷺ إذا لم يرض بمطالبه.

---

(١) سنده حسن رواه النسائي (الصحيح - ٣٠٢٧) والترمذي (الصحيح - ٣٥٣٨) واللفظ له والزوائد للنسائي، من طريق عبيد الله بن الأخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعبيد الله، ثقة التقريب ٣٦٩ وبقية السند حسن مشهور.

عامر بن الطفيل يهدد النبي ﷺ

يقول أنس بن مالك: (كان رئيس المشركين (عامر بن الطفيل، وكان أتى النبي ﷺ فقال: أخيرك بين ثلاث خصال:

أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر.

أو: أن أكون خليفتك من بعدك.

أو: أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء)[1].

رفض ﷺ تلك المطالب الطاغوتية، فقد بعثه الله للناس كافةً.. لنشر التوحيد وإزالة الشرك عن هذه الأرض كلها، وإزالة الطواغيت أمثال عامر بن الطفيل، وتحكيم شرعه لا لمقاسمة الأصنام والعادات والتقاليد، ولذلك أخذ ﷺ حذره من ذلك الأهوج، ومن بني لحيان وبني سليم، فقام بعقد عهدٍ بينه وبين جيرانهم بني عامر حتى يأمن اتفاقهم عليه أو مساندتهم لقريش إذا ما قامت قريش بعمل عسكري في المستقبل. لكن ذلك كلّه لا يكفي، فعامر بن الطفيل يحتاج إلى رصد ومراقبة أكثر، فالظروف الحالية دقيقة وخطيرة، وقريش مازالت تحتفظ بقائمة من الأسماء.. لها معها ثأر منذ غزوة بدر، ولم تتمكن منهم في غزوة أُحُد، وكان على رأس تلك القائمة الصحابي الشجاع (عاصم بن ثابت) الذي شهد له ﷺ بإجادة القتال في غزوة أُحد.. هذا الأسد كان قد فتك بعظيم من طواغيت قريش، ورأسه مطلوب بأي ثمن، والفارس الآخر اسمه (خبيب بن عدي) وقد اجتثّ خبيب رضي الله عنه طاغوتاً آخر يدعى (الحارث بن عامر بن نوفل) وهناك آخرون مطلوبون، لكنني ذكرت هذين الفارسين لأن الرسول ﷺ استدعاهما، واستدعى معهما ثمانية من الشجعان.. هؤلاء العشرة كوّنوا سرية استطلاع للمنطقة الواقعة بين مكة والمدينة، ومهمتهم تغطي أراضي يسكنها بنو لحيان وسليم وبنو عامر، وأطلق فيما بعد على هذه السرية:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١) والبيهقي (٣٤٥/٣) واللفظ له.

سرية الرجيع

لكن ما علاقة بني لحيان بمن هلك من طواغيت قريش على أرض بدر؟..

أحـد الصحابة يجيب ويسـرد علينا قصة عاصم قائد هذه السـرية وأصحابه، فيقـول: (بعث النبي ﷺ «عشـرة رهط» عينـاً، وأمَّر عليهم (عاصم بـن ثابت)...[1] فانطلقوا حتى كانوا «بالهدأة» بين عسـفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال لهم: بنو لحيـان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيـه نوى تمر تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب. فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما «رآهم» عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد[2]، وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق، إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً.

فقال عاصم «أمير السرية»: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر، اللّهمّ أخبر عنا نبيّك. فقاتلوهـم حتى قتل عاصماً في سـبعة نفر بالنبل[3]، وبقي خبيـب وزيد ورجل آخر، فأعطوهـم العهد والميثـاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما اسـتمكنوا منهم حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما رضي الله عنه: هذا أول الغدر.

فأبى أن يصحبهم، فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد، حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيـب هو قتل الحارث بن عامر يـوم بدر، فمكث «خبيب» عندهم أسـيراً، حتى إذا أجمعوا قتله[4] استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها[5]، فأعارته.

قالـت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه[6] حتى أتاه فوضعه في فخذه. فلما رأيته فزعت فزعةً عرف ذلك مني وفي يده الموسى. فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى.

(١) مكان النقاط جملة اعتراضية هي (وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب).
(٢) الرابية المرتفعة.
(٣) أي قتلوا سبعة من الصحابة أحدهم عاصم رضي الله عنهم جميعاً.
(٤) قرروا قتله ثأراً لقتله والدهم الحارث.
(٥) طلب موسى ليحلق بعض شعره.
(٦) مشى الطفل حتى دخل على خبيب والموسى بيده.

وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف[1] عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله «خبيباً».

فخرجوا به من الحرم[2] ليقتلوه «في الحل»، فقال رضي الله عنه: دعوني أصلي ركعتين «ذروني أركع ركعتين، فتركوه، فركع ركعتين» ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن «تظنوا» أن ما بي جزع من الموت لزدت «لطوّلتها»، فكان أوّل من سن الركعتين عند القتل هو.

ثم قال: اللّهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً. ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي شقّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله[3].

لكن عقبة بن الحارث ينكر ذلك ويقول لمن حوله: (والله ما أنا قتلت خبيباً، لأنا كنت أصغر من ذلك، ولكن أبا ميسرة أخا بني عبد الدار أخذ الحربة فجعلها في يدي، ثم أخذ بيدي وبالحربة ثم طعنه بها حتى قتله)[4].

ويكمل الصحابي حديثه فيقول: (وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلّة من الدبر[5]، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا «على أن يقطعوا من لحمه شيئاً»)[6] فكانت كرامة من الله لعاصم رضي الله عنه، حيث حمى الله جسده الطاهر بسحابة من الزنابير أو ذكور النحل.

---

(١) القطف هو العنقود ساعة قطفه.
(٢) كان المشركون يحترمون منطقة الحرم لذلك خرجوا به إلى منطقة الحل.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٦) والزيادات عنده أيضاً.
(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق (سيرة ابن كثير - ٣/١٣١) حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير، عن أبيه عباد، عن عقبة بن الحارث. عباد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٢٩٠ وابنه يحيى ثقة وهو تابعي صغير ٥٩٢.
(٥) أي سحابة من الزنابير أو ذكور النحل.
(٦) هو بقية حديث البخاري السابق.

هكذا ســافر خبيب وعاصم وزيد ورفاقهم شهداءً إلى ربهم، لكنها بالنسبة للنبي ﷺ وأصحابه الأحياء مصيبة أخرى بعد أُحُد.. خيانة قام بها هؤلاء المشــركون فكلفت المؤمنين الكثير.. خيانة ليست من طباع العرب الكريمة.. تأثر منها المؤمنون، واستفادت منها قريش، وحزّت في أنفس الشرفاء من العرب.. خاصة أولئك الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ عهد، وهم بنو عامر، لذلك جاءت مجموعة منهم بقيادة رجل اسمه: (عامر بن مالك، أبو البراء) ويلقب بـ«ملاعب الأسنة»..

قــدم ملاعب الأســنة من أجل تلطيف الأجواء.. حاملاً معه هدية للرســول ﷺ، لكن النبي ﷺ كان في حالة حزن على أصحابه، فعرض الإسلام على ملاعب الأسنة، ودعاه إلى الدخول في دين الله، فرفض ﷺ هديته لأنه مشرك، فحاول ملاعب الأسنة أن يخفّــف عــن النبي ﷺ بعض ما في صدره من حزن على أصحابه، فعرض عليه أن يرســل بعض الصحابة لنشر الإســلام في نجد، وتعهّد بحمايتهم والدفاع عنهم، حتى يطمئن النبي ﷺ أنه لن يصيبهم ما أصاب خبيباً وأصحابه.. ومما دفع النبي ﷺ إلى الموافقة أن رجالاً من أحياء: رعل وذكوان وعصية كانوا قد قدموا مع «ملاعب الأسنة» وتظاهروا بالإســلام أيضاً، وادّعــوا أنهم بحاجة إلى مجموعة مــن الصحابة تعلّمهم القرآن والتوحيد، بل وتعينهم على أعدائهم.

اســتجاب ﷺ واثقاً بعهد ملاعب الأســنة، ومصدّقاً أولئك الذين أظهروا الإسلام، وبعث معهم شــباباً من الأنصار، ها هو أحدهم يودع أخته (أم ســليم) إنه خال أنس بن مالك واسمه (حرام) وهؤلاء الشباب الذين مع (حرام) هم صفوة من تلاميذ محمد ﷺ.. شباب لا تعرف كيف تصفهم! هل هم عباد، أم تجار، أم علماء، أم عمّال..؟ إنهم الإسلام في صورة شباب.

يقول كعب وأنس رضــي الله عنهما: (جاء ملاعب الأســنة إلى النبي ﷺ بهدية، فعرض عليه الإســلام، فأبى أن يســلم، فقال النبي ﷺ: فإني لا أقبل هدية مشــرك. قال: فابعث إلى أهل نجد من شــئت فأنا لهم جارٌ، فبعث إليهم)[1] شباباً (كنّا ندعوهم على عهد رسول الله ﷺ: القرّاء، فذكر أنس سبعين رجلاً من الأنصار، كانوا إذا أجنّهم

(١) ســنده قوي رواه الطبراني ١٩-٧٠ و٧١ و٨١) عن يونس ومعمر والأوزاعي عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن كعب. وهذا السند صحيح وقد مر معنا.

الليل آووا إلى معلم بالمدينة، فيبيتون يدرسون، فإذا أصبحوا فمن كان عنده قوّة أصاب من الحطب، واستعذب من العذب[1]، ومن كانت عنده سعة أصابوا الشاة فأصلحوها، فكان معلقاً بحجر رسول الله ﷺ، فلما أصيب خبيب)[2] (جاء ناس إلى النبي ﷺ «رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان» فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلّمونا القرآن والسنّة. فبعث «إلى ناس من المشركين بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد» سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم (القرّاء) فيهم خالي حرام:

يقرأون القرآن،

ويتدارسون بالليل يتعلّمون،

وكانوا بالنهار يجيؤون بالماء فيضعونه في المسجد،

ويحتطبون فيبيعونه،

ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء،

فبعثهم النبي ﷺ إليهم «حتى كانوا ببئر معونة»)[3] (فأتوا على حي من بني سليم فقال حرام لأميرهم: دعني فلأخبر هؤلاء أنّا ليس إياهم نريد، فيخلون وجوهنا)[4] (وكان رئيس المشركين عامر بن الطفيل)[5] (فاستجاش عامر بن الطفيل بني عامر، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا ملاعب الأسنة، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه)[6] (فانطلق حرام أخو أم سليم ورجلان معه: رجل أعرج، ورجل من بني فلان. قال:كونا قريباً مني حتى آتيهم، فإن أمنوني كنتم كذا، وإن قتلوني أتيتم أصحابكم.

فأتاهم حرام فقال: أتؤمنوني أبلغكم رسالة رسول الله ﷺ؟ قالوا: نعم. فجعل يحدّثهم، وأمأوا إلى رجل فأتاه من خلفه، فطعنه، فأنفذه بالرمح «فلما وجد حرام مسّ

---

(١) أي الماء العذب.

(٢) حديث صحيح رواه الشيخان والطبراني (١/٣٢٣) والبيهقي (٣/٣٤٩) واللفظ له.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧ - وبين ١٩٠٢ - ١٩٠٣).

(٤) هو حديث البيهقي السابق وهو صحيح.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١).

(٦) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق.

الرمح في جوفه قال: الله أكبر، فزت وربّ الكعبة»[1] ولما سال دمه من جرحه اغترفه بيديه ثم (نضحه على وجهه ورأسه، ثم قال: فزت ورب الكعبة)[2] (فانطووا عليهم فما بقي منهم مخبرٌ «فلحق الرجل، فقتلوا كلهم إلاّ الأعرج كان في رأس الجبل»)[3] (قتلوهم وغـدروا بهم)[4] (قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا رضي اللـه عنهم: اللّهمّ بلّغ نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا)[5].

فأنزل الله قرآناً يتلى في هؤلاء الشـباب الأطهـار الأبرار، فقال تعالى: ﴿إنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا﴾[6].

نزلـت هذه الآية على النبي ﷺ، فحزن حزناً لم يحـزن مثله أبداً، وخيّم الوجوم علـى المدينة.. على أصحاب النبي ﷺ، وأحرق الدمع والحزن أجواف الأمّهات والآباء والأبناء، وبكى أهل الصفة أرحم الناس بحالهم.. بكى أهل الصفة أحبابهم الذين طالما كدحوا وشقوا ليخفّفوا مما بهم، ليمنحوهم بعض السعادة.. هذا قد منحوه ثوباً، وهذا اشتروا له طعاماً، وذاك أعطوه فراشاً، ورابع قدّموا له غطاءً، وخامس قدموا له حذاءً. فلك أن تتصوّر حجم الفراغ الذي يتركه سبعون بمثل هذا الجمال والحب والسخاء.

أهل المدينة يتذكرونهم عندما يرون تلك القرب التي كانوا يملأونها بالماء لهم على باب المسـجد، فكم من عطشـان فقد تلك السحابة. أمّا النبي ﷺ فتوجّه والحزن في عينيه وقلبه إلى أصحابه، فقال: (إن إخوانكم قد قتلوا، وإنهم قالوا: اللّهمّ بلّغ عنّا نبينا أن قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا)[7].

لقد بلغ به الهمّ والحزن مسـافات فعل معها شـيئاً لم يكن قد فعله من قبل. كيف لا، وهو قد فجع بخبيب وعاصم ومن معهما، ثم فجع بسبعين من خيرة الشباب الذين سـافروا من أجل نشر دين ربهم ورسالة نبيّهم، ولا ذنب لهم سوى ذلك.. لقد دعا ﷺ على أولئك المشركين الأنذال شهراً كاملاً في صلواته كلّها.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩١ - ٤٠٩٢) والبيهقي (٣/٣٤٥) واللفظ له.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٢).
(٣) حديث صحيح وهو حديث الطبراني السابق والزيادة للبخاري (٤٠٩١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٠).
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).
(٦) هذه الآية منسوخة وهي في البخاري (٤٠٩١).
(٧) حديث صحيح رواه مسلم (٦٧٧).

يقول أحد الصحابة رضي الله عنه: (قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح في دبر كل صلاة إذا قال: سمع الله لمن حمده من الركعة الأخيرة يدعو على أحياء من بني سليم: على رعل، وذكوان، وعصية «وبني لحيان» ويؤمِّن من خلفه)[١]، ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (وذلك بدء القنوت وما كنّا نقنت)[٢].

واستجاب الله لنبيّه ﷺ، فأصيب الطاغية عامر بن الطفيل.. أصيب بمرض عضال وصفه ﷺ بقوله: (غدة كغدة البعير[٣]، وسماه ﷺ بـ«الطاعون»، وهو وصف دقيق للطاعون الدبلي الذي يتميز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط، وكذا تضخم الطحال)[٤]، وهو ما أصيب به عامر بن الطفيل، حتى أصبح حبيساً في بيت امرأة من قومه.

أصيب عامر بالطاعون، وتلاشت أحلامه بالتملّك على أهل المدن في الجزيرة العربية، أو خلافة النبي ﷺ، أما تلك الجيوش التي هدّد النبي ﷺ بها، فقد تحوّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأة.. قد ولّى عنه الناس ونفروا منه خشية العدوى، ففقد صوابه وصرخ بمن بقي حوله قائلاً: (غدة كغد البكر في بيت امرأة من بني فلان، ائتوني بفرسي، فركبه فمات على ظهر فرسه)[٥].

هلك ذلك الطاغية كالمجنون، بعد أن تطاير الناس من حوله متقزّزين، أما النبي ﷺ فبعد أن مكث شهراً يدعو على عامر والخَوَنة الذين غدروا بالمؤمنين.. قرّر ﷺ أن يغزو بني لحيان وبني سليم: رعل وذكوان وعصية، فأعدّ جيشاً ليتحرك نحوهم، وكان أحد

---

(١) سنده جيد رواه أحمد ١-٣٠١ وأبو داود (١٤٤٣) من طريق عبد الله بن معاوية وعبد الصمد وعفان، حدثنا ثابت بن يزيد عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس وثابت وشيخه ثقة تغير ولعله وهم في ذكره لصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء والذي عند البخاري من رواية أنس وهو الذي روى القصة وعاصرها وصلى مع النبي عليه السلام تلك الصلوات لم يذكر سوى الفجر، و«بني لحيان» عند البخاري.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٨٨).

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٤٥ من طرق أخبرنا جعفر بن كيسان حدثتنا معاذة بنت عبد الله دخلت على عائشة .معاذة تابعة ثقة، التقريب وجعفر ثقة. ذيل الكاشف (٦٢).

(٤) انظر تعليق فضيلة الدكتور: قلعجي على الدلائل (٣/٣٤٦).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٩١) والبيهقي واللفظ له (٣/٣٤٦).

الصحابة يريد صحبته، لكنه في حيرة من أمره، فامرأته ثقيلة، وهو يريد البقاء معها، ويريد مصاحبة النبي ﷺ، وهي كذلك.. كانت تصاحب النبي ﷺ في كل غزوة، لكن حالتها هذه المرة لا تساعدها على المسير، فـ:

ما الذي حدث لأم سليم رضي الله عنها

يقول ابنها البار أنس بن مالك رضي الله عنه: (كانت أم سليم تسافر مع النبي ﷺ، تخرج معه إذا خرج، وتدخل معه إذا دخل)[1] (فضربها المخاض واحتبس عليها أبو طلحة، وانطلق النبي ﷺ، فقال أبو طلحة: يا رب، إنك لتعلم أنه يعجبني أن أخرج مع رسولك إذا خرج، وأدخل معه إذا دخل، وقد احتبست بما ترى. تقول أم سليم: يا أبا طلحة، ما أجد الذي كنت أجد، فانطلقا)[2].

انطلق النبي وأصحابه إلى تلك الأرض التي غُدِرَ فيها بأولئك الشباب الأطهار.. انطلق ﷺ بجيشه جنوباً إلى تلك الأرض التي تقع بين عسفان ومكّة، فما الذي حدث في:

غزوة بني لحيان

يبدو أن بني سليم (رعل وذكوان وعصية) وكذلك لحيان قد علموا بقدوم النبي ﷺ، وأدركوا فداحة جرمهم وشناعة خيانتهم للعهد، وانتهاكهم لحقوق جارهم ملاعب الأسنة، ورأوا بأعينهم ما حدث لذلك الشيطان الذي عبث بعقولهم من عقاب إلهي، وأدركوا بركان الغضب الإسلامي الزاحف نحوهم، فهربوا، وهم يحتاجون إلى من يجرّهم من جحورهم فرداً فرداً، والنبي ﷺ وجيشه ليس لديهم وقت لهذا، فالعودة إلى المدينة أنسب في الوقت الحاضر، لكن لابدّ من التخطيط للقضاء على مصادر الشرّ والجريمة المحيطة بالمدينة.. لابدّ من تأديب من يتآمرون على الإسلام والمسلمين، فالنبي ﷺ جاء للأرض كلّها.. جاء بالسلام والعلم للعالم أجمع، ولا يجوز حرمان العالم من هذه الرسالة الإلهية بسبب مجرم أو مجرمين من المشركين أو من اليهود.

عاد ﷺ إلى المدينة، وبعد عودته كان بانتظاره وانتظار صاحبه أبي طلحة خبر سعيد:

---

(١) سنده صحيح رواه الطيالسي ٢-١٦٠ وقد مر معنا عند الحديث عن الانتفاع بالخمر.
(٢) حديث صحيح رواه مسلم (٢١٤٤) وأحمد ٣-١٩٦.

أم سليم تلد طفلاً

(أخذهـا الطلق ليلة قربهم مـن المدينة، فقالت: اللّهمّ إننـي كنت أدخل إذا دخل نبيّك، وأخرج إذا خرج، وقد حضر هذا الأمر فولدت غلاماً)[1]. وكان النبي ﷺ قد قال لأبي طلحة وأنس بن مالك قبل سفره: (إذا ولدت فائتوني بالصبي)[2].

يقـول أنـس: (فقالت لي أمي: يا أنـس «انطلق بالصبي إلى رسـول الله ﷺ» لا يرضعنه أحد حتى تغدو به على رسول الله ﷺ.

فلمـا أصبحت احتملته وانطلقت به إلى رسـول الله ﷺ، فصادفته ومعه ميسـم «وهو يسم إبلاً وغنماً»، فلما رآني قال: لعل أم سليم ولدت؟ قلت: نعم. فوضع الميسم[3]، فجئته به فوضعته في حجر النبي ﷺ، ودعا رسـول الله ﷺ بعجوة من عجوة المدينة، فلاكهـا في فيه حتى ذابت، «فجعل يحنك الصبي، وجعل الصبي يتلمظ[4]، فقال ﷺ: انظروا إلى حب الأنصار التمر.

فحنكه رسـول الله ﷺ» فمسـح وجهه، وسـمّاه عبد الله)[5] (وكان يعدّ من خيار المسلمين)[6].

عاد الصغير إلى أمه واسـتجاب الله دعوة نبيّه ﷺ لأم سليم وزوجها عندما مات ابنها الأكبر ففعلت أم سليم ما فعلت تلك الليلة.

سـعيدة هي أم سليم، وسعادتها لا توصف.. سـعيدة بزوجها وابنها، ولا أحد في مثـل فرحها إلاّ امرأة تلد مثلها، وتفرح أكثر منها.. امرأة رزقت بنتاً يتيمة مات والدها قبل ولادتها، ومع ذلك فهي أسعد من أم سليم.. إنها:

---

(١) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي ٢-١٦٠.
(٢) حديث صحيح مر معنا عند الحديث عن زواج أم سليم. رواه الطيالسي ٢-١٦٠.
(٣) آلة أو حديدة يكوى بها الحيوان لتمييزه.
(٤) يذوقه بلسانه.
(٥) حديث صحيح رواه مسلم (٢١٤٤) وأحمد ٣-١٩٦ والزوائد للطيالسي ٢-١٦٠.
(٦) ليس من كلام أنس بل من كلام التابعي ثابت البناني.

أم سلمة تلد بنتاً

كانت رضي الله عنها في فترة حداد وهي حامل، ولما وضعت ابنتها سمّتها (برة) لكن سعادتها لم تكن في ولادتها فقط، بل بشيء يحملها من عالم إلى عالم آخر يضفي عليها جلالة ومهابة وكرامة وألقاباً.. عالم تكون فيه حبيبة رجل هو حلم كل امرأة، فقد استجاب الله لها كما استجاب لأم سليم، فعند وفاة زوجها أبي سلمة دعت بتلك الدعوات: (اللّهمّ اغفر لنا وله، وأعقبني منه عقبى حسنة)[1].

أخبرينا يا أم سلمة ما هي العقبى الحسنة التي وهبك الله وأكرمك بها بعد أن كبرت ابنتك؟

تقول رضي الله عنها: (لما وضعت زينب، جاءني رسول الله ﷺ، فخطبني، فقلت: ما مثلي ينكح؟ أما أنا فلا ولد فيَّ، وأنا غيور ذات عيال!! فقال ﷺ: أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك، وأمّا العيال فإلى الله جلّ ثناؤه ورسوله.

فتزوّجها ﷺ فجعل يأتيها، فيقول: أين زناب)[2] أين زينب؟ سؤال يفيض حياءً وأدباً.. سؤال ينضح بالأحاسيس النبوية المرهفة، لكن من هي زينب؟ وهل هي (برة) هذا ما سنعرفه بعد قليل. فلنعد لرسول الله ﷺ وأم سلمه.

تزوّج ﷺ من أم سلمة، ومع ذلك فهو لا يصل إليها.. لأنه صاحب أسلوب راقٍ ومهذب في التعامل مع الآخرين.. كان ﷺ يستحي أن يفرق بين تلك اليتيمة المسكينة وأمّها ولو لدقائق.. كان ﷺ يحول لحظات الكبت المزعومة إلى أجواء فرح ودعابة يضفيها على تلك اليتيمة «زينب»، وعلى أمّها التي كان يدهشها ويسرّها أن ترى حباً يتسع لها ولأيتامها، وهم أحوج الناس إلى مثل هذا النبي الإنسان المحب.

ومرّت أيام والرسول ﷺ لم يتذمّر ولم يتغيّر في تعامله مع ربيبته وزوجته، لكن الخبر وصل إلى عمار بن ياسر رضي الله عنه، وهو أخٌ لأم سلمة من أمها «سمية» الشهيدة التي قتلها الطاغية الهالك أبو جهل، فلما علم عمار بحال النبي ﷺ أطلق قدميه نحو بيت أخته أم سلمة، فأخذ ابنة أخته ليسترضعها في بيته، أو عند أحد

---

(١) حديث صحيح مر معنا انظر: صحيح النسائي (١٧٢١) وصحيح ابن ماجه (١٤٤٧).

(٢) انظر: تخريجه في الحديث التالي فهو هو.

النساء.. أخذها عمار و(اختلجها)[1]، وقال: هذه تمنع رسول الله ﷺ! وكانت ترضعها، فجاء رسول الله ﷺ فقال: أين زناب؟ فقالت قريبة ابن أبي أمية - ووافقها عندها[2] - أخذها عمار بن ياسر. فقال رسول الله ﷺ: إني آتيكم الليلة.

قالت: «فقمت» فوضعت ثفالي[3]، وأخرجت حبات من شعير كانت في جرتي، وأخرجت شحماً فعصدته له، ثم بات، ثم أصبح، وقال حين أصبح: إن بك على أهلك كرامة، فإن شئت سبّعت[4] لك، وإن أسبع لك أسبع لنسائي)[5] (وإن شئت ثلثت ثم درت؟ قالت: ثلّث)[6] فأقام ﷺ ثلاثة أيام عند أم سلمة.. ثلاثة أيام هي أسعد أيامها، ثم قال: (للبكر سبع، وللثيب ثلاث)[7] مدة إقامة المتزوج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام ﷺ عند أم سلمة ثلاثة أيام سعيدة، ثم رتّب لها يوماً كبقية زوجاته، وفي تلك الأيام الثلاثة كان يفيض على أم سلمة وعلى يتيمتها الصغيرة حباً ورحمة.. كان اسم زينب الصغيرة «برة»، فغيره ﷺ إلى اسم آخر هو زينب وذلك حالما سمعه:

تغيير اسم برة بنت أبي سلمة

تقول تلك الطفلة اليتيمة رضي الله عنها إن النبي ﷺ: (دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي (برة)، فسمعها تدعوني برة، فقال: لا تزكوا أنفسكم، فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة، سميّها (زينب). فقالت أم سلمة: فهي زينب، فقلت لها: اسمي؟

---

(١) أخذها.

(٢) أي: توافق مجيء النبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأم سلمة.

(٣) هو ما يبسط تحت الرحى عند الطحن.

(٤) أي أقمت عندك سبعة أيام.

(٥) حديث حسن رواه ابن سعد ٨-٩٣ وأحمد ٣-٣٠٧ من طريق: روح بن عبادة وعبد الرزاق حدثنا ابن جريج، أخبرني حبيب بن أبي ثابت، أن عبد الحميد بن عبد الله والقاسم ابن محمد سمعا أبا بكر بن عبد الرحمن أن أم سلمة أخبرته. أبو بكر تابعي ثقة فقيه عابد التقريب ٦٢٣ وعبد الحميد يحتاج إلى توثيق لكن تابعه القاسم وهو مثله في الدرجة انظر: التقريب ٤٥٢ والتهذيب ٦-١١٨ وحبيب ثقة فقيه جليل، وابن جريج لم يدلس. وللحديث شاهد بسند ضعيف عند ابن سعد ٨-٩٠ وأحمد ٦-٣١٣ والحاكم ٤-١٧.

(٦) حديث صحيح رواه مسلم: ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج.

(٧) حديث صحيح. صحيح الجامع (٢/٩١٩).

فقالت: غيّر إلى ما غيّر إليه رسول الله ﷺ)[1].

كان ﷺ يحب الأسماء الجميلة.. ذات يوم علم ﷺ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمّى ابنته «عاصية»، فماذا فعل..؟

يقول أخوها عبد الله: (إن رسول الله ﷺ غيّر اسم عاصية، وقال: أنت جميلة)[2]، فأصبح اسمها جميلة بنت عمر بن الخطاب.. هي جميلة حقاً، وأبوها أجمل منها.

لم يكن ﷺ يغيّر أسماء الأطفال فقط، بل كان للرجال والنساء والعجائز نصيب من ذلك الجمال، فقد (ذكر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: بل أنت هشام)[3]، و(كان ﷺ إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوّله)[4] إلى اسم أجمل وألطف.

في هذه الأجواء.. أجواء الجمال واللطف والأعراس والأسماء المحبوبة.. تشرق علينا قصة من بيت عائشة الحبيبة، حيث كان النبي ﷺ عندها، والنبي ﷺ إذا كان عند عائشة أو غيرها من زوجاته كان غاية في اللطف والرقّة والتواضع.

بينما كان ﷺ هناك.. جاءت عجوز لا تعرفها عائشة رضي الله عنها، لكنها تحدثنا عنها فتقول: (جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: من أنت؟

قالت: أنا جثامة المزنية.

---

(١) سنده قوي رواه ابن إسحاق ومن طريقه البخاري في الأدب المفرد (٨٢١) : حدثني محمد بن عمرو بن عطاء أنه دخل على زينب بنت أبي سلمة، فسألته عن اسم أخت له عنده، قال: فقلت: اسمها برة قالت: غير اسمها، ثم ذكرت كلاماً وبقية الحديث..

(٢) حديث صحيح رواه مسلم.

(٣) سنده حسن رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥).

(٤) حديث حسن رواه الطبراني ١٧-١١٩ حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطي وأبو زيد الحوطي، قالا: حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد قال: قال عتبة بن عبد السلمي: «رضي الله عنه» وقد صحح الإمام الألباني سنده في السلسلة (٢٠٩) وهذا الحكم صحيح لولا إشكالية سماع شريح من عتبة فهو كثير الإرسال، حتى لقد قيل لمحمد بن عوف: هل سمع من أبي الدرداء؟ فقال: لا . فقيل: فسمع من أحد من أصحاب النبي؟ قال: ما أظن ذلك، وذلك أنه لا يقول في شيء من ذلك: سمعت. التهذيب (٣٢٨/٤) لكن الحديث حسن بالروايات الأخرى.

فقال: بل أنت حسانة المزنية. كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله.

«فقرب إليه لحم، فجعل يناولها، فقلت: يا رسول الله لا تغمر يدك». فلما خرجت قلت: يا رسول الله.. تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان)[1].

ما أجمل هذا النبي الوفي.. تطلق وجهه لما رأى تلك العجوز التي كانت تزورهم أيام خديجة، وأضاف إلى جمال وفائه جمالاً آخر عندما غيّر اسمها.. نزع عنها ذلك الاسم الثقيل، الذي جمع في معناه أشياء كثيرة وكريهة، فهو يعني الكابوس والبليد الذي لا ينهض للمكارم، والكسلان الذي يتبرّم بالحركة! غيّره.. استبدله بـ«حسانة» اسم كالابتسامة

كانت في بيت النبوة أفراح وأعراس.. يهفو لمثلها شاب حزين.. يرنو إلى غسل ما بداخله من هموم.. شاب مثقل بالمسؤوليات، لكن الحيرة في اختيار زوجة تشغله، فهو جديد على مثل هذه التجربة، ولديه من الأيتام الكثير.

هل يتزوج فتاة صغيرة في مثل سنّ أخواته.. يقضي معها أيام مرح وسعادة..؟ أم يضحي بسعادته من أجل أخواته المسكينات، ويتزوج امرأة سبق لها أن تزوجت.. سبق لها أن كانت ربّة بيت لتعتني بأخواته الصغيرات وبه أيضاً..؟

سنترك هذا الصحابي ليقرّر، فنحن على عجلة من أمرنا، فالرسول ﷺ قرّر أن يتوجّه إلى أرض نجد.. حيث تعدّ له قبيلة غطفان جيشاً لحربه.

---

(١) سنده قوي رواه الحاكم ١-٦٢ والبيهقي في الشعب ٦-٥١٧ من طريق: الضحاك بن مخلد حدثنا صالح ابن رستم حدثنا ابن أبي مليكة.. وابن أبي مليكة تابعي أدرك ثلاثين صحابياً وهو عبد الله بن عبيد الله ثقة فقيه - التقريب ٣١٢ والضحاك ثقة ثبت التقريب ٢٨٠ أما صالح فحسن الحديث، إذا لم يخالف.. توثيقه قوي وجرحه غير مفسر، قال أبو داود: ثقة، وقال الطيالسي وهو تلميذه: ثقة، وقال البزار: ثقة، وقال ابن وضاح: ثقة وقال ابن عدي: عزيز الحديث روى عنه يحيى القطان مع شدة استقصائه وهو عندي لا بأس به ولم أر له حديثاً منكراً، وقال العجلي جائز الحديث.. أما جرحه فقد قال الدارقطني: ليس بالقوي. وقال أبو أحمد الحاكم: ليس بالقوي عندهم أما ابن معين فقال مرة: ضعيف وقال مرة: لا شيء.. وهو يعني بهذه من ليس له من الحديث إلا القليل، وهذا الجرح لا ينهض أمام ذلك التوثيق المعتبر - التهذيب ٤-٣٩١.

تزوّج ذلك الشاب، ولما دعا داعي الجهاد ودّع زوجته وأخواته، ولحق برسول الله ﷺ نحو أرض نجد، فهو لن يتخلّف عن أي غزوة يغزوها رسول الله ﷺ بعد اليوم، فوالده رحمه الله ورضي عنه قد توفي، وهو السبب الوحيد في منعه من حضور غزوتي: بدر وأُحُد.. إنه جابر بن عبد الله وهو الآن في مكان يقال له:

ذات الرقاع

مع رسول الله ﷺ حيث تقف أمامهم حشود بني محارب وغطفان، ويبدو من المشهد أن حرباً لم تقع بين الطرفين، لكن الوضع متوتّر للغاية، والأعصاب مشدودة.. خاصة أعصاب المشركين. أمّا المؤمنون، فبعضهم كان في حالة حراسة، والبعض في حالة استرخاء أو نعاس، أما نبيّ الله ﷺ فقد علق سيفه بشجرة ثم نام.

يقول جابر: (أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنّا بذات الرقاع، وكنّا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ)[1] (فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرّق الناس في العضاة يستظلّون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. «ثم نام».

قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابي جالس)[2] من بني محارب!

ماذا يفعل هذا الأعرابي، هل جاء ليعلن إسلامه، أم جاء ليفاوض؟ ما قصته، ولماذا يمسك بسيف رسول الله ﷺ..؟!

أعرابي يحاول قتل النبي ﷺ بسيفه

يقول جابر: (قاتل رسول الله ﷺ محارب خصفة بنخل، «فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر، فنزل النبي ﷺ تحت شجرة، فعلق بها سيفه ثم نام»، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٦) ومسلم (٨٤٣)، واللفظ له.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٣٥) والزوائد عنده (٢٩١٣).

(غورث بن الحارث) «فاستيقظ ﷺ وعنده رجل لا يشعر به» حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟

قال ﷺ: الله عزّ وجلّ.

فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ.

قال ﷺ: أتشهد أن لا إله إلاّ الله، قال: لا. ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلّى سبيله، فذهب إلى أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس)[1].

إذاً فقد (خرج النبي ﷺ إلى ذات الرقاع من نخل، فلقي جمعاً من غطفان، فلم يكن قتال، وأخاف الناس بعضهم بعضاً، فصلّى النبي ﷺ ركعتي الخوف)[2]، فما هي:

صلاة الخوف؟

يقول جابر رضي الله عنه: (نودي بالصلاة، فصلّى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا وصلّى بالطائفة الأخرى ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتين)[3].

أَمَّهم ﷺ جميعاً ولم يقصر، لكنه صلّى بهم مرة أخرى في هذه الغزوة وقصر معهم.

صفة ثانية لصلاة الخوف

يقول أحد الصحابة (صلّى مع رسول الله ﷺ في يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: إن طائفة صفت صلت معه، وطائفة وجاه العدو، فصلّى بالذين معه ركعة، ثم ثبت قائماً

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٦٥ والبيهقي ٣-٣٧٦ من طريق: عفان، وعاصم بن علي، وأبو بكر الإسماعيلي، حدثنا أبو عوانة، عن أبي بشر عن سليمان بن قيس عن جابر. سليمان تابعي ثقة، وتلميذه أبو بشر اسمه جعفر بن إياس تابعي ثقة، التهذيب ٤-٢١٤ وأبو عوانة ثقة ثبت اسمه: الوضاح بن عبد الله اليشكري. وزوائد الحديث عند البخاري (٢٩١٣).

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق وعلقه البخاري فقال: قال ابن إسحاق سمعت وهب بن كيسان، سمعت جابراً (٤١٢٦). وهب ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٥٨٥.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم عن جابر (٨٤٣).

وأتمّوا لأنفسهم، ثم انصرفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلّى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً وأتمّوا لأنفسهم، ثم سلّم بهم)[1].

فصلّى النبي ﷺ ركعتين، وصلّت كل طائفة ركعتين أيضاً.

كانت غزوة ذات الرقاع حافلةً بالمشاعر لا بالدماء.. حافلةً بالمعجزات والكرامات.. لم يكن فيها قتال، لكن ذلك المكان المسمى بـ: «ذات الرقاع» كان ساحة للخوف والتوتّر.. أخاف الناس بعضهم بعضاً، ثم تفرّقوا دون دماء[2].. أخاف النبي أعداءه وكسب ثناء بعضهم، وحقّق ﷺ بجيشه نصراً معنوياً له رصيده في النفوس، ثم عادوا إلى المدينة والشوق يحملهم، وكان أشدّهم شوقاً ذلك الشاب «جابر» الذي رقص قلبه طرباً عندما اقترب الجيش من المدينة، لكن شيئاً كان يعيقه عنها.. يعيقه حتى عن أصحابه، حتى كان آخر من يسير في الجيش. لقد كانت في طريق العودة قصة لـ:

جابر وجمله الهزيل

فبينما كان جابر بأحرّ الشوق إلى عروسه.. كان ذلك الجمل لا يبالي بتلك المشاعر.. يبدو أنه كان يستمتع بالراحة ومشاهدة ما حوله من مناظر، فهو يسير بطريقة مملّة ومزعجة. شاهد ﷺ ما يحدث فتحرك قلبه نحو جابر، فكانت هذه القصة المنسوجة بالمشاعر والأشواق والمعجزات:

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم «صلاة الخوف» (٨٤٣).

(١) أقول ذلك لأنه قد روي بسند ضعيف عند الأئمة: من طريق ابن إسحاق حدثنا عمي صدقة عن عقيل عن جابر، أحمد (٣/٣٤٤-٣٥٩) وأبي داود (١٩٨) والبيهقي (٣/٣٧٩) وابن خزيمة (٣٦) وحسنه شيخنا الفاضل محمد مصطفى الأعظمي حفظه الله ووافقه الإمام الألباني. وحسنه كذلك في صحيح سنن أبي داود: إن امرأة أصيبت من المشركين.. ثم ذكر قصة الصحابيين اللذين أصيب أحدهما بثلاثة أسهم بينما كان الآخر نائماً.. وهذه القصة ضعيفة السند رغم ما سبق لأنها من طريق عقيل بن جابر.. وهو لم يوثق إنما ذكره ابن حبان في ثقاته وسكت وهذا ليس بتوثيق ولذلك قال الحافظ في التقريب (٢/٢٩) إنه «مقبول» أي عند المتابعة.. ولم أجد له متابعاً.. ومما يوحي بضعفه عند الإمام البخاري رحمه الله أنه قال في الفتح - كتاب الوضوء - ٣٤ - : ويذكر عن جابر.. وعلق الحافظ بقوله: عقيل بفتح العين، لا أعرف راوياً عنه غير صدقة، ولهذا لم يجزم به المنصف، أو لكونه اختصره، أو للخلاف في ابن إسحاق. والذي يبدو لي أن السبب الأول هو الصحيح لأن البخاري ذكر ابن إسحاق وسنده الصحيح في غزوة ذات الرقاع بصيغة الجزم فقال: قال ابن إسحاق. والسبب الثاني بعيد. فبقي السبب الأول نظراً لجهالة حال عقيل رحمه الله.

يقول جابر رضي الله عنه: (خرجت مع رســـول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل على جمل لي ضعيف، فلما قفل رســول اللـــه ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلّف «على بعير قطوف»[1] «جمل ثفال إنما هو في آخر القوم»[2] «قد أعيى فلا يكاد يســـير»[3] حتى أدركني النبي ﷺ، «فمرّ بي النبـــي ﷺ فقال: من هذا؟ قلت: جابر»[4] فقال: ما لك يا جابر؟ قلت: يا رسول الله أبطأ بي جملي هذا. قال ﷺ: أنخه.

فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ «قال ﷺ: أمعك قضيب؟ قلت: نعم، قال: أعطنيه»[5] أعطنـــي هذه العصا التي فـــي يدك، فأعطيته إياها أو قطعت له عصية من شـــجرة، فأعطيته إياها، فنخسه بها نخسات، «فدعا له»[6]، ثم قال: اركب يا جابر.

فركبت «فســـار سيراً ليس يســـير مثله»[7]، فخرج والذي بعثه بالحق يواهق ناقته مواهقـــة، «فـــكان من ذلك المكان من أوّل القوم»[8]، فتحدث مع رســـول الله ﷺ فقال: «كيـــف ترى بعيـــرك»[9]، أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قلت: بل أهبه لك. قال: لا، ولكن بعنيه. قلت: فسُـــمْنيه. قال ﷺ: قد أخذته بدرهم. قلت: لا، إذاً تغبنني يا رســـول الله. قال: فبدرهمين، قلت: لا، فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ حتى بلغ الأوقية. قال ﷺ: «بعنيه بأوقية. قلت: لا، ثم قال: بعنيه بأوقية. فبعته، فاستثنيت حملانه إلى أهلي»[10]، فقال ﷺ: «ولك ظهره إلى المدينة»[11]. فقلت: أفقد رضيت؟. قال ﷺ: نعم. قلت: فهو لـــك. قال ﷺ: قد أخذته. «فانطلق بعيـــري كأجود ما أنت راءٍ من الإبل»[12]، «فلحقني راكب من خلفي فالتفت فإذا أنا برســـول اللـــه ﷺ، قال: ما يعجلك؟ قلت: إني حديث

---

(١) البخاري (٥٢٤٥). والقطوف هو البطئ.
(٢) البخاري (٢٣٠٩). الثفال هو الثقيل.
(٣) البخاري (٢٩٦٧). يعني أنه يعاني من الهزال والتعب.
(٤) البخاري (٢٣٠٩).
(٥) البخاري (٥٢٤٥).
(٦) البخاري (٢٧١٨).
(٧) البخاري (٢٧١٨).
(٨) البخاري (٢٣٠٩).
(٩) البخاري (٢٣٨٥).
(١٠) البخاري (٢٧١٨). أي اشترط جابر أن يسلمه في المدينة.
(١١) البخاري (٢٧١٨).
(١٢) البخاري (٥٠٧٩).

عهد بعرس»[١] «فقال لي رســول الله ﷺ: تزوجت يا جابر؟ فقلت: نعم. فقال: بكراً أم ثيبــاً؟ قلت: بل ثيباً. قال: فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك»[٢] «ما لك وللعذارى ولعابها»[٣]؟

«قلت: يا رســول الله، إن أبي قتل يوم أُحد وترك تســع بنات، كنّ لي تسع أخوات، فكرهــت أن أجمــع إليهــن جارية خرقــاء مثلهــن»[٤]، «فتزوجت امرأة تقــوم عليهن وتصلحهن»[٥] «تعلّمهن وتؤدّبهن»[٦]، «امرأة تمشطهن وتقوم عليهن.

قال ﷺ: أصبت»[٧] إن شاء الله «بارك الله عليك»[٨]، «بارك الله لك»[٩]، قال ﷺ: أما إنا لو جئنا صراراً[١٠] أمرنا بجزور، فنحرت، فأقمنا عليها يومنا ذلك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها. فقلت: والله يا رســول الله ما لنا نمارق. قال ﷺ: إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيسّاً «الكيس الكيس»[١١].

فلمــا جئنا صراراً أمر رســول الله ﷺ بجزورٍ «أو بقــرة فذبحت فأكلوا منها»[١٢] وأقمنــا عليها ذلك اليوم، «فلمــا ذهبنا لندخل قال ﷺ: أمهلوا حتى تدخلوا ليلاً - أي عشــاءً - لكي تمتشط الشعثة، وتســتحد المغيبة»[١٣]. فلما أمسى رسول الله ﷺ دخل ودخلنــا، فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رســول الله ﷺ، قالت: فدونك، فســمع وطاعة)[١٤].

---

(١) البخاري (٥٠٧٩).
(٢) البخاري (٥٣٦٧).
(٣) البخاري (٥٠٨٠).
(٤) البخاري (٤٠٥٢).
(٥) البخاري (٥٠٨٠).
(٦) البخاري (٢٤٠٦).
(٧) البخاري (٤٠٥٢).
(٨) البخاري (٦٣٨٧).
(٩) البخاري (٥٠٨٠).
(١٠) مكان قريب من المدينة.
(١١) البخاري (٢٠٩٧) (٥٢٤٥).
(١٢) البخاري (٣٠٨٩).
(١٣) البخاري (٥٠٧٩).
(١٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق: حدثني وهب بن كيسان عن جابر.. ووهب تابعي ثقة من رجال الشيخين - التقريب (٥٨٥).

تأثرت تلك المرأة الصالحة بذوق رسـول الله ﷺ الرفيع، وأسلوبه الرائع في منح الأنوثـة وهجهـا وعطرها الذي لا يقـاوم، حتى ينهار ذلك الحبيب القـادم أمام هذا السحر الحلال، ويستسلم ذلك المحارب مهزوماً بالحب الطاهر، وهو الذي لا يستسلم إذا هاجت الحرب والحراب.

لم يكن ﷺ وحده في رقي الذوق وجمال الأسـلوب.. زوجاته رضي الله عنهن كن كذلك.. كن نسيجاً من الرقّة والإحساس.

ذات يـوم (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نسـاء النبي ﷺ، فرأينها سـيّئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شـيء، أما ليلـه فقائم، وأما نهاره فصائـم، فدخل النبي ﷺ، فذكرن ذلك لـه، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: يا بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل. قال ﷺ: لا تفعل، إن لعينيك عليك حقاً، وإن لجسـدك حقاً، وإن لأهلك حقاً، فصلِّ ونم، وصم وأفطر «يا عثمان، إن الرهبانية لم تكتب علينا، أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا».

فأتتهن بعد ذلك عطرة كأنها عروس. فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[1] من ودٍّ ووصال في أجواء يمطر الإسلام فيها حباً وقلوباً، فما بين

المرأة والرجل

أكثر من الجسـد.. إنها أشـياء حميمة تجعل للدنيا مذاقاً أجمل.. المرأة بالنسبة للرجل -إذا تحضّر بالإسلام- عبق لا ينقطع.. ربيع في كل الفصول.. مطر صيفي.

هـل هنـاك أرقّ مـن قوله ﷺ لحـادي العيـس ذي الصوت الجميـل: (رويدك بالقوارير)[2]؟

---

(١) رجال ثقات لكنه مرسل، رواه ابن سعد (٣/٣٩٤) أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا إسرائيل وأخبرنا الحسن ابن موسى، أخبرنا زهير، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبي بردة.. وهذا مرسل إلا إن كان أبو بردة هو الصحابي - وللحديث شـاهد بسـند صحيح رواه عبد الرزاق (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.. وما بين الأقواس الصغيرة هو ما جاء فيه من حديث النبي ﷺ..

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٦١٦١).

هل هناك أبهى من قوله: (حبّب إلى من الدنيا النساء والطّيب)[1]؟

إن عثمـان بن مظعون رضي الله عنـه أراد أن ينقطع للعبادة صياماً وقياماً، حتى لقد باح للنبي ﷺ بنيّته أن يجري عملية تنقطع بها صلته بالمرأة تماماً، لكن النبي ﷺ نهاه، وقال له: (إن الرهبانية لم تكتب علينا)[2].

إذاً فلا رهبانية في الإسلام، فالرهبانية هناك عند النصارى، وخلف حصون بني المصطلق وقريظة وغيرهم من يهود.

تعالوا -وقبـل أن ننتهي من قصة جابر وجمله - نزور حصون اليهود، لنرى مدى علاقتهم بالمرأة في تلك الأيام، تعالوا نزور:

زريبة للنساء

هذا هو أقل وصف أصف به أماكن تواجد المرأة اليهودية، أمّا المرأة نفسـها عند أولئك القوم فهي أقل رتبة من الحيوان.. أقل رتبة من الخنازير القذرة.

يقـول أنـس بن مالك: (إن اليهـود كانت إذا حاضنت منهم امـرأة أخرجوها من البيت، ولم يؤاكلوها، ولم يشـاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسـئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾.

فقال رسول الله ﷺ: جامعوهن في البيوت، واصنعوا كل شيء غير النكاح، فقالت اليهود: ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئاً من أمرنا إلاّ خالفنا فيه)[3].

ها هو ﷺ مع زوجته أم سلمة رضي الله عنها نائمان فأصابها الدم، فهل طردها ﷺ من بيته أو من فراشه..؟

---

(١) صحيح رواه وأحمد ٣-١٢٨ وغيره من طرق عن ثابت عن أنس وثابت تابعي ثقة

(٢) مر معنا.

(٣) حديث صحيح رواه مسلم -الحيض وأبو داود (٢٣١).

لن أجيب.. أم سلمة ستجيب.

تقــول رضي الله عنهــا: (بينا أنا مع النبي ﷺ مضطجعة في خميصة إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، فقال ﷺ: أنفست؟ قلت: نعم. فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة)[1].

أما عائشــة فتروي لنا أشــياء تغيض اليهود حتى الموت، فتقول رضي الله عنها: (كان النبي ﷺ يقرأ القرآن ورأسه في حجري، وأنا حائض)[2].

وتقول أيضاً: (إنها كانت ترجل رسول الله ﷺ وهي حائض ورسول الله ﷺ حينئذٍ مجاور في المسجد، يدني لها رأسه وهي في حجرتها فترجله وهي حائض)[3] أي تسرّح شعره.

وناداها ذات يوم لتعطيه الســجادة ليصلّي عليها وهو في المســجد وهي حائض، فتقول: (قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخمرة من المسجد. فقلت: إني حائض. فقال رسول الله ﷺ: ليست حيضتك في يدك)[4].

إذاً فالطمث مجرد أذى يتخلّص منه جسم المرأة كما يتخلص الجسد من إفرازاته، لكن قد يقول قائل: إن اليهود كانوا يعتقدون ذلك ومعهم النصارى، لكنهم اليوم يدعون إلى تحرير المرأة، وإلى إعطائها حقوقها كاملة..؟

فأقول: لننسَ لدقائق كلام أنس بن مالك السابق، ولننسَ ما كان يفعله اليهود والنصارى في السابق، ولنقل إنهم يمثلون أنفسهم فقط، ولا يمثلون الدين اليهودي والنصراني. لننس ذلك ولنتوجه إلى يهود اليوم ونصارى اليوم، الذين أزعجونا وأزعجوا نســاءنا حول تحرير المــرأة، والمناداة بحقوقها، ماذا يقــول دينهم الآن..؟ ماذا يقول كتابهم المقدّس اليوم؟ وبعد ألفي عام من المراجعة والتمحيص والدراسة..؟ ربما نجد سرّ هذا الضجيج.

أمامي الآن كتابهم المقدس وهو يتحدّث عن المرأة، فيقول:

(وإذا كان بامرأة سيلان دم من جسدها كعادة النساء:

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٨). ومعنى أنفست: أي هل حضت.
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٥٤٩).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٩٦).
(٤) حديث صحيح رواه مسلم (الحيض) والنسائي - (٣٧١).

فسبعة أيام تكون في طمثها.

وكل من لمسها يكون نجساً إلى المغيب.

وجميع ما ترقد عليه أو تجلس عليه يكون نجساً.

وكل من لمس فراشها يغسل ثيابه، ويستحم بالماء ويكون نجساً إلى المغيب.

ومن لمس شيئاً مما تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بالماء، ويكون نجساً إلى المغيب.

إن كان فراشها أو ما هي جالسة عليه شيء: فمن لمسه يكون نجساً إلى المغيب.

إن ضاجعها رجل فأصابه شيء من دم الحيض - فكم تتوقعون مدة نجاسته؟ إلى المغيب؟ لا.

الكتاب المقدس يقول: يكون نجساً سبعة أيام.

وكل فراش يستلقي عليه يكون نجساً)[1].

إن معنى هذا أن الرجل يحيض أيضاً.

أين هذا الهراء من قول عائشة رضي الله عنها: (كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد[2]، وأنا طامث حائض، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه، لم يعدُهُ[3]، وصلّى فيه، ثم يعود، فإن أصابه منه فعل مثل ذلك غسل مكانه لم يعدُهُ، وصلّى فيه)[4].

بل إن رسول الله ﷺ يصرّ على أن تأكل عائشة وتشرب قبله وهي حائض، بل يقسم عليها، ثم يقوم بحركة تتوهج منها الرقة والحب.. حركة تدخل السرور إلى قلبها ونفسها.

سئلت عائشة رضي الله عنها: (هل تأكل المرأة مع زوجها وهي طامث؟ قالت: نعم، كان رسول الله ﷺ يدعوني فآكل معه وأنا عارك، كان يأخذ العَرْقَ[5]، فيقسم عليّ فيه، فأعترق منه[6]، ثم أضعه، فيأخذه، فيتعرق منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من

(١) الكتاب المقدس - اللاويين - شريعة ما يفرزه الجسد - ١٤.
(٢) أي الثوب الذي يلاصق الجسم مباشرة.
(٣) أي يغسل مكان الدم فقط ولا يغسل ما حوله.
(٤) حديث صحيح - انظر صحيح أبي داود (١/٥١) والنسائي (١/١٢٥).
(٥) عظم في لحم.
(٦) آكل منه.

العرق، ويدعو بالشراب، فيقسم عليّ فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشرب منه، ويضع فمه حيث وضعت فمي من القدح)[١].

أيـن هذا من ديـن اليهود والنصارى الـذي يعاملون المرأة كمخلـوق من الدرجة العاشـرة.. مخلوق نجس.. أنجس من النجاسة نفسها.. كل شيء تلمسه يتنجس.. كل شـيء يلمسـها يتنجس.. كل من لمس شيئاً لمسته ينجس. أي أن المرأة لا يمكن أن تبقى في المنزل وإلاّ أصبح المنزل نجساً ملوّثاً تجوبه الآثام والشياطين. لابدّ من وضع النساء اليهوديات والنصرانيات في زرائب خاصة نجسة، حتى ينقطع دم الحيض عنهن.

لا، وحتـى لو انقطع الطمث، فانقطاعه لا يكفـي للخروج من الزريبة، لأن كتابهم المقدس يقول: (وإذا طهرت من سيلانها فلتنتظر سبعة أيام ثم تطهر)[٢].

هل يكفي هذا أيّها الكتاب المقدس؟

لا. فالحيض ليس نجاسة فقط، بل هو ذنب ترتكبه المرأة، ولابدّ من تكفيره. كيف؟

يقول كتابهم المقدس: (وفي اليوم الثامن تأخذ لها يمامتين أو فرخي حمام، وتجيء بهما إلى الكاهن «العالم المسؤول عن دار العبادة» فيذبح واحدة ويحرق الأخرى ويكفّر عنها الكاهن بعد ذلك أمام الرب سيلان نجاستها)[٣].

ترى كم بقي للمرأة من أيام شبابها لتعامل فيها كإنسان؟

يبدو من كلامهم السابق أن المرأة قذفت من كوكب مليء بالشياطين والنفايات.

دعونـا من اليهود والنصارى الآن.. سـنعود لهم فيما بعـد، فالأيام حبلى بالمثير والجديد. سنعود إلى جابر رضي الله عنه: الذي يخرج الآن من بيته قاصداً النبي ﷺ ليسلمه جمله الذي باعه عليه، لكنه يمرّ على خاله ليسلّم عليه، ويخبره ببيعه الجمل.

يقول جابر: (فقدمت فأخبرت خالي ببيع الجمل، فلامني، فأخبرته بإعياء الجمل، وبالذي كان من النبي ﷺ ووكزه إياه)[٤] ثم توجه جابر نحو بيت رسـول الله ﷺ وهو

(١) حديث صحيح.. صحيح سنن النسائي (١/٨٠) ورواه مسلم مختصراً.
(٢) الكتاب المقدس -سفر اللاويين- شريعة ما يفرزه الجسد.
(٣) المصدر السابق.
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٤٠٦).

ملاصق للمسجد، فوصل جابر في وقت (دخل النبي ﷺ المسجد في طوائف أصحابه، فدخلت عليه، وعلقت الجمل في ناحية البلاط، فقلت له: هذا جملك)[1] (فقال ﷺ: صلّ ركعتين)[2].

وبعد أن صلّى جابر ركعتين (خرج ﷺ فجعل يطيف بالجمل، ويقول: الجمل جملنا، فبعث النبي ﷺ أوقية من الذهب، فقال: أعطوها جابراً)[3] (فوزن لي بلالاً فأرجح في الميزان)[4] (قال ﷺ: يا بلال، اقضه وزده. فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً.

قال جابر: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ. فلم يكن القيراط يفارق قراب جابر بن عبد الله)[5]، ثم قال ﷺ: (استوفيت الثمن؟ قلت: نعم)[6] (فانطلقت حتى وليت فقال: ادعوا لي جابراً. قلت: الآن يردّ عليّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليّ منه. قال ﷺ: خذ جملك ولك ثمنه)[7] (الثمن والجمل لك)[8]، فانطلق جابر بالمال والجمل وحبّ النبي ﷺ، وبشّر أخواته وزوجته بهذا اللطف والعطف الأبويّ عندما قال له النبي ﷺ: (يا ابن أخي خذ برأس جملك فهو لك)[9].

وكما كان هذا الشاب في أوج فرحه اليوم، فقد جاء إلى النبي ﷺ شاب يوشك أن يخسر زوجته.. اسمه زيد بن محمد

زيد بن محمد ليس زيد بن محمد

كان اسمه زيد بن حارثة.. اشتراه النبي ﷺ في مكة، فأعتقه، وأحبه وعاملة بغاية اللطف، وكان قد أخذ من قومه، فلما علموا بمكانه جاء أخوه «جبلة» إلى النبي ﷺ مطالباً بتسليم أخيه إليه ليردّه إلى أمّه وأبيه وقومه.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٤٣).
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).
(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٢٣٠٩).
(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦٢).
(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٢٠٩٧).
(٨) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٦١).
(٩) هو حديث ابن إسحاق الصحيح السابق.

يقول جبلة: (قدمت على رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله، ابعث معي أخي زيداً؟

قال ﷺ: هوذا، فإن انطلق معك لم أمنعه.

قال زيد: يا رسول الله، والله لا أختار عليك)[1].

قال جبلة بعد أن سمع كلمات أخيه الشاب: (فرأيت رأي أخي أفضل من رأيي)[2].

فبادل ﷺ حب زيد بحب يسير معه أينما سار، ويُعرَّف به إذا ما رؤي. لقد وهبه ﷺ اسمه، وتبنّاه، وسمّاه (زيد بن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب).

يقول عبد الله بن عمر بن الخطاب: (ما كنّا ندعو زيد بن الحارثة إلاّ: زيد بن محمد)[3] ثم زوّجه ﷺ امرأة حبشية صالحة تدعى: «أم أيمن» فولدت له حبيباً آخر لرسول الله ﷺ.. ولدت له (أسامة بن زيد بن محمد)، ذلك الطفل الأسمر العذب، الذي دخل على النبي ﷺ ذات يوم وهو في بيت عائشة وهو السابعة فـ (أراد النبي ﷺ أن ينحي مخاط أسامة. قالت عائشة: دعني حتى أكون أنا الذي أفعل. قال ﷺ: يا عائشة أحبيه فإني أحبه)[4].

ولا يكتفي ﷺ بمطالبة عائشة رضي الله عنها بأن تحبه، بل إنه ﷺ يدعو ربّه أن يحبه.

يحدّثنا أسامة عن أحضانه ﷺ، وعن قبلاته ودعواته له وهو طفل فيقول: (كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن ابن علي على فخذه الآخر، ثم يضمّهما، ثم يقول: اللّهمّ ارحمهما فإني أرحمهما)[5] (اللّهمّ أحبّهما فإني أحبهما)[6].

---

(١) سنده قوي رواه الترمذي (٣١٨٥) والحاكم ٣-٢٣٧ وغيرهم من طريق علي بن مسهر عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي عمرو الشيباني حدثني جبلة. أبو عمرو ثقة مخضرم اسمه سعد بن إياس، التقريب ٢٣٣ وإسماعيل تابعي ثقة ١٠٧ وعلي بن مسهر ثقة ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤٧٨٢) والترمذي واللفظ له.

(٤) سنده حسن، صحيح الترمذي للألباني (٤٠٩٨) وابن حبان (٥٣٤/١٥).

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٦٠٠٣).

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٣٥).

كان ذلك الطفل الأســمر عنبراً في ثياب النبي ﷺ، أما ما فعله ﷺ بأسامة بعد أن رأى الدم ينبع من جبهته السمراء الطاهرة، وما فعله لعينيه البريئتين وهما تفيضان بالدمع، فشيء مذهل.

ماذا كان يفعل ﷺ بأسامة لو كان فتاةً

عائشــة تجيب عن ذلك كلّه بقصة تأخذ بنياط القلب، ذات يوم اشتاق أسامة إلى جــدّه محمد ﷺ، فتهادى إليه في بيت عائشـــة رضي اللــه عنها، وعندما همت قدمه الصغيرة بالدخول (عثر أسامة بعتبة الباب، فشجّ وجهه. فقال رسول الله ﷺ: أميطي عنــه الأذى. فتقذرتــه. فجعل ﷺ يمصّ عنه الدم، ويمجه عــن وجهه ثم قال: لو كان أسامة جارية لحليته وكسوته حتى أنفقه)(١).

تعلمت عائشة الصغيرة الكثير من هذا المشهد، وتشربت حب هذا الطفل البرىء، أمّا والده زيد بن محمد، فقد حلاه والده ﷺ بشـــيء أنفس.. لقد زوّجه النبي ﷺ من ابنة عمّته (أميمة بنت عبد المطلب) واســـمها (زينب بنـــت جحش) فكان الزواج دليلاً على حبّ ﷺ لزيد، وعلى تحطيمه ﷺ لقيود الجاهلية التي كانت تعيق وتشـــوّه تناغم المجتمع الإســـلامي ومساواته وتآخيه، فزيد في نظر المشركين لا يزال عبداً، لكنه عند المســـلمين ابن محمد ﷺ، وهو في نظر الوثنيين لا يستحق الزواج بزينب.. لا يستحق الزواج إلاّ بأمةٍ. لكنه عند المؤمنين: حب رســـول الله ﷺ، وهو في عين النبي ﷺ أمير من أمراء الإسلام، وإن طعن من طعن في إمارته.

قال ﷺ ذات يوم وهو يتحدث عن أسامة بن زيد: (كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبـــل، وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده)(٢).

هذا هو زيد في عالم الإسلام وميزانه، أمّا أولئك الذين يرفضون ميزان الإسلام، ويصرّون على التطاول بأنسابهم فقد بشّرهم ﷺ باحتقار شنيع لا يطيقونه. قال ﷺ:

(١) حديث حسن انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للإمام الألباني (٢٠١٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٤٦٩).

(لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونّن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو: مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلّهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب)[1].

ولئن كان التراب أصلاً للجميع، ولئن جعل الإسلام زيداً ابناً لمحمد ﷺ، فقد توهج الإسلام حتى امحت فيه الفوارق.. كل الفوارق، فكانت هذه القصة التي امحى فيها كل شيء بين النبي ﷺ وأحد الشباب الفقراء، الذين لا يملكون مالاً ولا نسباً.. ذاب كل شيء بين النبي ﷺ وهذا الشاب، حتى تحدث ﷺ عنه، فظن الناس أنه يتحدث عن نفسه.

شاب ليس له سرير سوى سواعد محمد ﷺ وقلبه

شاب اسمه جليبيب

يتحدث عنه أنس بن مالك فيقول: (كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: جليبيب، في وجهه دمامة، فعرض عليه رسول الله ﷺ التزويج، فقال: إذا تجدني كاسداً، فقال: غير أنك عند الله لست بكاسد)[2].

كان جليبيب ظريفاً يهوى المزاح والدعابة إنما لا يملك المال ولا الجاه ولا النسب، لكن ذلك كله لا يهم ما دام النبي ﷺ يعتبره جزءاً منه، ويتحدّث نيابة عنه.. ما دام يملك مساحة في قلبه ﷺ.

تحدّث عنها الصحابي الجليل أبو برزة الأسلمي فقال: (إن جليبيباً كان امرأ يدخل على النساء يمرّ بهن ويلاعبهن، فقلت لامرأتي: لا يدخلن عليكم جليبيب، فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن. وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم[3] لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا.

---

(١) حديث صحيح انظر: صحيح الترمذي (٢٥٤/٣).

(٢) سنده قوي رواه أبو يعلى ٦-٨٩ وغيره من طرق عن ثابت عن أنس. ثابت تابعي ثقة سمع من أنس التقريب ١٣٢.

(٣) فتاة عزباء.

فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار: زوجني ابنتك. فقال: نعم وكرامة يا رسول الله، ونعم عيني. فقال ﷺ: إني لست أريدها لنفسي، قال: فلمن يا رسول الله؟ قال ﷺ: لجليبيب. فقال: يا رسول الله أشاور أمّها.

فأتى أمّها، فقال رسـول الله ﷺ يخطب ابنتـك. فقالت: نعم ونعم عيني. فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه، إنما يخطبها لجليبيب. فقالت: أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ أجليبيب ابنه؟ لا، لعمر الله لا تزوّجه «ما وجد رسول الله ﷺ إلاّ جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان - والفتاة في سترها تسمع».

فلما أراد أن يقوم ليأتي رسـول الله ﷺ ليخبره بما قالت أمّها، قالت الجارية: من خطبني إليكم؟ فأخبرتها أمّها، فقالت: أتردّون على رسول الله ﷺ أمره؟ «إن كان رضيه لكم فأنكحوه»، ادفعوني إليه فإنه لن يضيّعني «فكأنها جلت عن أبويها، وقالا: صدقت.

فذهب أبوها إلى رسـول الله ﷺ فقال: إن كنـت رضيته فقد رضيناه. قال ﷺ: فإني قد رضيته»، قال: شأنك بها، فزوّجها جليبيباً)[1].

زوّجها ﷺ من ذلك الشاب الفقير، الذي اختارته هي واختاره لها النبي ﷺ، وهي تعلم أنه لن يختار لها إلاّ ما يحبه الله ورسوله ﷺ، ولن يختار لها إلاّ ما يسعدها، لذا احتجت تلك الفتاة على شروط أمّها وتحكماتها التي لا تمتّ للإسلام.

اقتنـع الجميع رضي الله عنهم بخيار النبي ﷺ، فأبحر الشـابان في أيام بيضاء سعيدة، حتى جاء ذلك اليوم الذي فزع فيه أهل المدينة واستعدّوا لمواجهة عدوّ.. عندها انسـحب جليبيب من ذراعي حبيبتـه إلى ذراعي المعركة، وأخذ سـيفه وانطلق خلف حبيبه ﷺ في معركة أحب أن أسميها:

معركة جليبيب

معركـة انتصر فيها النبي ﷺ وأصحابه، وحاز فيها جليبيب على أشـياء ثمينة.. غبطه كل من حوله، وهو يحملها في سفره ذلك.. غبطه كل من حوله، وهو بين ذراعي النبي ﷺ.. ليت شعري ما الذي أوصل جليبيباً إلى هذا الحب النبوي الجارف.

---

(١) حديث صحيح انظر: ما بعده فهو باقيه.

دعونا نتمشى بقلوبنا بين غنائم جليبيب في تلك المعركة.. يرينا إياها أبو برزة ويصفها فيقول: («فزع أهل المدينة فركب جليبيب» فخرج رسول الله ﷺ في غزوة له، فلما أفاء الله عليه، قال لأصحابه: هل تفقدون من أحد؟ قالوا: نفقد فلاناً.. ونفقد فلاناً.

قال ﷺ: انظروا هل تفقدون من أحد؟ قالوا: لا.

قال ﷺ: لكني أفقد جليبيباً؟ فاطلبوه في القتلى.

فطلبوه، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه. فقالوا: يا رسول الله، هاهوذا إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه.

فأتاه النبي ﷺ فقام عليه، فقال: قتل سبعة وقتلوه!

هذا مني وأنا منه. هذا مني وأنا منه[1].

ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه، وحفر له.. ما له سرير إلاّ ساعدا رسول الله ﷺ، ثم وضعه في قبره)[2] أمام أعين الصحابة ودموعهم.. السواعد نعش لجليبيب، والكلمات أكفان كالغمام: لكني أفقد جليبيباً.. هذا مني وأنا منه..

ما أسما هذا النبي وأعظمه.. ما أرقّ مشاعره.. يخطب باسم هذا الفقير الذي يموت في المعركة بعد أن فتك بسبعة، ومع ذلك لا يأبه له أحد.. لا يذكر إذا ذكر الشهداء، ولا يفقد إذا فقد الأبطال، لكن أحضان النبي ﷺ وتجاويف قلبه تفتقده، لأنه مسلم مهما كان نسبه.. مهما كان لونه، حتى لو ارتحل عن هذه الدنيا دون أن يترك جاهاً أو مالاً.

هل يضر جليبيباً ذلك..؟ هل يضرّه أن لا يفتقده أحد إذا افتقده محمد ﷺ..؟ وحمله محمد ﷺ..؟ وجعل ساعديه له نعشاً وسريراً..؟ وتوجه بكنز تمنّاه كل من حوله عندما قال: هذا مني وأنا منه.. هذا مني وأنا منه.

---

(١) قال الراوي: مرتين أو ثلاثاً.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد (٤٢١/٤ - ٤٢٢ - ٤٢٥): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت عن كنانة بن نعيم عن أبي برزة وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم.. وعفان وثابت من رجال الشيخين. وكنانة تابعي ثقة من رجال مسلم (التقريب - ١٣٧/٢): وحماد إمام معروف وثقة مشهور. من رجال مسلم.

أما فتاته التي أحبّته لأن الله ورسوله ﷺ يحبّانه.. لأن رسول الله ﷺ اختاره لها، فقد بلغها الخبر والحزن، وبلغ المدينة كلّها ما حدث لجليبيب فأصابها الحزن، وافتقد بعض البيوت تلك الملاحة والظرف والضحكات التي يثيرها رحمه الله بدعاباته.

ذهب رضي الله عنه وترك لزوجته مجداً لا يبارى، وجعلها ملء السمع والبصر وحديث الناس وإعجابهم في المدينة، حتى قال أنس بن مالك بعد أن انتهت فترة حدادها على زوجها: (فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة)[1]، أي أن خطابها كثروا بعد جليبيب، حتى صار بيت أهلها من أوائل البيوت التي يتهافت إليه الخطاب.

هذا ما جرى لجليبيب رضي الله عنه، لكن ماذا عن زيد بن محمد..؟

فلنعد إلى زيد الذي تزوّج بذات النسب الرفيع (زينب بنت جحش) رضي الله عنها.. ها هو بيت زيد وزينب.. دخلناه فوجدنا الوجوم يخيّم عليه بعد فترة من الزمن.. القلوب في هذا المنزل الكريم على غير ما يحب رسول الله ﷺ.

لم يكن هناك توافق بين زيد وزينب، وسبحان مقلّب القلوب والأبصار. لا أدري أيّهما الذي كان مباعداً للآخر بشعوره.. هل هو زيد، أم زينب، أم هما جميعاً..؟

لم يتحمل زيد ما يحدث في صدره وصدر زوجته، فحمله إلى النبي ﷺ و(جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وأمسك عليك زوجك)[2].

قال النبي ﷺ تلك الكلمات والألم يسافر به، والحرج يحاصره.. قال ﷺ تلك الكلمات بعد أن نزل عليه الوحي بشيء يخص زيداً وزينب، ويخصّه هو بالدرجة الأولى، فقد أخبره الوحي أن زينب زوجة ابنه زيد سوف تصبح زوجته وإحدى أمّهات المؤمنين، فأخفى ﷺ ذلك الأمر على زيد خشية أن يتأثر ابنه.. خشية أن يلوك المنافقون وضعاف النفوس ذلك الحدث، ثم يلفظونه قيحاً في طرقات المدينة، وفتنةً في بيوتها.

أخفى ﷺ ذلك لأنه سيحدث لا محالة، وانصرف زيد إلى زوجته وبيته، لكن القلوب تسافر دون أن تستأذن أصحابها.. بقي الزوجان على غير وفاق حتى تفاقم

---

(١) هو جزء من الحديث الصحيح السابق.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٤٢٠).

الصــدع، فأصبح أكبر منهما ومن منزلهما، فكان الطــلاق هو الحل الوحيد، والمخرج الآمن لحياتهما ومعاناتهما.

أطلقها زيد زينب وطلّقها بعد أن شــعر أن البقاء معها شــبه مستحيل، فالإسلام جعل الطلاق بيد الرجل لأنه المكلف بالمهر والنفقة والحماية والرعاية، والرجل السويّ لا يقدم على الطلاق إلاّ بعد أن يســتهلك كل وسائل البقاء الممكنة، لكن ماذا عن المرأة المســكينة..؟ هل اضطهدها الإســلام لأنها لا تنفق ولا تدفع مهراً..؟ هل يرغمها على البقاء في بيت رجل لا تطيقه لهذا السبب فقط..؟

الجواب في قصة هذه المرأة التي تطرق باب النبي ﷺ.. تبحث عن مخرج كمخرج زيد وزينب.. تطلب ذلك وهي زوجة ســيد من ســادات الأنصــار، وخطيب من أعظم خطبائهم وبلغائهم.. صاحب خلق ودين.. ليس بالبخيل ولا بالذليل.. اســمه (ثابت بن قيس بن شــماس) لكن زوجته فتّشــت داخل قلبها عن مكان له فلم تجد، لذلك ذهبت إلى النبي ﷺ تشكو ذلك الفراغ الذي يؤرقها مع ثابت، فهل تستطيع تلك المرأة أن:

تطلق زوجها لأنها لا تحبه

ففي الظلام، وعندما بدأ الفجر يمزق خيمة ليل ثقيل على امرأة اســمها: (حبيبة بنت ســهل) وعندما صدع بلال أسوار الليل بالأذان نهضت تلك المرأة من ليلها الطويل الشــاحب.. توجّهت نحــو الباب وفتحته، ثم خرجت مثقلة بالهموم والشــكوى.. تاركة البيــت وصاحبــه، وبعد خطوات ثقيلــة وحزينة توقفت أمام باب كالفــرج.. أمام باب كالفجر.. أمام باب محمد ﷺ.

لــم تطرق الباب، بــل مكثت تنتظره كي يبدّد ليلها الطويل، ثم (إن رســول الله ﷺ خرج إلى الصبح[1]، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس[2]، فقال رسول الله ﷺ: من هذه؟

فقالت: أنا حبيبة بنت سهل. قال: ما شأنك؟

---

(١) أي صلاة الصبح.
(٢) أي الظلام.

قالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس «يا رسول الله، إني لا أعتب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني لا أطيقه.

فقال رسول الله ﷺ: فتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم».

فلما جاء ثابت بن قيس، قال له ﷺ: هذه حبيبة بنت سهل –وذكرت ما شاء الله أن تذكر – وقالت حبيبة: يا رسول الله، كل ما أعطاني عندي.

فقال رسول الله ﷺ لثابت: خذ منها. فأخذ منها، وجلست هي في أهلها «وأمره ﷺ يطلقها»)[1]، فطلقها ثابت رضي الله عنهما، ولم يستطع إرغامها على العيش معه، وبذلك انتزعت حبيبة حقها وحق غيرها من النساء من بعدها في الانفصال والخلع، فالزواج ليس سجناً ولا إكراهاً.. إنه حب ومشاركة.. ألفة وود وتكامل، فإن لم يكن الأمر كذلك فباب الطلاق وباب الخلع مفتوحان كالرحمة إلى يوم القيامة.

هذا ما لا يعرفه النصارى حتى اليوم، فالقسّ في الكنيسة يربط الزوجين برباط يسمّيه رباط الله المقدس، ثم يقول: إن ما يربطه الله لا يفكّه ابن آدم. أي أن الطلاق محرم، والزواج حتى ولو كان فاشلاً لابدّ أن يكون مؤبداً، وفي ذلك يقول كتابهم المقدس: (أما أنا فأقول لكم: من طلّق امرأته – إلاّ في حالة الزّنا – يجعلها تزني، ومن تزوّج مطلقة زنى)[2]. أي أن المطلقة تعتبر زانية عند النصارى، ومن تزوّج امرأة مطلقة فهو أيضاً زان، فلا غرابة أن نرى انتشار الخنا عند النصارى بشكل مخيف ومقزز، وما دامت المطلقة المسكينة قد حكم عليها الزنا المؤبدّ، فلن يغير من الأمر شيء أن تمارسه فعلاً.

أمّا محمد ﷺ فقد أحب المطلقة وتزوجها، وزوَّجها، وأفضل زوجاته خديجة تزوجت قبله أكثر من رجل، وها هو الوحي يخبره بأنه سيتزوج مطلقة زيد.

فرق كبير جداً بين سماحة الإسلام وتطرّف المسيحية والمسيحيون الذين يرون الزواج بالمطلقة زنا، بل يعتبرون الزواج بالبكر لا يليق بالنصراني المستقيم، وفي ذلك

---

(١) صحيح رواه البخاري (٥٢٧٥ – ٥٢٧٤) والزوائد له وأبو داود (٢٢٢٧) واللفظ له.

(٢) الكتاب المقدس – متى – الطلاق.

كتابهم المقدس: (أبناء هذه الدنيا يتزاوجون، أما الذين هم للحياة الأبدية والقيامة من بين الأموات فلا يتزاوجون، هم مثل الملائكة لا يموتون، وهم أبناء الله)[1].

لا أدري مـــا مصير البشـــر لو أخذوا بهذه المقولة المتطرّفـــة. حقاً إن الدين ليثير السـخرية متى ما عبث بكتبه ونصوصه العلماء والعبــاد، فحرّفوا وبدّلوا وغيّروا ظناً منهم أنهم يخدمونه، وهذا ما حدث للتوراة والإنجيل. لقد أصبحا مثار سخرية اليهود والنصارى أنفســهم. الإسلام شرّع الزواج وأشرع أبوابه ونوافذه، وجعله فسحة للمرأة والرجل، ومســؤولية وتلبية لحاجة بشرية ملحة، ولم يجعله قيداً وسجناً لا يستطيعان الفـكاك منه والهـرب، ولكي يبقى الزواج سـليماً مــن النكد والأمراض الجســدية والاجتماعية أنزل الله على نبيّه ﷺ تحريم الزنا، حتى تبقى ساحة الزواج نقيّة طاهرة بهذه الأحكام النقية، وبهذا القرآن العذب والسنّة المطهّرة.

أعاد الإســلام للإنســان توازنه الذي اختلّ على أيدي اليهود والنصارى، فاليهود حرّفوا التوراة.. فتحوا بين سطورها بيوتاً للدعارة، والنصارى حاولوا إقفال تلك البيوت بأحكام تحرم الطلاق، وتنهى عن الزواج أصلاً، فبقي الإنسان محتاراً بين قريتين: قرية للرهبان، وقرية للشيطان. قد تتساءل فتقول:

كيف فتحت توراتهم بيوت الخنا؟

افتح التوراة.. تجد الاتهامات القبيحة لأنقى من مشـــى على الأرض، وهل هناك أطهر من نبي..؟

التوراة المحرّفة تقول لليهود.. تقول لشـعب الله المختــار: إن إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام زنى بزواجه من أخته من أبيه سارة[2]!

إن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه وأنجب منهما[3]!

(١) الكتاب المقدس - لوقا - قيامة الأموات.
(٢) سفر التكوين - (٢٠-١٢).
(٣) سفر التكوين (١٩ - ٣١).

إن أحد الأسباط وأكبرهم -ابن يعقوب- واسمه رابين زنى بزوجة أبيه وأم أخوته، ويطير صوابك عندما تقــول التوراة إن يعقوب لما علم دعا لابنه رابين وباركه، ومدحه وسماه بالفاضل في العزّ والرفعة(1)!

إن يهوذا وهو أخٌ لرابين زنى بزوجة ابنه «لعير» واسمها «شامار»(2)!

إن داود عليه السلام رأى زوجة جاره الجميلة فناداها وزنى بها(3) ثم قتل زوجها!

إن ابن داود زنى بأخته(4).. وغيرهم.. وغيرهم.

أمّا كتابهم التلمود، فيبيح لليهودي كل شــيء خاصة مع المرأة غير اليهودية، لأنها عبارة عــن حيوان، بل وحثّ الزوجة اليهودية على عدم الغيرة من المرأة غير اليهودية، لأن الأخرى حيوان لا كرامة له، فماذا يُتوقع من شعب هكذا يُصوَّر له أنبياؤه في كتابهم المقدس، أما النصارى فرأوا اليهود في حالة تثير الاشــمئزاز، فابتدعوا الرهبانية كرد فعــل على إباحية اليهود، فكرهوا الزواج ونهوا عنــه، وحرّموا الطلاق وجعلوا المطلّقة زانية والمتزوج منها أيضاً زان.

وبهذا أصبح اليهود والنصارى بين جحيمين، فجاء الإسلام راحة ورحمة للإنسان يتقلّب فيها.. عامله لا كملاك ولا كشــيطان، بل إنســان يسعى نحو الأفضل، لكنه في ســعيه ذلك يتعرّض للعثرات والســقوط، لأنه بشر. لكن الإســلام يدفعه لمقاومة ذلك السقوط والنهوض من جديد، ولذلك قال ﷺ: (والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم)(5).

جاء أحد الصحابة واســمه (حنظلة) يستفسر عن حالة التغيّر عند المسلم عندما يغادر المســجد، وقد تأثّر بكلمة أو موعظة أو محاضــرة، فإذا ذهب إلى بيته أو دكانه خــفّ تأثره ذلك؟ فأجاب ﷺ عن هذا التســاؤل الذي يطرأ على المســلم بقوله ﷺ:

---

(1) سفر التكوين (٣٥ - ٥٥) (٤٩ - ٣).
(2) سفر التكوين (١٩).
(3) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١١.
(4) الكتاب المقدس - صموئيل الثاني - ١٣.
(5) حديث صحيح رواه مسلم (٢٧٤٩).

(والذي نفسي بيده، لو كنتم تكونون في بيوتكم على الحالة التي تكونون عليها عندي، لصافحتكم الملائكة، ولأظلّتكم بأجنحتها، ولكن يا حنظلة: ساعة وساعة)[1].

وعندما حاول ذلك الصحابي العظيم عثمان بن مظعون أن يمحو الساعة الثانية، ليبقى في ساعة عبادة ممتدة من النوم إلى النوم أوقفه ﷺ، وأعاده إلى سنّته.. إلى بشريّته، فلا رهبانية في الإسلام ولا تطرّف.

تقول عائشة رضي الله عنها: (دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة، فقلن لها: ما لك؟ فما في قريش أغنى من بعلك. قالت: ما لنا منه شيء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم، فدخل النبي ﷺ فذكرن ذلك له، فلقيه، فقال: يا عثمان بن مظعون، أما لك بي أسوة؟ فقال: بأبي وأمي، وما ذاك؟ قال ﷺ: تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال: إني لأفعل.

قال ﷺ: «يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا.. أما لك فيّ أسوة؟ أما والله إن أخشاكم لله، وأحفظكم لحدوده لأنا» فأتتهن بعد ذلك وهي عطرة كأنها عروس، فقلن: مه؟ قالت: أصابنا ما أصاب الناس)[2].

لم تشتك تلك المرأة الفاضلة من بخل ولا قلّة مال.. لم تشتك حتى من زوجها، لكنها بثّت ما بصدرها لنساء النبي ﷺ.. عبرت عن حاجة المرأة إلى وصال الزوج وحبّه، وإلاّ فإنها ستذبل، وذبول المرأة يعرف بعدم اهتمامها بنفسها وأناقتها وأنوثتها.

أعاد النبي ﷺ ذلك الرجل النقي التقي إلى أجواء الإسلام البيضاء الرحبة.. يحلّق فيها طائراً أبيض بالحب والإيمان، ثم يعود إلى عشّ حبيبته الجميل، كما يعود النبي ﷺ إلى بيته محملاً بالشوق والحب، وإذا كانت الحياة الزوجية تقتضي ذلك، فإن الحياة بكرامة إسلامية تقتضي أن يعود عثمان بن مظعون ورفاقه مع رسول الله ﷺ إلى أرض بدر مرة أخرى، بعد أن فرض الشرك ذلك عليهم متحدياً في معركة حددها أبو سفيان.. حدد موعدها، ومكانها. أما الموعد فهو بعد عام من غزوة أُحُد، أي الآن. وأمّا المكان، فعلى أرض بدر، وفي موسم بدر المشهور بالشعر والفخر والتجارة.

---

(١) حديث صحيح - صحيح الجامع (٢/١١٩٠) وهما عند مسلم.

(٢) حديث صحيح مر معنا. ورواه عبد الرزاق بسند صحيح (٦/١٦٧) عن معمر عن الزهري عن عروة وعمرة عن عائشة.

الفهرس

صدر للمؤلف

- (الفقه السهل) نشر مكتبة العبيكان.
- (التوارة والقرآن والإنجيل) نشر مكتبة العبيكان.
- (الجنة حين أتمنى) توزيع مكتبة العبيكان.
- (العقل العربي اللامفكر فيه والمسكوت عنه في مقاربات العقل العربي) توزيع مكتبة العبيكان.


العبيكان
obeikan
Printing & Packaging